
سلسلة دراسات عثمانية (١)
العثمانيون فى التاريخ والحضارة
تأليف
الدكتور محمد حرب

العثمانيون

في التاريخ والحضارة

الدكتور محمد حرب
رئيس المركز المصرى للدراسات العثمانية
وبحوث العالم التركى

المركز المصرى للدراسات العثمانية
وبحوث العالم التركى
القاهرة

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

سلسلة دراسات عثمانية (١)

المركز المصرى للدراسات العثمانية
وبحوث العالم التركى
ص . ب ٨١٧٤ مدينة نصر ـ القاهرة

مقـــدّمة

الحمد لله الذي أتاح لكاتب هذه السطور نعمة معرفة العثمانيين وتدريس تاريخهم، والكتابة عنهم.

● ● ●

ودولـة العثمـانيـين أطـول دولـة في التـاريـخ، ولا يـطول عمـر الـدول إلاّ بحضارة وعدل، وحضـارة العثمانيـين هي ذروة تطور الحضـارة الإسلاميـة، وهم جـديرون بـالاهتمام. يقـول الأستاذ الـدكتور حسـين مجيب المصري رائـد الـدراسـات التـركيـة في حـديثـه عن العثمـانيـين: «.. ولقـد عـرفتهم الشـام وبلاد المغرب، وارتبط بهم الحجاز والعراق. وتاريخهم من الأهمية بمكانٍ عظيمٍ، وهو موصول بعهدٍ طويلٍ من تاريـخ الشرق العربـي».

● ● ●

بـدأ الاهتمـام بتـاريـخ العثمـانيـين وحضـارتهم في أوروبـا في القـرن السادس عشر في معاهد الاستشراق والجامعات الأوروبية، عندمـا أرادت الدول الغربية ـ أثناء صراعها الطويل مع العثمـانيين الـذين تقدمـوا في أوروبا تقـدماً أفزعها ولم تره أوروبا من دولة إسلامية من قبل ـ أن تدرس هذا العدو العملاق ـ أي العثمانيين ـ لذلك نشأت دراسات العثمانيين في أوروبا، عدائية للإسلام وبالتالي للعثمانيين، بغية فهم الدولـة العثمانيـة لتقويض دعـائمها، حتى يـرتاح الغرب ويسود في الشرق.

ثم وَفَـدَ الطلاّب المبتعثـون من العالم الإسـلامي إلى الجامعـات الأوروبية ومعاهد أوروبـا للتحصيل، وحصّلوا ـ ضمن مـا حصّلوه ـ تاريـخ العثمـانيين وحضاراتهم؛ وبالتالي حصَّلوا أيضاً عداء العثمانيين. ورجع هؤلاء الـطلاب إلى

بلادهم ليدرّسوا تاريخ العثمانيين وعداء العثمانيين، وتناقلت عدة أجيال مسلمة، هذا العداء، حتى الآن، دون أن يفطن أحد إلى الأصل في هذه المسألة.

● ● ●

يقول الأستاذ الجليل الدكتور نهاد جتين مدير معهد الدراسات الشرقية ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة إستانبول: «إذا كانت أوروبا وإيران وروسيا والدول الاشتراكية تعادي العثمانيين لأنهم عملوا على إعلاء كلمة الله ونشر الحضارة الإسلامية، فالمثير للعجب أن تعادي بعض البلاد الإسلامية، العثمانيين».

● ● ●

حدثني الزميل مازن مطبَّقاني أن أستاذه في المرحلة الجامعية قال: «ولقد كان بطل الموقف الحقيقي في فتح القسطنطينية هو الإمبراطور قسطنطين، لما تمتع به من تضحيةٍ وشجاعةٍ!! واحتج مازن مطبقاني على ذلك بقوله: كان الأولَى «بأستاذنا الكريم أن يبرز دَوْر محمد الفاتح لأنه كان هو البطل الحقيقي لما تمتع به من عبقرية سياسيةٍ وعسكريةٍ وقياديةٍ».

● ● ●

معاداة العثمانيين قضية يحمل لواءها في البلدان العربية وغير العربية أصحاب المذاهب المعادية للإسلام، والسبب: إسلامية الدولة العثمانية، لذلك لا يُناصر تاريخ العثمانيين وحضاراتهم إلاَّ هؤلاء الذين آمنوا بالإسلام تاريخاً وحضارةً.

هؤلاء وأولئك يحتاجون إلى معرفة تاريخ العثمانيين وحضارتهم معرفة صحيحة، وهو ما اعتقد أنني أحاول عمله.

وهذا هو هدف الكتاب الذي بين أيديكم الآن.

الدكتور محمد حرب

أولاً :

العثمانيون في التاريخ

(أ) تاريخ وتراجم .

(ب) غزو وجهاد .

(جـ) عداء اليهود .

(د) ثورات .

(هـ) مسائل عربية .

(أ)

تاريخ وتراجم

(١) في البدء كانوا عشيرة.
(٢) وصية عثمان.
(٣) الأمير الشهيد مراد.
(٤) بايزيد الصاعقة.
(٥) قراءة أخبار جديدة في ضوء معلومات تاريخية قديمة.
(٦) عصر السلطان سليم.
(٧) التعريف بالسلطان عبد الحميد:
عصره، وموقفه منه.

(١)

في البدء كانوا عشيرة

عندما جاء الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، كانت تسود العالم رهبة وذعر من الأمبراطورية المغولية التي أقامها جنكيزخان.

كان جنكيزخان قد استولى على شمال الصين وبدأ زحفه نحو تركستان. ولم تكن هناك قوة بشرية آنذاك تستطيع الوقوف أمامه.

أمّا في عام ١٢٢٠م فكان أهمّ قائدين من قواد جنكيزخان قد اجتازا منطقة التركستان، وأخذا في الاقتراب من إيران. وهما: جبانويان وسوبيداي نويان. وكان المغول وقتها على دين الشامانية. لذلك كان ذعر المسلمين الأتراك في تركستان عظيماً.

في هذه الفترة تماماً وفي هذا الجو المشوب بالخوف والترقب والهلع: كان في جنوب صحراء قاراقورم بشمال خراسان ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ خيمة بدوية يسكنها حوالي نصف مليون إنسان من الأتراك المسلمين. وكان من بين هؤلاء عشيرة صغيرة تسمى قايي.

اضطر هذا الجمع الكبير إلى هجرة وطنهم عندما أحسوا بقرب خطر المغول فعبروا إيران واقتربوا من الأناضول. لم يأتوا جميعاً إلى الأناضول بل أخذ بعضهم يستقر في العراق الشمالي والبعض الآخر في غرب إيران والبعض في قفقاسيا.

أمّا عشيرة قايي الصغيرة فقد واصلت المسير نحو الأناضول. كانت

عدّتها ٤٠٠ خيمة تضم حوالي ٤٠٠٠ إنسان، تمت هجرتهم من جنوب غرب تركستان إلى شرق الأناضول على مدى عشر سنوات، كان يرأس هذه العشيرة رجل تركي يدعى كوندوز آلب، خلفه في رياسة العشيرة، بعد وفاته، ابنه أرطغرل والد الأمير القبلي عثمان، مؤسس دولة آل عثمان وعرفت الدولة العثمانية باسمه.

في هذه الفترة من الزمان دارت في منطقة ارزنجان ـ وهي في الشمال الشرقي من تركيا اليوم ـ معركة سميت باسم «ياسي جمن» بين سلطان قونية السلجوقي وبين جلال الدين خوارزمشاه خاقان تركستان. وكاد سلطان قونية أن ينهزم، فإذا بهذه العشيرة التي نتحدّث عنها وهي عشيرة قايي بقيادة كوندوز آلب تتدخل في المعركة لصالح الجانب الضعيف فتقيله من عثرته وتتسبب في انتصاره. ولم تكن عشيرة قايي تدري من أمر هذا القتال شيئاً لكنها نجدة الملهوف ونصرة الضعيف.

عرف سلطان قونية ـ بعد الانتصار ـ أن هذه العشيرة الكريمة تبحث عن وطن. وعندما أحس السلطان في أفراد العشيرة نزعة القوة وبراعة المحاربين، أقطعهم ثغراً على الحدود بين سلطنته وبين الإمبراطورية البيزنطية. وهذا الثغر، بمنظار خريطة العالم اليوم، هو المكان الذي تلتقي فيه ولايات اسكيشهر وبيلاجيك وكوتاهية في تركيا اليوم.

ويذهب ترجيح المؤرخين في تاريخ وفاة كوندوز آلب إلى عام ١٢٥٣م وخلفه ابنه أرطغرل. وفي هذا الوقت أيضاً مات جنكيزخان. وبعد مدة مات أرطغرل فأصدر سلطان قونية مرسوماً بتعيين الأمير القبَلي عثمان محلّ أبيه.

وكان وضع الأمير عثمان غريباً، إذ أنه كان أمير ثغر بمعنى أنه كان يحكم منطقة أهداها سلطان قونية لعشيرته. كان الثغر وقت إقطاعه لقايي يبلغ على أكثر احتمال ٢٠٠٠ كيلو متر مربع. تمكّن أرطغرل بجهاده ضدّ البيزنطيين أن يوسّع هذه المساحة إلى ٤٨٠٠ كيلومتر مربع تقريباً، وهي المساحة التي ورثها عنه عثمان.

وكان وضع الأمير عثمان غريباً كذلك من الناحية السياسية، إذ كان أمير ثغر تابع لقونية بعض الوقت ثم لكوتاهيه وكانتا تابعتين لدولة الإلخانيين ومقرّ حكمهم تبريز، وكانت تبريز تابعة لقوبيلاي حفيد جنكيزخان. وكان قوبيلاي هذا يتخذ من بكين ـ عاصمة الصين اليوم ـ عاصمة لهم، وكان هذا الخان مسيطراً على الجزء الأعظم من آسيا وعلى شرق أوروبا أيضاً.

تولى عثمان رياسة عشيرته قايي وهو في الثالثة والعشرين من عمره. تسلّم عثمان الإمارة من والده وثغرهما ٤٨٠٠ كيلومتراً مربعاً. وعندما مات عثمان سلّم الثغر لابنه أورخان وقد صارت مساحة إقطاعهم الثغر هذا ١٦,٠٠٠ من الكيلومترات المربعة وبعد أن استطاع أن يجد لإمارته منفذ على بحر مرمرة، ومن ثم استطاعوا ـ أقصد هؤلاء البدو الذين تحضّروا حديثاً ـ يهددون أهم مدينتين بيزنطيّتين في ذلك الزمان وهما: إزنيق وبورصة، ثم استطاعت عشيرة قايي هذه أن تقود الإمارة العثمانية لتصبح أطول الدول في التاريخ عمراً.

(٢)

وصية عثمان

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً بالحرب، أما التخطيط الإداري والتنفيذ في الإمارة فقد كان موكلاً إلى علماء الدين وكانوا يحيطون بالأمير ويتولون مسؤولياتهم. ومات عثمان بينما كان ابنه أورخان يحاصر مدينة بورصة. وأوصى عثمان لابنه أورخان وعثمان على فراش الموت. سجلها المؤرخ العثماني عاشق جلبي. والتزم بها أورخان وكل من جاء بعده من سلاطين العثمانيين. ونظراً للدلالة الحضارية والتاريخية لهذه الوصية، فإنّا نقدمها مترجمة إلى اللغة العربيّة. يقول عثمان في وصيّته:

«يا بني! إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين. وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

يا بني! أحط من أطاعك بالإعزاز. وانعم على الجنود، ولا يغرّنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني! إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جلّ جلاله.

يا بني! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت أهل له».

* * *

ولعل هذه الوصية كان النبراس الذي جعل العثمانيين يهتمون بالعلم

وبالمؤسسات العلمية وبالجيش وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاتهم إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم، وبالإدارة وبالحضارة.

* * *

وكانت أوّل تطبيقاتها، في عهد الموصي إليه ـ أورخان بن عثمان ـ فقد أقام أوّل جامعة إسلاميّة في الدولة العثمانيّة، وأقام أوّل جيش نظامي في تاريخ العالم.

(٣)

الأمير الشهيد مراد الأول

تولى مراد الإمارة العثمانية عقب وفاة والده أورخان بن عثمان. تولى الحكم عام ١٣٦٠م، وفي العام التالي لتوليه الحكم فتح أدرنة، ونقل إليها العاصمة بعد أن كانت في بورصة، ثم فتح الأراضي البيزنطية في الروملي (البلقان) بحيث جعل القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية محاصرة تماماً بالأراضي العثمانية. وبفتوحات مراد أصبحت إمارة آل عثمان متاخمة لكل من الصرب والبلغار وألبانيا.

انزعجت أوروبا انزعاجاً ظاهراً بهذا، وقام البابا أوربانوس يوحّد أوروبا لحرب العثمانيين، فقام ملك الصرب بمهاجمة أدرنة العاصمة العثمانية، وكان مراد غائباً عنها مشغولاً بمحاصرة بيغا، فعاد ليحارب ملك الصرب وليهزمه. ثم قام ملك الصرب الجديد ـ وقتها ـ مع أمير البلغار ليكوّنا اتحاداً عسكرياً لمحاربة العثمانيين وقامت الحرب وهرب أمير البلغار من المعركة ثم اصطلح الإثنان: الصربي والبلغاري مع مراد على أن يدفعا للعثمانيين جزية سنوية، ثم يقوم تيمور طاش وزير مراد بتنظيم سلاح للفرسان ويختار اللون الأحمر للعلم العثماني رمزاً للجهاد، ويقوم هذا الوزير أيضاً بفتح عديد من المدن ويفتح مدينة صوفيا عاصمة بلغاريا اليوم. ويقوم الصرب بمهاجمة العثمانيين عام ١٣٨٧م فيتحرّك علي باشا أحد القواد العثمانيين بالهجوم على أمير بلغاريا ويفتح المدن البلغارية مما جعل الأمير البلغاري يفرّ إلى نيكوبولي ثم يخرج منها ليهاجم العثمانيين على غرة، إلاّ أن يقظة هؤلاء تسببت في هزيمة الأمير البلغاري ووقوعه في أسر العثمانيين.

ثم يقوم تحالف صليبي آخر ضد العثمانيين تمثّل في اتفاق ملك الصرب مع أمراء ألبانيا ضد العثمانيين فيلحق مراد بهذا التحالف في مكان يسمى قُوصُوه وتدور في هذا المكان (عام ١٣٨٩م) معركة من معارك الإسلام الكبرى، انتصر العثمانيون فيها. وينهزم ملك الصرب ويجرح ويؤسر ويُقتل، وينتهي تماماً استقلال الصرب.

وعقب الانتصار في قُوصُوَه، قام الأمير يتفقد ساحة المعركة: الليل حالك السواد، والهلال والنجوم في السماء ينعكس على ساحة المعركة المضرجة بالدماء. ويقال أنه جاءت فكرة العلم العثماني من هذا المنظر: علم أحمر الأرضية تذكر بالدماء التي ملأت أرض قوصووه، ويزيّن هذا العلم: الهلال والنجوم، وكذلك علم تركيا اليوم.

وأثناء تفقّد الأمير المنتصر مراد ساحة القتال، إذا بجندي صربي جريح يقوم من بين القتلى ليطعن غدراً مراداً بخنجر فيقتله، ويستشهد الأمير مراد الأول في ساحة الجهاد وهو يبلغ من العمر ٦٥ عاماً.

* * *

كان مراد الأول عادلاً، ورغم أن الكنيسة أعلنته «عدواً لعيسى» و«كافراً»، إلّا أن تبعته من المسيحيين الذين استظلوا بحكمه كانوا يحبونه، فقد كان مراد يعاملهم المعاملة الشرعية للطوائف أهل الذمة، وهذه المعاملة كانت هي العدل بعينه وهي أفضل من معاملة البابا لهم.

يقول المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول: «قام مراد بأعمال هامة كثيرة. دخل ٣٧ معركة سواء في الأناضول أو في البلقان، وخرج منها جميعاً ظافراً، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون نظر لفروق العرق والدين».

ويقول عنه المؤرّخ الفرنسي كرينارد: «كان مراد واحداً من أكبر رجالات آل عثمان، وإذا قوّمناه تقويماً شخصياً، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده»..

وفي لغة الأرقام نقول أن الأمير مراد الأول ورث عن أبيه إمارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠ كم٢، وعند استشهاد مراد، تسلّم ابنه بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠ كم٢ بمعنى أنها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان.

(٤)

بايزيد الصاعقة

أول من حمل لقب سلطان في آل عثمان

لم ينتقل آل عثمان من طور الإمارة إلى طور السلطنة إلاّ في عهد بايزيد الأول المشهور بالصاعقة، وبه أصبحت الإمارة العثمانية الدولة التي عرفناها باسم الدولة العثمانية.

كان يتميز الصاعقة بالطموح في سياسته وهي التوحيد، فقد بذل أكبر جهد في توحيد منطقة الأناضول تحت قيادة الإمارة العثمانية الفتية. وكانت له طموحاته في أن يقود العالم الإسلامي تحت إمرته لذلك كان احتكاكه أكثر من مرة بدولة المماليك في الشام ومصر وكان على وشك الدخول معهم في صراع كبير معها لولا زحف تيمورلنك على الأناضول. ومن طموحاته الجهاد ففتح ألبانيا وفتح رومانيا وحاصر القسطنطينية سبعة أشهر كاملة واضطر لفك الحصار لأن ملك المجر سيجسموند ـ على رأس حملة صليبية بعد إعلان البابا الحرب الصليبية في كل أنحاء أوروبا ـ كان في طريقه للقضاء على العثمانيين.

قصة هذه الحملة الصليبية أن سيجسموند استنجد بالبابا وبأوروبا لتكوين حملة أوروبية لإنقاذ المجر وبيزنطية من الخطر العثماني، فحملت الحملة شعار سحق الأتراك أولاً ثم احتلال القدس.

تكونت هذه الحملة من جيوش مجرية وفرنسية وألمانية وبولندية وانجليزية وإيطالية وإسبانية، واجتازت هذه القوات المشتركة ـ بعد أن بلغت ١٣٠,٠٠٠ محارباً ـ نهر الطونة (نهر الدانوب) وبلغت مدينة نيكوبولي وعندها دارت رحى

معركة سميت باسمها أي باسم هذه المدينة بين الصليبيين بقيادة سيجسموند ملك المجر وبين العثمانيين بقيادة الأمير بايزيد الصاعقة عام ١٣٩٦م (٧٩٨هـ).

انتهت معركة نيكوبولي بانتصار العثمانيين، وأسروا كثيراً من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر قائد قوات بورغونيا وولي عهدها. وقد ألزم هذا الكونت على القسم بألاّ يعود إلى حرب العثمانيين. وبعد قرار بايزيد إطلاق سراح الأمراء الأسرى بعد دفع الفدية، أراد بايزيد أن يحلّل الكونت دي نيفر من قسمه. قال بايزيد: «أيها الكونت! لك أن تعود مرة أخرى لمحاربتي لكي تمسح العار الذي لحق بك. واعلم أني لا أخاف من عودتك وإلاّ ما كنت أطلقت سراحك، تعال وقتما تشاء فستجدني وجنودي أمامك. ذلك لأني ولدتُ لكي أنتصر على المحاربين الصليبيين الذين أجدهم أمامي».

وعقب انتصار العثمانيين في نيكوبولي، أرسل الأمير بايزيد الأول، أنباء هذا الانتصار إلى الخليفة المتوكّل العباسي بالقاهرة، فكان جواب الخليفة عليه أنه أرسل إليه تشريفاً وخلعة وسيفا وكان هذا معناه الاعتراف ببايزيد سلطاناً على إقليم الروم.

وبذلك أصبح الأمير بايزيد العثماني أوّل من حمل لقب سلطان في آل عثمان، وكما يقول أستاذي المؤرخ التركي الكبير شهاب الدين تكين ضاغ عليه رحمة الله: «إن هذا كان في الواقع تأكيداً رسمياً لواقع العثمانيين».

وكان يمكن لبايزيد اكتساح أوروبا.. لولا ما قدّره الله.. من قدوم خطر تيمورلنك الذي عصف بالسلطنة العثمانية وسبب انهيارها لفترة.. حتى استعادت وحدتها مرة أخرى على يد ابنه محمد الأول ويسمى أيضاً بمحمد جلبي.

(٥)

قراءة أخبار جديدة في ضوء معلومات تاريخية قديمة

أولاً ــ أما الأخبار فننقلها عن جريدة مليت التركية يوم ٢٩/١١/١٩٧٩ وما بعده، وعلى ثلاث فقرات:

(١)

* وصول البابا جون بول الثاني. إعلان حالة الطوارىء في جميع أنحاء تركيا.

* فخري كوروتورك رئيس الجمهورية التركية يستقبل البابا في المطار.

(٢)

الهدف من زيارة البابالتركيا: توحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية.

* البطريق الأرثوذوكسي ديمتريوس الأوّل، يجيب على سؤال حول إمكان اتحاد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية بقوله: «الله أعلم».

* مطران الأرثوذوكس الروم يقول: هذا اللقاء خطوة هامة، لأنه يتحقق في وقت تجد المسيحية نفسها تحت ضغط العالم الإسلامي الذي يتيقظ وينهض من جديد.

(٣)

* القبض على ٣٠٠ شخص احتجوا على زيارة البابا لتركيا.

* بيان يصدر من مقر حزب السلامة الوطني يعرب عن استنكاره لزيارة البابا لتركيا في وقت تأخذ العلاقات التركية بالبلدان الإسلامية طريقاً قوياً.

* انفجارات في عدة أماكن احتجاجاً على زيارة البابا لتركيا.

* محمد علي أغجا، المتهم بقتل رئيس تحرير جريدة مليت، يهرب من السجن ليحاول قتل البابا، ويصف البابا ــ في رسالة أرسلها إلى جريدة مليت ــ بأنه قائد صليبي.

* المقال الرئيسي في مليت، يقول: ليس في زيارة البابا لتركيا أي معنى متعصّب، في عصر انتهت فيه الحروب الصليبية ودانت تركيا فيه بالعلمانية.

* طلاب الدراسات الدينية في تركيا يحتجون على زيارة البابا لتركيا.

* من تصريحات البابا في تركيا: إني أوّل بابا في التاريخ ينحني باحترام أمام مقبرة أتاتورك.

* البابا يتحدّث في الكنيسة الكاثوليكية الواقعة داخل السفارة الإيطالية في أنقرة.

* البابا يقول: إننا هنا في دولة عصرية حديثة لا تجبر أحداً على اعتناق دين آخر.

* البابا يصل إستانبول ويتحدّث في البطريركية الأرثوذكسية قائلاً: تركيا بلد له أهميته القصوى دينياً وتاريخياً.

* التلفزيون الألماني يقول: المسلمون الأتراك يضطهدون النصارى.

* الصحافة الأوروبية تهتم بزيارة البابا لتركيا وتقول أن البابا جون بول الثاني، استقبل في تركيا ببرود. لكن بعض المعقبين السياسيين الأوروبيين يقولون: إن هذا أمر طبيعي في بلد مسلم.

ثانياً ــ أما المعلومات التاريخية القديمة فننقلها عن المصادر المملوكية والعثمانية والتي تنتهي إلى القرن الخامس عشر الميلادي وبالتحديد في يوم ٢٩/٥/١٤٥٣ وهو يوم فتح القسطنطينية (إستانبول): وهي أيضاً في ثلاث فقرات:

(١)

* المصادر المملوكية تتحدث عن الفرحة الشعبية والرسمية وإقامة الزينات في الشوارع القاهرية احتفالاً بانتصارات العثمانيين على «الكفار» أي الأوروبيين.

* استعدادات الأتراك لفتح القسطنطينية (استانبول) تبدأ في أدرنة. صب المدافع الضخمة.

* الأتراك يبنون قلعة روملي حصاري على الجانب الأوروبي من استانبول للتحكم في البسفور.

* انفصال الكنيسة الأرثوذوكسية عن روما يتم في القرن الحادي عشر. استانبول تصبح مقر الأرثوذكسية.

* مقر الكنيسة الأرثوذكسية الأخرى تقع في: الإسكندرية ـ إنطاكيا ـ القدس ـ موسكو ـ رومانيا ـ الصرب (يوغسلافيا) ـ بلغاريا.
البطريركية الكاثوليكية تشمل: الشعوب اللاتينية في البحر الأبيض المتوسط ـ إيرلندا ـ ألمانيا الجنوبية الخرواتيين.

(٢)

* إمبراطور القسطنطينية قسطنطين (أرثوذكسي) يرسل رسالة عاجلة إلى البابا نقولا الخامس بابا الكنيسة الكاثوليكية بروما، يطلب معونة عسكرية أوروبية.

* الإمبراطور قسطنطين يميل لاتحاد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية.

* البابا نيقولا الخامس بابا الكنيسة الكاثوليكية، يرسل الكاردينال إيزودور إلى القسطنطينية (إستانبول) نائباً عنه.

* الكاردينال الكاثوليكي إيزودور يصل إلى إستانبول.

* شعب القسطنطينية (إستانبول) يحتج على زيارة مندوب بابا روما.

* ممثل بابا روما يصل إلى كنيسة أياصوفيا بإستانبول ويقيم فيها المراسم الكنسية على الطريقة الكاثوليكية.

* شعب القسطنطينية يعتبر إقامة المراسم على هذا الشكل تحدياً لمشاعره.

* الدوق الكبير (رئيس الوزراء) في القسطنطينية يحتج على إمبراطوره ويرفض الخضوع لكنيسة روما.

* جناديوس يعارض اتحاد الكنيستين خوفاً على الكاثوليكية من الفناء.

* نوتاراس يقول: أفضِّل رؤية العمامة التركية في القسطنطينية على رؤية القبّعة اللاتينية، أي الكاثوليكية.

* يتردد الخبر الآتي في المصادر القديمة: لم ينس أهل بيزنطية ـ أي أهل القسطنطينية ـ بعد، الأعمال الوحشية التي ارتكبها أتباع الكنيسة الكاثوليكية عام ١٢٠٤م في إستانبول عندما غزوها.

* الكاردينال الكاثوليكي إيزودور يغادر إستانبول بعد أن فشل في توحيد الكنيستين.

* بابا روما يرسل نجدة عسكرية لإستانبول خوفاً من أن يفتتحها المسلمون.

(٣)

* بدء الهجوم العثماني على القسطنطينية فجر ٢٩/٥/١٤٥٣م.

* ٢٩/٥/١٤٥٣م: الأتراك العثمانيون يفتحون القسطنطينية.

* السلطان محمد الفاتح يعيد للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها الكاثوليك.

* الفاتح يعطي الأرثوذكس حقّ انتخاب رئيسهم الذي يشرف على شؤونهم. جناديوس يصبح أوّل بطريق لهم بعد الفتح.

* الفاتح ينقذ إيمان الأمة الأرثوذكسية ويحيي الأرثوذكسية بعد أن كانت آخذة في الخفوت.

* الأرثوذكسية تقف على أقدامها منافسة قوية للكاثوليكية.

* حسب أوامر السلطان محمد الفاتح عند دخول إستانبول مظفراً لم تغتصب إمرأة ولم يمس شيخ عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى.

* حسب أوامر السلطان محمد الفاتح، لم تهدم كنيسة ولا صومعة ولا دير ولا بيعة.

(٦)

عصر السلطان سليم

يتساءل المؤرخون الغرب عن السبب في أن العثمانيين تركوا جهادهم وفتوحاتهم في أوروبا واتجهوا إلى الشرق الإسلامي ليحاربوه ويفرضوا عليه سلطانهم وكان الأولى بهم الحرب في أوروبا حيث التكتّل الصليبي ضد العثمانيين المسلمين.

وللإجابة عن هذا التساؤل لا بدّ من فهم عهد السلطان سليم منذ أن كان أميراً وحتى نهاية حياته.

تولي سليم إمارة طرابزون في عهد والده السلطان بايزيد الثاني وعهد بايزيد هذا كان يقابل تاريخياً عهد قيام الدولة الصفوية في إيران. وجدّ الشاه إسماعيل الصفوي في مدّ نفوذه على آذربيجان واستولى على كل أراضي الآق قيونلو. ورأى هذا الشاه أن من مصلحة دولته الشيعية الاستيلاء على الأناضول. وكان الأناضول عثمانياً سنّياً.

أرسل الشاه إسماعيل الصفوي دعاته لنشر مذهبه في الأناضول وما لبث هؤلاء أن وجدوا بعض المؤيدين، وما لبثت جماعة القيزيل باش (أي العلويين) في منطقة إنطاكيا العثمانية أن قاموا بأوامر من الشاه إسماعيل بالتمرّد على سلطة الدّولة العثمانية استجابة لهذه الأوامر. وقاد هذا التمرّد شخص عرف باسم شاه قولو (أي عبد الشاه)، وكان هذا التمرّد رهيباً، استخدم العثمانيون كل قوتهم حتى استطاعوا إخماده، لأن التأييد الخارجي كان متلاحقاً لمساعدة المتمرّدين. وكان لا بدّ بالطبع من إعدام عبد الشاه.

اعتبر هذا التمرّد الشيعيُّ بدء مرحلةً هامةً في تاريخ الدولة العثمانية، بل وفي تاريخ العالم الإسلامي، إذ لو قام السلطان بايزيد الثاني بسرعة لإخماد التمرّد لانتهى أمره قبل استفحاله، لكن تلكؤ السلطان في قمعه أدى لأن تتجه الأنظار: أنظار الجيش العثماني وأنظار الشعب العثماني إلى الأمير سليم الابن الأصغر للسلطان بايزيد، وكان سليم والياً على ولاية طرابزون العثمانية وهي قريبة من إيران، وكان سليم معروفاً بأنه عدو الشيعة اللدود. وكان يميل وهو على رأس هذه الولاية إلى الاحتكاك بالقوة الشيعية الناهضة بصخب، ورأى الأمير الصغير أن والده متهاون في ضرب الدولة الصفوية، لذلك اتجهت الأنظار كما قلنا إلى سليم.

ولما اعتزل بايزيد العرش وتولّى ابنه سليم الحكم عام ١٥١٢م. جاءت الرسل من كل أنحاء العالم لتهنئة السلطان الجديد. ولم يحضر أحد من إيران الصفوية عدوة سليم، لكن سليم كان يعدّ العدّة نحو هدفه الواضح وهو: لا جهاد ولا غزو في أوروبا طالما أن الدولة الصفوية تنمو وتكبر والنفوذ الشيعي يمتدّ يميناً وشمالاً مما سيؤدي إلى أن تضرب العثمانيين من الخلف. ومن هذا الهدف نبعت استراتيجية عصر سليم: القضاء على الدولة الصفوية والنفوذ الشيعي في الأناضول.

ووجد سليم أن النفوذ البحري البرتغالي قد أخذ يهدد العالم الإسلامي بعد أن ثبّت البرتغاليون وجودهم في الخليج العربي وخليج عمّان وأصبحوا يهددون الجزيرة العربية. ولم تكن الدولة المملوكية وقتها بقادرة على حماية الجزيرة العربية ومكة المكرّمة والمدينة المنورة ــ خاصة وقد تحالف البرتغاليون مع إيران الصفوية الشيعية.

بدأ سليم بحصر اسماء العلويين في الأناضول فوجدهم أربعين ألف نسمة واستفتى في قتلهم فأُفتي له. وقد كان يريد بذلك أن يكون ظهره آمناً وهو يحارب الشاه، ثم أرسل سليم الرسل إلى الشاه إسماعيل يدعو إلى: «ترك الفتنة والتوبة والإسلام». وتبودلت الرسائل بين الاثنين وسليم آخذاً طريقه إلى إيران.

وفي ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤م حدثت موقعة جالديران فانتصر سليم وهزم الشاه إسماعيل. وكانت المعركة شديدة حتى أن الشاه الصفوي إسماعيل هرب فراراً بحياته تاركاً تاجه وعرشه وزوجته في ميدان المعركة. ودخل سليم العاصمة الإيرانية وقتها وكانت تبريز.

وعندما كان سليم في طريق عودته إلى إستانبول ضم إلى دولته أراضي ذي القادر لأن حاكمها علاء الدين ـ التابع لدولة المماليك ـ قد رفض مساعدة سليم عندما كان هذا في طريقه إلى إيران، مما جعل الدولة المملوكية ـ في الشام ومصر ـ تتوتر وتأخذ حذرها من العثمانيين. وقام بين الدولتين عداء ساعد فيه الاتفاق بين دولة المماليك في مصر والشام وبين الصفويين في إيران ضدّ العثمانيين. وزاد الأمر تعقيداً عثور المخابرات العثمانية على خطاب تحالف سري يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفُرس. والخطاب محفوظ الآن في أرشيف متحف طوب قابو في إستانبول.

ولما كان سليم يريد إعادة الكرة على إيران مرة أخرى، فإنه رأى الحرب مع المماليك وسيلة لتأمين ظهر القوات العثمانية في حربها مع الفرس. والتقى الجمعان: العثمانيون بقيادة سليم، والمماليك بقيادة قانصو الغوري على مشارف حلب في مرج دابق عام ١٥١٧م وانتصر العثمانيون وقُتل الغوري. لكن العثمانيين أكرموا الغوري بعد مماته فأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب ودخل سليم حلب ثم دمشق ودُعيَ له في الجوامع وسكت النقود باسمه سلطاناً وخليفةً. ومن سوريا أرسل إلى طومانباي في مصر رسالة يعرض عليه فيها حقن الدماء بشرط أن تكون غزة ومصر تابعة لطومانباي على أن يدفع خراجاً سنوياً ويكون تابعاً للدولة العثمانية. لكن المماليك قتلوا رسول سليم بعد أن سخروا منه، فكان لا بدّ من الحرب مع صعوبة اجتياز صحراء فلسطين بليلها الشديد البرودة. لكن سليم قد عزم على الحرب وتحرّك لها ولبس الفرو حماية له من ليل الصحراء في فلسطين. وقد يزول الآن عجب هؤلاء الذين يرون صورة سليم وهو في حملته على مصر وقد

ارتدى الفرو قائلين أن البلاد حارّة وألاّ سبب لارتدائه. لكن العجب هو نزول المطر على أماكن سير الحملة ــ وهو نادر الحدوث ــ مما يسّر اجتياز الجيش العثماني للصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يَسْهل اجتيازها.

يروي سلاحشور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب ــ وكان مصاحباً لسليم ــ أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاء حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر.

وانتصر العثمانيون على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية.

يردد كثير من المؤرخين أن انتصار العثمانيين مردّه إلى استخدام جيوشهم للبنادق بعكس المماليك الذين اعتمدوا على استخدام السيف والفروسية. وهذا قول مجانب للحقيقة التاريخية، فقد كان لدى المماليك سلاح البندقية وكان عندهم مدافع أوروبيّة وخبراء عسكريون أوروبيون وكانت استراتيجية طومانباي في معركة الريدانية تقوم على استخدام المدفعيّة.

تعود الأسباب التي أدّت إلى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم إلى:

١ ــ التفوّق التكنولوجي لدى العثمانيين: فسلاح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لا تتحرك، في حين كان سلاح المدفعيّة العثماني يعتمد على مدافع خفيفة يمكن تحريكها في كل الاتجاهات.

٢ ــ سلامة الخطط العسكرية العثمانية: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضطروا إليها ومحاربتهم في أرض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك. كل ذلك كان مما يدخل في عوامل النصر. ومن سلامة التخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة ــ إذا أريد تحريكها ــ ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطّم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

٣ ـ معنويات الجيش العثماني العالية وانخفاض هذه لدى المماليك.

٤ ـ النظام الاجتماعي الثابت العادل في الدولة العثمانية، واضطراب هذا النظام وظلمه في دولة المماليك.

ودخل سليم القاهرة ونودي به سلطاناً خليفة خادماً للحرمين الشريفين، بعد أن تسلّم مفاتيح مكة والمدينة وكان سليم كريماً مع ابن أمير مكة الذي قابله في القاهرة، كريماً مع أهل الحجاز، فقد أرسله معززاً مكرماً إلى مكة وأرسل معه الخيرات الكثير لأهل المدينتين المقدستين مكة المكرّمة والمدينة المنورة.

وفي مصر، أعاد سليم تنظيم البلاد وأصدر قانون نامه مصر لتنظيم مصر ولتدار به.

وعاد سليم إلى إستانبول بعد أن اتسعت رقعة الدولة العثمانية وتوحدت تحت رايتها البلاد العربيّة. عاد ليجد الشيعة وقد أشعلوا فتنة أخرى ليلهوه بها عن التصدّي لهم. وجد تمرد قام برياسته من يدّعي جلال اليوزغادي وهو شيعي علوي ادّعى المهدية وجمع حوله ٢٠,٠٠٠ شخص وفرض الخراج على منطقة طوقاد في الأناضول، وكانت فتنة شديدة وكانت عام ١٥١٩م. وأرسل إليهم سليم، قائداً عثمانياً شجاعاً هو: شهسوار أوغلو علي بك فقام بإخماد التمرّد وقتل المهدي هذا، وأعاد السكون إلى المنطقة.

وفي عام ١٥٢٠م ومن جرّاء خُرّاج صغير ظهر في ظهره مات سليم بعد أن أخمد الفتن وأدّب الصفويين وأمّن الأمن الداخليّ ومهّد للوحدة الإسلامية وأفسح الطريق لابنه ويسّره لغزو أوروبا مطمئناً.

(٧)

التعريف بالسلطان عبد الحميد الثاني

(١٨٤٢ ـ ١٩١٨م)

عصره وموقفه منه

ولد عبد الحميد الثاني وهو ابن السلطان عبد المجيد صاحب فرمان التنظيمات الذي ينظِّم الدولة العثمانية على الطراز الأوروبي ـ ولد في ٢١ سبتمبر عام ١٨٤٢م، وتولى العرش خلفاً لأخيه مراد في ٣١ أغسطس عام ١٨٧٦م وماتت أمه وهو في الحادية عشرة من عمره فربته زوجة أبيه وعاملته معاملة الأم شفقة ورحمةً وعنايةً.

درس عبد الحميد العلوم الأساسية في عهده وبجانبها تعلّم اللغة العربيّة وأجادها والفارسية وأجادها وكان ينظم الشعر. وكان شخصية قويةً منذ صغره. كان متديناً وسط جو أوروبي يعيشه أمراء القصر السلطاني وحريصاً على أداء الصلاة في أوقاتها، عفيفاً، لا يشرب الخمر، ويمنع تدخل نساء القصر في السياسة أو شؤون الدولة منعاً باتاً. وفي ذلك تروي ابنته الأميرة عائشة (نقلاً عن مصطفى مفتي أوغلو، ص ١٦٧) الحكاية التالية:

«في اليوم التالي لتنصيب والدي السلطان عبد الحميد سلطاناً على الدولة العثمانية. قابل زوجة والده التي أحبها حباً ملأ عليه فؤاده، وقبّل يدها، وقال لها:

ـ بحنانكِ لم أشعر بفقد أمي. وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها،

ولقد جعلتك السلطانة الوالدة [وهو لقب خاص بأم السلطان] . لكني أرجوك بإصرار ألّا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، وانصاعت هي لهذا الأمر تماماً».

وكان عبد الحميد، قد اتهم بالاستبداد، وبدأ حكمه الفردي بافتتاح مجلس «المبعوثان» لكنه سرعان ما عطّله إلى أجل غير مسمّى وكان هذا التعطيل في ١٣ فبرايرعام ١٨٧٨م واستمرّ الحكم الفردي لعبد الحميد مدة ثلاثين عاماً ونصف عام تقريباً يعني حتى ١٣ يوليو ١٩٠٨ عندما ثار عليه الجيش فاضطر إلى إعلان الحكم النيابيّ، وافتتح البرلمان للمرة الثانية.

لكنه كان رحيماً بالمعارضين له يستميلهم بقدر إمكانه، وإذا نفى أحداً منهم ينفيه إلى مكان بعيد بعد أن يمنحه منصباً عالياً وراتباً كبيراً، فعل هذا ـ على سبيل المثال ـ مع نامق كمال الشاعر العثماني المعروف ومع ضيا باشا الأديب العثماني الذائع الصيت.

أسوق هنا ترجمة لقصيدة نظمها الفيلسوف التركي رضا توفيق وهو من كبار الاتحاد والترقي وكان من أكبر المعارضين لحكم عبد الحميد. وهذه القصيدة لم يكتبها الشاعر إلّا بعد وفاة السلطان عبد الحميد، يقول فيها:

عندما يذكر التاريخ اسمك
يكون الحق في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم
كنّا نحن الذين افترينا ـ دون حياء
على أعظم سياسي العصر

* * *

قلنا إن السلطان ظالم وإن السلطان مجنون
قلنا لا بدّ من الثورة على السلطان
وصدّقنا كل ما قاله لنا الشيطان
وعملنا على إيقاظ الفتنة

* * *

لم تكن أنت المجنون، بل نحن، ولم نكن ندري
علقنا القلادة على فتيل واهٍ
لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عدمنا الأخلاق
فلقد بصقنا ـ أيها السلطان العظيم
على قبلة الأجداد.

بدأ عهد عبد الحميد بالمشاكل العديدة. تمرّد الصرب والجبل الأسود، وهو تمرّد بدأ في آخر عهد عبد العزيز، وكان الوضع في جزيرة كريت مضطرباً ولم يكن في صالح الدولة. والخديوي إسماعيل خديو مصر قد أرسل قوات تساعد الدولة في البلقان، وكان العثمانيون قد احرزوا انتصاراً على قوات الصرب في معركة الكسيناج، ولكن عندما اقترب العثمانيون من دخول بلغراد إذا بروسيا توجه إنذاراً للدولة العثمانية فخافت الدول الغربيّة وعلى رأسها إنجلترا من مغبّة تدخل روسيا وعقدت هذه الدول مؤتمر الترسانة المشهور في إستانبول في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م برياسة صفوت باشا وزير الخارجية العثمانية. في هذا اليوم أعلن عبد الحميد الثاني الحكم المشروطي في الدولة.

والواقع أن هذا المؤتمر قد جعل الدولة العثمانية مجبرة على القيام بإصلاحات في البوسنة والهرسك وبلغاريا. وفي ١٨ يناير عام ١٨٧٧م اجتمع في الباب العالي مجلس مكوّن من ٢٤٠ شخصاً لدراسة مقترحات مؤتمر الترسانة، ودفع مدحت باشا بالمجلس إلى رفض مقترحات الدول وكذلك دفع مدحت باشا طلبة العلوم الدينية العالية إلى القيام بمظاهرات لإجبار السلطان عبد الحميد على الحرب. قام المجلس بإجبار السلطان على التصديق على قرار المجلس برفض مقترحات المؤتمر، فانفض السفراء وتركوا الدولة العثمانية بمفردها تواجه الروسيا.

ولّما كان نابليون الثالث قد أرسى دعائم الفكر القومي العرقي في أوروبا فقد استغلّ الروس فرصة انتشار هذا الفكر وقاموا بدعايات ضخمة لإنقاذ إخوانهم السلاف الواقعين تحت الحكم التركي. وفي ٢٤ أبريل ١٨٧٧م، أعلنت

روسيا الحرب على العثمانيين وبذلك بدأت الحرب العثمانية ـ الروسية المشهورة والتي استمرت من عام ١٨٧٧م إلى عام ١٨٧٨م وعرفت في التاريخ باسم حرب ٩٣. وهذه الحرب نكبة من نكبات التاريخ العثماني، فقد رافق خسارة العثمانيين في الأرض، مشكلة هجرة مليون مسلم عثماني من بلغاريا إلى إستانبول. وهذه الهجرة جعلت المسلمين في البلقان أقلّية فقد كانت بداية وهذه المسألة هي أصل مشكلة الأقلّيات الإسلامية اليوم في بلغاريا وغيرها من دول البلقان. وعندما هاجر المليون عثماني في هذه الحرب رافقتهم مشاكل اجتماعية كبيرة في الإسكان وفي المعيشة. وأخيراً، عقدت في ٣١ يناير ١٨٧٨م معاهدة لإنهاء الحرب التي استمرّت تسعة أشهر وسبعة أيام. والتي تحدّث عنها عبد الحميد كثيراً وبألم واضح في مذكراته.

وأمام ما تصوّره عبد الحميد من قصور في الرأي العام ممثلاً في هذا المجلس الذي دفع بالأمة إلى حرب هي في غير استعداد ولا حاجة إليها، قام السلطان في ١٣ فبراير ١٨٧٨م بتعطيل الحياة النيابية إلى أجل غير مسمّى، واضطرّ وزير الخارجية العثمانية أن يوقع معاهدة أياسطفانوس التي فرضتها روسيا على الدولة عقب حرب ٩٣ والواقع أن هذا الوزير قد بكى وهو يوقع المعاهدة لأنها كانت مجحفة بالدولة. إلّا أن السلطان يذكر في هذه المذكرات أنه عمل كثيراً على تخفيف وقع هذه المعاهدة على الدولة، بتوقيع معاهدة أخرى هي معاهدة برلين في ٣ يوليو ١٨٧٨م يعني بعد أربعة أشهر وأحد عشر يوماً من المعاهدة الأولى.

وفي ٢٠ مايو ١٨٧٨م، وأثناء ما كان جيش الاحتلال الروسي يجثم على أراضي الدولة، وانشغال هذه به، قام شاب يدعى علي سعاوي مع أنصاره من الشباب الثائر بمحاولة لخلع عبد الحميد وإحلال مراداً ـ وكان مريضاً مرضاً عقلياً ـ محله إلّا أن هذه المحاولة باءت بالفشل.

أما عن الديون العثمانية وخطورتها، فقد وصلت ديون الدولة العثمانية

المتبقية من عهدي عبد المجيد والد عبد الحميد وعبد العزيز عمّه إلى ٢٥٢ مليون ليرة ذهبية (عام ١٨٨١م) وكان هذا الرقم وقتها رقماً هائلاً. وكانت كل من إنجلترا وفرنسا في مقدمة الدائنين. وقد نجح السلطان عبد الحميد في حل مسألة الديون هذه بتقليلها إلى النصف تقريباً. لذلك كان الموظفون العثمانيون وخاصةً الضباط يتضجرون عندما يقبضون رواتبهم متأخرةً، وهذا الأمر كان من أسباب ضيق الموظفين في عهد عبد الحميد.

وبعد وفاة السلطان عبد العزيز ـ عم عبد الحميد ـ بخمس سنوات. أثار عبد الحميد قضية هذه الوفاة ولذلك قدّم مدحت باشا وأعوانه إلى المحاكمة في محكمة يلديز في ٢٧ يونيو ١٨٨١م بتهمة قتل سلطان الدولة، وأصدرت المحكمة قرارها بالإدانة.

وفي ٢٨ يوليو ١٨٨١م نُقل مدحت باشا وصاحبه بالسفينة عز الدين إلى قلعة الطائف نفياً وحبساً في السجن العسكري هناك. واستمر هذا الحبس سنتين وتسعة أشهر ثم وجد مدحت باشا وزميله في السجن محمود جلال الدين باشا مقتولين خنقاً. ولم يُعرف من المحرّض على القتل، وهذه المسألة الهامة تناولها صاحب المذكرات تناولاً عميقاً. والمعروف أن إنكلترا حاولت إنقاذ مدحت باشا من هذا السجن بتهريبه منه حتى أنها خصصت سفينة عسكرية بريطانية في البحر الأحمر لهذا الغرض.

وفي ٢١ يوليو ١٩٠٥ دبّر الأرمن مؤامرة لقتل السلطان عبد الحميد عُرفت في التاريخ العثماني باسم حادث القنبلة. دبّرها ونفّذها الأرمن وأيدها المعارضون لعبد الحميد خاصة العاملون في النشر والإعلام.

ومع هذا فقد كان حكم عبد الحميد بالنسبة للدولة العثمانية عهد استقرار. وكان الشعب يشعر بالأمان، لكن نتيجة أن السلطان كان يربط مؤسسات الدولة بشخصه مباشرة ودائماً، ويحدّ من الصحافة والحريات السياسية فقد عاداه الضباط وطلبة العلوم العليا خاصة طلبة الطبيّة العسكرية.

بجيش مكوّن من ٢٣,٠٠٠ جندي فرنسي استقدموا من الجزائر مع أسطول بحري و ٨,٠٠٠ جنديّ فرضت فرنسا حمايتها على تونس ووقعت معاهدة باردو (قصر سعيد) في ١٢ مايو ١٨٨١م بذلك.

احتج الباب العالي وأخذ الوزير محمود صادق باشا أمير تونس يطلب النجدة فذهب إليه أسطول عثماني مدرّع إلاّ أن هذا الأسطول اضطر إلى الانسحاب إلى مياه كريت لعدم التوازن في القوى بين الأسطولين العثماني والفرنسي.

ولم تكن الدولة العثمانية في الواقع قادرة على أن تدافع عن تونس، وكل ما استطاعت عمله أنها لم تعترف رسمياً بالاحتلال الفرنسي. وظلّ عبد الحميد يعتبر تونس قطعة من الدولة العثمانية في السالنامة الرسمية.

وكان احتلال بريطانيا لمصر في ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م وهو الحدث الكبير الثاني في السياسة العثمانية الخارجية فيما يختصّ بالأمور العربيّة.

إن العلاقات العثمانية المصرية كانت قد اتخذت طوراً متشدّداً تجاه إسراف الخديوي إسماعيل بعد أن استطاع الحصول من عبد العزيز على امتياز بالاقتراض الخارجي. ووصل الأمر بالخديوي إلى أنه اقترض من إنجلترا وفرنسا مبلغ مائة مليون جنيه ذهباً في عشر سنوات. ولتقريب هذه المسألة نقول أن ديون الدولة العثمانية كلها ـ بعد جهود عبد الحميد في تخفيضها إلى النصف تقريباً ـ تعادل جملة اقتراضات الخديوي إسماعيل بمفرده وهو خديوي على إيالة مصر العثمانية. وهذا مما أعطى انطباعاً لدى السلطان عبد الحميد بعظم إسراف الخديوي، وهذا الإسراف دفع إسماعيل في نوفمبر ١٨٧٥م إلى طرح أسهمه الشخصية في قناة السويس إلى البيع. وحاولت فرنسا أن تشتريها، إلاّ أن سرعة حركة دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا في شراء هذه الأسهم عطّلت حركة فرنسا في العمل، وهذا أدّى إلى توقع وقوع مصر فريسة للاحتلال البريطاني. ولم تكن

فرنسا من القوة بحيث تستطيع وقتها عمل شيء لتعطيل تحرّك الإنجليز في مصر. ومع ذلك لم يجد بيع إسماعيل لأسهمه في قناة السويس نفعاً.

كان جيش مصر قد بلغ أيام إسماعيل إلى ٣٠,٠٠٠ عسكري ما بين ضابط وجندي ثم كان تدخل الوزراء الأوروبيين في الوزارة المصرية قد أدّى إلى تخفيض هذه القوة إلى ١١,٠٠٠ وتسريح ٢٥٠٠ ضابط، وكان هذا العدد يقرب من نصف عدد ضباط الجيش مما أدّى إلى بداية تذمّر في القوات المسلّحة المصرية. وكان عدد الضباط المصريين قليل بالنسبة إلى الضباط الآخرين من رعايا الدولة العثمانية: الألبان والأباظة والشركس وغيرهم، إلاّ أن أغلب الضباط المحالين إلى التقاعد كانوا من المصريين واستاء هؤلاء وبدأ في مصر ـ لأول مرة ـ الشعور بالقومية وفي هذا ظهر الأميرآلاي أحمد عرابي بك.

نتيجة لهذا الجو الجديد قام السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار إرادة سَنِيَّة في ٢٥ يوليو ١٨٧٩م بعزل الخديو إسماعيل باشا وتعيّين ابنه الأكبر وولي العهد محمد توفيق باشا مكانه. وطلب إسماعيل من السلطان عبد الحميد الإذن بالإقامة في إستانبول والإفادة من أملاكه هناك فأذن له وأقام إسماعيل في قصره في حي بايزيد في إستانبول، وكذلك في قصره الصيفي على البسفور في حي أميركان. ومات إسماعيل في إستانبول في ٢ مارس ١٨٩٥م عن ٦٥ عاماً. والمعروف أن إسماعيل درس في الأكاديمية الحربية في باريس.

وفي علاقة عبد الحميد بإسماعيل أيضاً، مسألة إهداء السلطان عبد العزيز عمّ عبد الحميد جزيرة ياسي آدا ـ وهي جزيرة صغيرة، جميلة، بالقرب من إستانبول ـ إلى إسماعيل ـ وعندما تولى عبد الحميد أعاد هذه الجزيرة إلى أملاك الدولة.

نعود إلى حركة أحمد عرابي بك، أيده عبد الحميد ومنحه رتبة مير لواء مع الباشوية، كما منحه الوسام الحميدي من الطبقة الأولى. والمعروف أن الرتب العسكرية في مصر فيما فوق أمير الآلاي لا تمنح إلاّ من السلطان نفسه. وبذلك أصبح عرابي، أمير اللواء أحمد عرابي باشا.

قام عرابي باشا بإنهاء عمل الموظفين الأوروبيين فاحتجت عليه كل من إنجلترا وفرنسا وقامتا بمراجعة الباب العالي في شأن إرسال قوة عسكرية إلى مصر. ولم يقع عبد الحميد في هذا الفخ، ورفض إرسال قوة عسكرية، لأن قمع الحركة الوطنية المصرية بجنود أتراك لصالح الدول الأوروبية وهي دول إستعمارية، كان من شأنه الإساءة إلى مقام الخلافة في كل أرجاء العالم الإسلامي ويتنافى مع مبدأ الجامعة الإسلامية التي كان عبد الحميد قد اتخذها سياسة له.

في هذه الأثناء تولّى عرابي باشا رياسة الوزراء وفي ١١ يونيو ١٨٨٢م حدثت قلاقل الإسكندرية ومات عديد من الأوروبيين هناك كما جرح أربعة قناصل. لذلك قام الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطاني في البحر المتوسط ـ وكانت إنجلترا قد أعلنت أنها ستحمي الأجانب في مصر ـ قام في الساعة ٦,٥ في ١١ يوليو بضرب الإسكندرية بالمدفعية البحرية ضرباً متواصلاً. وفي اليوم التالي ١٢ يوليو احتل الإنجليز المدينة وفي ١٢ سبتمبر قام السير جرانت ويلزلي بالتغلب على قوات عرابي باشا في معركة التلّ الكبير في عشرين دقيقة. ودخل الجيش الإنجليزي القاهرة في ١٥ سبتمبر ونفت بريطانيا أحمد عرابي إلى سيلان.

وكانت بريطانيا تردد دائماً أنها تحتل مصر والسودان احتلالاً مؤقتاً، ولم يكن للاحتلال صفة رسمية كما لم يكن له وضع قانوني وإن كان أمراً واقعاً إلّا أن مصر رسمياً كانت تابعة للدولة العثمانية واستمرت مصر حتى عام ١٩١٤م تاريخ إعلان الحماية البريطانية عليها. ترسل متعلقات تبعيتها للعثمانيين إلى إستانبول سنوياً وكذلك كان تعيين الرتب الكبيرة فوق الأميرآلاي لا يتم إلّا عن طريق السلطان.

والمسألة الثالثة الهامة في العلاقات العثمانية المصرية في عهد عبد الحميد تتجلى في مسألة العقبة عام ١٩٠٦م فبعد أن ضيق العثمانيون على الإنجليز حلقة العمل الاستراتيجي للاحتفاظ بطريقهم إلى الهند سليماً وخوف بريطانيا من

خط سكة حديد الحجاز، خاصة بعد دخول ألمانيا منافساً للقوى الأوروبية في خط حديد بغداد، في تلك الفترة كان السلطان عبد الحميد مشغولاً بإنشاء خط سكة حديد مكة الطويل برأس مال إسلامي وأيد عاملة مسلمة. وكان خط سكة حديدالحجاز قد وصل إلى المدينة المنورة وقد ربط هذا الخط بين إستانبول ودمشق والمدينة.

في نفس هذه الفترة أنشأ السلطان مدينة بير السبعة بين غزّة وبحيرة لوط في جنوب فلسطين وفي عام ١٩٠١م حلّت قوّة تركيّة هنا وتكون حولها قصبة. والواقع أنها كانت قاعدة استراتيجية عثمانية تشرف على شبه جزيرة سيناء والجزيرة العربية وطريق الحجاز ومصر وكان من شأنها أيضاً مراقبة الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر. وتشكل هذه القاعدة العثمانية الاستراتيجية التي أقيمت على أطلال مهجورة متراكمة حول بئر، واحدة من بدايات مسألة العقبة.

في عام ١٩٠٥م قام الإنجليز بتحريض بعض القبائل اليمنية بالتمرد على العثمانيين لكن هؤلاء استطاعوا القضاء على هذا التمرد. أدركت بريطانيا أنها عاجزة عن الاضرار بالعثمانيين في اليمن وهي ولاية ذات أهمّية استراتيجية على البحر الأحمر وخليج عدن. لذلك قام الإنجليز باختلاق حادثة على حدود مصر وكانت هذه الحادثة هي حادثة قرية تسمّى العقبة.

طلبت إنجلترا إرسال جنود إلى هذه القرية التي يسمح الباب العالي بتواجد جنود مصريين فيها خاصة بمناسبة أعمال الحجّ.

بذلك كانت إنجلترا تريد السيطرة على المدخل الشمالي الشرقي للبحر الأحمر وتدخل منه إلى داخل الجزيرة العربية.

أرسل السلطان عبد الحميد أحد ياورانه المخلصين وهو الأميرآلاي رشدي بك ـ باشا فيما بعد ـ إلى المنطقة، فسار مع طابورين من الجنود ومدفع واحد واتجه إلى العقبة وأخلاها من الجنود المصريين الذين كانوا فيها بعد أن أبلغهم أن هذا قرار من السلطان. وبموجب أمر من عبد الحميد احتل

رشدي بك قصبة طابا بعد أن أخلاها من الجنود المصريين ليفاجىء الانجليز بالأمر الواقع.

أدركت إنجلترا أنها على أبواب صدام قريب مع الدولة العثمانية بشأن الحدود، خاصة بعد قيام الشعب المصري في القاهرة وسائر المدن المصرية بمظاهرات تهتف بحياة عبد الحميد وبسقوط الاحتلال الانجليزي وقدمت إنجلترا للباب العالي إنذاراً باحتلال العقبة وطابا في مدة عشرة أيام إذا لم يرسل الباب العالي إلى رشدي بك تلغرافاً بإخلاء القلعتين وقالت إنجلترا في إنذارها أن من حقها الدخول في حرب مع الدولة إذا لم يحدث صدى إيجابياً للانذار ولكي تضخم انجلترا المسألة، أمرت أسطولها في المحيط الأطلسي بدخول البحر المتوسط عن طريق جبل طارق ليكون بجوار الأسطول البريطاني في المتوسط.

أبلغ عبد الحميد إنجلترا برفضه لهذا الضغط البريطاني وقال إن مصر جزء من الدولة العثمانية رسمياً وليس لانجلترا حق فيها تريده وقال إن الحدود المصرية العثمانية لا يحلها إلّا ضباط من مصر ومن الدولة العثمانية.

وفي أول أكتوبر ١٩٠٦م قام الضبّاط العثمانيون والضبّاط المصريون بتنظيم الحدود واستقر الأمر على أن طابا مصرية.

عبد الحميد واليهود

عندما مات البارون هيرش كان يأمل في إقامة وطن ليهود روسيا في الأرجنتين، وعندما تدخل تيودور هرتزل في المسألة اليهودية أصبح الأمر لا يتعلق بيهود روسيا فقط بل بكل اليهود، ولم يصبح الوطن الذي يطلبونه الأرجنتين، بل أصبح في فلسطين. وكانت فلسطين جزءاً من الدولة العثمانية.

يقول تحسين باشا رئيس أمناء القصر السلطاني في عهد عبد الحميد،في مذكراته ما يلي:

«جاءت شخصية كبيرة صهيونية يهودية نمساوية، إلى إستانبول. وطلبت

إقامة وطن يهودي في سنجق القدس، وقالت هذه الشخصية أنها تتحدّث في هذا باسم الصهاينة، وأن روتشيلد المصرفي المشهور، وراء هذا الأمر».

وكان أساس مطلب هذا اليهودي: إقامة قرى يهودية في فلسطين في مكان تحدده الحكومة العثمانية ولا مانع من وجود منازل إسلامية في هذه القرى إذا رغبت الحكومة في هذا. وسيتبع اليهود القادمون من الخارج قوانين ونظم الدولة العلية [العثمانية]، وسيتم مقابل هذا تقديم الخدمات والتسهيلات اللازمة في مسألة الديون العمومية، وسيتم تقديم الضمان الكافي بهذا الكتاب.

ولأن هذا اليهودي كان له وزنه واعتباره، ولأن هذه المسألة تتعلق بالدّيون العمومية بحسابات حادّة عرضنا الموضوع على الذات الشاهانية[السلطان] وأذن السلطان بمقابلته..

« رأى السلطان مجموعة موانع في هذا: ففلسطين بمقاماتها المباركة تشكل أرضاً للمطامع والطموحات السياسية.. وعاد الصهيوني النمسوي هذا إلى بلاده صفر الدين».

بأمر من السلطان عبد الحميد ـ بعد هذه المقابلة ـ تم إرساله إلى سفراء الدول العثمانية في كل من واشنطن وبرلين وفيينا ولندن وباريس، قام هؤلاء السفراء بتعقب الحركة الصهيونية وإرسال تقاريرهم أولاً بأول إلى السلطان، كما قاموا بناءً على هذا الأمر بمقابلة زعماء اليهود في البلدان التي يعملون بها أيضاً بموجب نفس الأمر بإرسال مخبرين عثمانيين متنكرين إلى الاجتماعات الصهيونية في أوروبا، وإرسال قصاصات الصحف والمجلات الأوروبية المتعلقة بنشاط اليهود في أوروبا.

وبذلك خطط عبد الحميد بنفسه الخطوط الأساسية للسياسة العثمانية تجاه اليهود وفهم تفكيرهم تجاه القضية الفلسطينية.

وفي ٢٨ يونيو ١٨٩٠م وفي ٧ يوليو من نفس العام أصدر السلطان

عبد الحميد إرادتين سلطانيتين بـ : «عدم قبول الصهاينة في الممالك الشاهانية [الأراضي العثمانية] وإعادتهم إلى الأماكن التي جاءوا منها».

وأبلغ عبد الحميد أوامره إلى نظارة الشؤون العقارية بعدم بيع أراضي للمهاجرين إلى فلسطين.

يقول محرم فوزي طوغاي في مقالة له في ٢ مايو عام ١٩٤٧م، نشرها في مجلة بيوك طوغو التركية بعنوان «فلسطين والمسألة اليهودية» ما يلي:

«إن تصرّف عبد الحميد تجاه الحركة اليهودية بهذا الشكل المعادي كان معناه أنه يتسبّب في هدم تاجه وهدم عرشه، ليس هذا فقط، بل وبالتالي في هدم الدولة العثمانية كلها».

ويقول العقيد التركي حسام الدين أرتورك في كتابه «خفايا عهدين»، نشر في إستانبول عام ١٩٥٧م ما يلي:

«قدّم كل من تيودور هرتزل والحاخام الأكبر طلباً شخصياً إلى السلطان عبد الحميد يطلبان فيه إقامة وطن إسرائيلي مستقل في [سنجق] القدس، فما كان من عبد الحميد إلّا أن طردهما».

ويعقب نظام الدين تبه دنلي أوغلي بالتعليق على هذه المسألة قائلاً:

«إن تصرّف السلطان عبد الحميد تجاه هرتزل بهذا الشكل كان ــ كما فطن السلطان لذلك ــ من شأنه أن يعمل هرتزل واليهود على تدعيم أعداء السلطان».

وأعداء السلطان يتمثلون في الآتي:

١ ــ تأييد الأرمن وتدعيم حركتهم ضد السلطان عبد الحميد.

٢ ــ تأييد الحركة القومية في البلقان لانفصال هذه المنطقة عن الدولة.

٣ ــ تأييد الحركة القومية الكردية التي ظهرت عام ١٨٨٠م وبدأت بمحاولات اتحاد ٣٠ عشيرة كردية متنافرة.

٤ ــ تأييد كل حركة استقلال عن الدولة العثمانية.

٥ ــ تدعيم قوى حركة الاتحاد والترقّي ودفعها إلى قلب الأوضاع السياسية في الدولة.

السلطان عبد الحميد والاتحاد والترقّي

الاتحاد والترقّي هو أول حزب سياسي في الدولة العثمانية. كان ظهوره عام ١٨٩٠م، وكان سرياً مكوناً من خلايا طلبة الحربية والطبية العسكرية. وكان تأسيسه يهدف إلى معارضة حكم عبد الحميد والتخلّص منه. في عام ١٨٩٧م تمّ اكتشاف هذا الجهاز فنفي عديد من أعضائه وفرّ بعضهم إلى باريس. وأرسل السلطان عبد الحميد مدير الأمن العام الفريق أول أحمد جلال الدين باشا إلى باريس لاستمالة أعضاء المعارضة من الاتحاديين، فنجح في استمالة أكثرهم ومنحهم عبد الحميد مناصب كبيرة في الدولة. إلاّ أنّ المعارضين وعلى رأسهم أحمد رضا بك ظلّوا على معارضتهم.

وفي المدة من ٤ ــ ٩ فبراير ١٩٠٢م عقد في باريس مؤتمر للأحرار العثمانيين، حضرته كل العناصر المعارضة لحكم عبد الحميد وعلى رأسهم الاتحاد والترقّي. وكان من ضمن قرارات هذا المؤتمر تقسيم الدولة العثمانية إلى حكومات مستقلّة استقلالاً ذاتياً على أساس عرقي قومي. وظهر المعارضون لهذا ومنهم أحمد رضا بك نفسه، إلاّ أنّ الأغلبية كانت لها قوتها في تأييد هذا القرار.

طالب المؤتمرون من الدول الأوروبية التدخّل لإنهاء حكم السلطان عبد الحميد وإقصائه عن العرش. وفي داخل البلاد العثمانية وبالذات في سلانيك ومناستر، افتتح الاتحاد والترقّي فروعاً له التحق بها الضباط الشبّان من رتبتي ملازم ويوزباشي، ثم بدأ دخول الضباط من الرتب الكبيرة، حتى أنه يتردد أن كل ضبّاط الجيش العثماني الثالث [في البلقان] كانوا عام ١٩٠٨م منضمين إلى الاتحاد والترقّي. وكان منهم أركان حرب قول أغاسي مصطفى كمال أفندي (أتاتورك فيما بعد)، إلاّ أنه انسحب فيما بعد من الاتحاد والترقّي.

وفي مذكرة لجمعية الاتحاد والترقّي إلى قناصل الدول الأجنبية في الدولة العثمانية، طالبت الجمعية تدخّل دول هؤلاء لإنهاء حكم عبد الحميد، وتحالفت الجمعية مع الثوّار البلقانيين ضد السلطان.

اعتقد الاتحاديون أنهم بإزالة عبد الحميد يستطيعون تقريب العناصر المختلفة في الدولة وأن دول أوروبا ستكف عن مضايقاتها للدولة العثمانية، وتصوّر الاتحاديون أن هذه الدول الأوروبية ستتعهد بحماية الدولة العثمانية إذا انتهى حكم عبد الحميد الفردي غير المشروط [غير الديمقراطي]، والذي حدث أنه عقب المشروطية فقدت الدولة العثمانية البوسنة والهرسك مما أصاب الاتحاديين بالهلع.

في ٢٣ يوليو ١٩٠٨م اضطر عبد الحميد اضطراراً إلى إعلان المشروطية [الثانية] وتولّت جمعية الاتحاد والترقّي الحكم وأعلنت تمثلها لمبادىء الثورة الفرنسية «الحرية ــ العدالة ــ المساواة ــ الأخوّة».

أما في ١٥ اكتوبر من نفس العام (١٩٠٨م) فقد استقلت عن الدولة العثمانية كل من بلغاريا وكريت التي أعلنت انضمامها لليونان في ٦ اكتوبر، واستقلّت ــ كما ذكرنا ــ البوسنة والهرسك، وفي ١٣ أبريل ١٩٠٩م دبّر الجيش العثماني حادثة عرفت باسم حادث ٣١ مارت، ثم نسبوها إلى عبد الحميد وقالوا إنه أراد ثورة العناصر الرجعية ضد جمعية الاتحاد والترقّي. واتخذ الجيش هذا ذريعة للتحرك لعزل السلطان عبد الحميد الثاني، وندبوا لإبلاغه بقرار العزل وفداً مكوّناً من أربعة أشخاص لم يكن منهم تركي ولا عربي واحد وإنما:

كان على رأس الوفد يهودي والثلاثة الآخرون: أرمني وألباني وجرجي. واليهودي هو إيمانويل قراصو الذي لعب فيما بعد دوره المشؤوم في الاحتلال الإيطالي لليبيا.

وتنازل السلطان عبد الحميد عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد في ٢٧ أبريل ١٩٠٩م وكان على السلطان عبد الحميد أن يركب هو وأسرته القطار

إلى منفاه في سلانيك [وهي مدينة يغلب عليها الطابع اليهودي]، وكان مقر منفى السلطان عبد الحميد في هذه المدينة ذات الطابع اليهودي في قصر يمتلكه يهودي يسمى ألاتيني، إمعاناً في إذلال عبد الحميد.

وفي ١٠ فبراير ١٩١٨م مات السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد، عن ست وسبعين عاماً واشترك في تشييع جنازته «كل شعب إستانبول تقريباً».

(ب)

غَـــزْوٌ وَجِهَــاد

(١) دفاع عن السلطان محمد الفاتح .

(٢) الحملات الحربية في عهد سليمان القانوني .

(١)

دفاع عن السلطان محمد الفاتح

«لم يفتح القسطنطينية فقط
لكنه غيّر تاريخ أوروبا أيضاً! ! . . »

● في ٣٠ مارس عام ١٤٣٢م، كان ميلاد السلطان محمد الثاني الذي عرفه التاريخ باسم محمد الفاتح كان على العصور الوسطى أن تنتظر ٢١ عاماً بعد هذا التاريخ حتى تنتهي، ذلك أن ثمة اتفاق بين المؤرخين على أن العصر الحديث يبدأ بفتح القسطنطينية في ٢٩ مايو عام ١٤٥٣م.

كان العالم في تلك الفترة مشغولاً بفتوحات العثمانيين في أوروبا وبالصراع العثماني ـ الأوروبي حين كانت الفكرة التي تحكم العثمانيين هي جمع العالم الإسلامي في دولة واحدة تحت رايتهم والانطلاق نحو الغرب للجهاد. ولم يكن العالم حينذاك كاليوم في عدده فلم يكن عدد سكان العالم يتجاوز ٤٠٠ مليون نسمة موزعين كالتالي: نحو ٢٧٥ في آسيا و٧٠ مليوناً في أوروبا و٤٠ مليوناً في أفريقيا و١٥ مليوناً في أميركا. وقد حاول بايزيد الصاعقة تحقيق الوحدة الإسلامية بحرب المماليك في الشام ومصر وضم ممتلكاتهم إلى الدولة العثمانية لولا ظهور تيمورلنك. وانتصاره على بايزيد عام ١٤٠٢م، والفاتح أيضاً كان يطمح إلى ذلك، إذ أنه كان في الطريق بالفعل إلى قتال الدولة المملوكية وضمها إلى الدولة العثمانية لولا وفاته ●

إعداد الفاتح

خضع السلطان محمد ـ شأنه في ذلك كل أمير عثماني ـ لنظام تربوي صارم تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين. أخضعه شيوخه إلى دراسة أكاديمية منظمة وهو ما يزال غضاً فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية ـ آنذاك ـ من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية. كان السلطان محمد يشترك في الحروب التي كان يشنها والده السلطان مراد الثاني ضد أوروبا أو التي كان يصد فيها اعتداءاتهم.

وكعادة آل عثمان في إسناد إدارة ولاية لكل أمير وهو صغير حتى يؤهل لقيادة الدولة بعد ذلك، قضى محمد فترة إمارته في مغنيسيا تحت إشراف مجموعة من علماء الدين، وكان محمد محظوظاً إذ كان المشرفون عليه من أساطين علماء العصر في مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني. (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل كان عالماً موسوعياً في شتى علوم المعرفة في عصره). وقد أثرت مجموعة العلماء هذه في تشكيل الأمير الصغير ونجح العلماء في تشكيل اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية. وكان الشيخ آق شمس الدين صارماً مع الأمير حتى أن السلطان محمد وهو سلطان قال لأحد وزرائه عن شيخه هذا: «إن احترامي لهذا الشيخ احترام يأخذ بمجامع نفسي وأنا ماثل في حضرته مضطرباً ويداي ترتعشان».

ثقافة الفاتح

درس السلطان محمد بجانب دراسته الأكاديمية النشطة المنظمة اللغات الإسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغني عنها مثقف عصري آنذاك وهي: العربية والفارسية والتركية. والسلطان محمد الفاتح شاعر له ديوان شعر بالتركية، وله بيت مشهور يقول فيه:

نيّتي هي الامتثال للأمر الإلهي «جاهدوا في سبيل الله».
وحماسي إنما هو حماس في سبيل دين الله.

وعرف السلطان محمد أيضاً اللغات: اللاتينية واليونانية والصربية، ولا تخفي أهمية هذه اللغات لأمير في طريقه لسلطنة الدولة العثمانية.

فترة إمارة محمد في مغنيسيا جعلته ـ بفضل توعية مجموعة أساتذته ـ أكثر الأمراء العثمانيين وعياً في دراسة علوم التاريخ والجغرافيا والعلوم العسكرية، خاصة وأن أساتذته وجهوا اهتمامه إلى دراسة الشخصيات الكبيرة التي أثرت في مجرى التاريخ. وأبانوا له عن جوانب العظمة في تلك الشخصيات كما وضحوا له نقاط الضعف فيها أملاً في أن يكون أميرهم ذات يوم أكثر الحكام عبقرية.

ولا شك أن الشيخ آق شمس الدين استطاع أن يلعب دوراً كبيراً في تكوين شخصية محمد وأن يبث فيه منذ صغره أمرين هما اللذان جعلا منه فاتحاً، وهما:

١ ـ مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢ ـ الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه هو الأمير المقصود بالحديث النبوي: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وعن تحقيق النقطة الأولى يكفي هنا أخذ قطاع تاريخي في حياة السلطان محمد ـ بعد أن أصبح سلطاناً للدولة ـ لنرى فيه حملاته العسكرية، وأكتفي هنا بتعدد حروبه البرية على الجبهة الأوروبية فقط.

عام ١٤٥٣م فتح القسطنطينية ـ عام ١٤٥٣م ـ ١٤٥٩م فتح بلاد الصرب ـ ١٤٦٠م فتح بلاد المورة ـ ١٤٦٢م ضم بلاد الأفلاق ـ ١٤٦٣ ـ ١٤٧٩م فتح بلاد البانيا ـ ١٤٦٣ ـ ١٤٦٥م فتح بلاد البوسنة والهرسك ـ ١٤٧٦م حرب المجر.

ومنذ حرب بلاد المجر وحتى وفاة الفاتح (عام ١٤٨١م) دخلت الدولة العثمانية في حروب بحرية كثيرة منها: ضم الجزر اليونانية عام ١٤٧٩م وضم أوترانتو عام ١٤٨٠م. ومعلوم أنه كان قد أعد بالفعل جيوشه وتحرك على رأسها لمحاربة المماليك إلا أن الموت عاجله.

مؤشرات فتح القسطنطينية

رأى محمد السلطان أن فتح القسطنطينية كما أنه يحقق أملاً عقائدياً عنده فإنه أيضاً يحقق للدولة العثمانية يُسر فتوحاتها في منطقة البلقان، وحتى تكون بلاده متصلة لا يتخللها عدو، وكانت القسطنطينية تمثل الأرض العدوة الواقفة في طريق الفتوحات في أوروبا، فبدأ في عاصمته أدرنة الاستعدادات لعملية فتح القسطنطينية ومن ذلك صب المدافع خاصة الضخم منها والاستعداد لنقل هذه المدافع إلى أسوار المدينة.

ثم رأى السلطان محمد أن جده بايزيد الصاعقة كان قد بنى للغرض نفسه ـ وهو محاولة فتح القسطنطينية ـ قلعة على الضفة الآسيوية من البوسفور سماها «أناضولو حصارى» أي قلعة الأناضول. كانت هذه القلعة تقوم على أضيق نقطة من مضيق البوسفور، فقرر محمد أن يبني في مواجهة هذه القلعة على الجانب الأوروبي من البوسفور قلعة سماها (روملي حصارى) أي قلعة منطقة الروم (يطلق الأتراك على الجانب الأوروبي من تركيا والمنطقة الملاصقة له والمعروفة الآن باسم البلقان اسم روم إيلي أي منطقة الروم)، وكان القصد من هذا هو التحكم في البوسفور تماماً، وكان السلطان محمد هو الذي وضع بنفسه تخطيط هذه القلعة ونفذها المعماري (مصلح الدين آغا) و٧٠٠٠ عامل أنهوا مهمتهم في أربعة أشهر كاملة.

تم البناء فخرج بعض الجنود العثمانيين للتفرج على القسطنطينية فما لبث أن وقع بينهم وبين البيزنطيين المجاورين لأسوار المدينة بعض حوادث شغب كان لها رد فعل عند السلطان محمد فأصدر أوامره بإبعاد البيزنطيين المجاورين للأسوار وكذلك إبعاد القرويين المجاورين للمدينة، فقام إمبراطور بيزنطة قسطنطين دركازيز بإخلاء القرى المجاورة وسحب سكانها إلى داخل المدينة ثم أمر الامبراطور بإغلاق أبواب القسطنطينية وإحكام رتاجها.

وبينما الاستعدادات العثمانية تجري على قدم وساق في أدرنة لفتح القسطنطينية كان الوضع في المدينة غاية في الاضطراب، فالإمبراطور قسطنطين

يطلب معونة عاجلة من البابا نيقولا الخامس، فاستجاب البابا وأرسل الكاردينال ايزودور إلى القسطنطينية، فتوجه هذا الكاردينال ـ وهو كاثوليكي ـ إلى كنيسة آياصوفيا وأقام فيها المراسم الكنسية على الأصول الكاثوليكية مخالفاً بذلك بل ومتحدياً لمشاعر شعب القسطنطينية الأرثوذكسي. وقف الشعب يتفرج على الكاردينال المنقذ باشمئزاز بالغ، كان إمبراطور القسطنطينية يميل إلى فكرة اتحاد الكنيستين الأرثوذكسية، والكاثوليكية أما رئيس الحكومة لوكاس نوتاراس مع جناديوس (الذي صار بطريكاً بعد الفتح) فقد عارضا بشدة هذا الاتحاد خوفاً على الكاثوليكية من الفناء، وقال نوتاراس قولته الشهيرة: «إني أفضل رؤية العمامة التركية في القسطنطينية على رؤية القبعة اللاتينية» ولم يكن البيزنطيون قد نسوا بعد الأعمال الوحشية التي قام بها اللاتين عندما احتلوا القسطنطينية عام ١٢٠٤م، ومع ذلك فإن الكنيسة اللاتينية لم تتوان عن إرسال موجات المتطوعين إلى القسطنطينية بناء على طلب إمبراطورها العون، لكن مجيء ايزودور لم يحقق أدنى نتيجة في مسألة اتحاد الكنيستين.

الحصار والفتح

وفي أبريل ١٤٥٣م حاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً واشترك في الحصار من الجنود البحرية ٢٠,٠٠٠ جندي على ٤٠٠ سفينة، أما القوات البرية فكانت ٨٠,٠٠٠ جندي، والمدفعية ٢٠٠ مدفع.

وقفت القوات البحرية العثمانية بقيادة بلطة أوغلو سليمان بك، على مدخل الخليج الذهبي وكان عليه تدمير الأسطول البيزنطي المكلف بحماية مدخل الخليج ولأن البيزنطيين كانوا قد أغلقوا ـ قبل الحصار ـ الخليج بسلسلة حديدية طويلة يصعب من جرائها دخول أي سفينة إلى الخليج، فقد كان هذا أكبر معضلة أمام العثمانيين لأن سفنهم كان عليها أن تحمل الجنود وتدخل الخليج لإنزالهم لكي يضربوا القسطنطينية.

ثم جاءت ٣ سفن جنوية وسفينة بيزنطية بقيادة القائد الشهير جوستنياني

أرسلها البابا للدفاع عن القسطنطينية ولنقل الإمدادات إليها، جاءت هذه السفن ولم تستطع البحرية العثمانية منعها. فبعد معركة عنيفة مع البحرية العثمانية تغلب جوستنياني ومضى بسفنه إلى الخليج ففتح لها أهل القسطنطينية السلسلة الحديدية وأدخلوها، وكانت هذه الحادثة دافعاً لكي يفكر السلطان محمد في خطة عسكرية شهد لها القواد العسكريون بالبراعة.

كانت هذه الخطة تقضي بنقل ٦٧ سفينة من السفن الخفيفة عبر البر من منطقة غلطة إلى داخل الخليج بتفادي السلسلة، وتمت هذه العملية بوضع أخشاب مطلية بالزيوت على طول المنطقة المذكورة، ثم دفعت السفن لتنزلق على هذه الأخشاب في جنح الظلام، بعد أن استطاعت المدفعية العثمانية بإطلاقها مدافع الهاون أن تشد انتباه البيزنطيين إليها وبالتالي لم يلتفت أحد لعملية نقل السفن إلى الخليج.

نقلت السفن وأنزلت إلى الخليج ووضعت الواحدة تلو الأخرى على شكل جسر على عرض الخليج، حتى استطاع الجنود الانتقال عليها وصولاً إلى بر القسطنطينية. وما أن جاء الصباح إلا والدهشة قد تملكت أهل القسطنطينية، يصف المؤرخ دوكاس وهو بيزنطي عاصر الحادثة، دهشته من هذه العملية قائلاً: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل ولم ير أحد مثلها من قبل».

وبعد أن فشلت البحرية العثمانية في إحباط محاولة جوستنياني دخول الخليج، لم يملك السلطان محمد إلا الأمر بالهجوم العام الذي اشتركت فيه كل القوات العثمانية مرة واحدة، وقبل هذا مباشرة أرسل السلطان محمد للإمبراطور ـ للمرة الثانية ـ يطلب منه تسليم المدينة سلماً حقناً للدماء وللإمبراطور أن ينسحب إلى أي مكان يريده بكل أمواله وخزائنه، وتعهد السلطان محمد بتأمين أهل القسطنطينية ـ في هذه الحالة ـ على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم، لكن الإمبراطور ـ بتحريض من الجنويين ـ رفض هذا العرض.

وفي ٢٦ مايو أراد ملك المجر أن يضغط على السلطان محمد وهو في هذا

الوقت الحرج، فأرسل يقول له إنه في حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع إمبراطور القسطنطينية فإنه (أي ملك المجر) سيقود حملة أوروبية لسحق العثمانيين، ولم تغير هذه الرسالة شيئاً وإن كان محمد قد صفى بعد ذلك حسابه مع ملك المجر.

مضى نهار ٢٨ مايو هادئاً، وعند الفجر وبعد الصلاة مباشرة، اتجه السلطان محمد إلى مكان الهجوم ومع دوي المدافع الضخمة الذي بدأ مع الشفق صدر الأمر السلطاني بإخراج العلم العثماني من محفظته، (وهذا يعني عند الأتراك الأمر ببداية الهجوم العام).

استطاعت المدافع أثناء ذلك إحداث فتحة في الأسوار ثم اجتياز الجنود العثمانيين الخنادق المحفورة حول القسطنطينية ومن ثم اعتلوا سلالم الأسوار، وبدأ الجنود يتدفقون على ثلاث موجات، اشتركت الانكشارية في الثالثة منها، فاضطر قسطنطين أن يدفع بقواته الاحتياطية التي كانت مرابطة بجوار كنيسة الحواريين (سانت ابو ترس) (مكان جامع الفاتح بعد ذلك) لتدخل المعركة، وما لبث أن أطلق جندي عثماني سهمه فأصاب القائد جوستنياني إصابةً بالغةً فانسحب جوستنياني من ميدان المعركة رغم توسلات الإمبراطور له، لأن جوستنياني كان له دور كبير في الدفاع عن المدينة.

وكان أول شهداء العثمانيين هو الأمير ولي الدين سليمان الذي أقام العلم العثماني على أسوار المدينة البيزنطية العريقة، وعند استشهاده أسرع ١٨ جندياً عثمانياً إليه لحماية العلم من السقوط واستطاعوا حمايته حتى واصل بقية الجنود تدافعهم على الأسوار، وثبت العلم تماماً على الأسوار بعد أن استشهد أيضاً هؤلاء الثمانية عشر جندياً، أثناء ذلك كان العثمانيون يواصلون تدفقهم إلى المدينة، عن طريق الفتحات التي أحدثتها المدفعية في الأسوار، ثم عن طريق تسلق السلالم التي أقاموها على أسوار المدينة، ثم استطاع جنود آخرون من فرق الهجوم العثمانية فتح بعض أبواب القسطنطينية، بينما نجح آخرون في التحكم في سلسلة مدخل الخليج وفتحوها، وبالتالي تدفق الأسطول العثماني

إلى الخليج وبعد ذلك إلى المدينة نفسها، وساد الذعر البيزنطيين وكان قد قتل منهم من قتل فهرب من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الفاتح يعطي الأمان

لكن الشعب خاف وأسرع يتجه نحو كنيسة آياصوفيا. وعندما دخل الفاتح المدينة أمر بإحراق جثث القتلى تفادياً للأمراض، وسار على ظهر جواده إلى الكنيسة حيث تجمع الشعب البيزنطي ورهبانه، وما إن علموا بوصول السلطان الفاتح حتى خروا سجداً راكعين بين أنين وبكاء وعويل، وصل الفاتح، نزل من على ظهر حصانه، صلى صلاة الشكر لله على توفيقه له بالفتح، ثم سار يقصد شعب بيزنطة ورهبانه، ولما وجدهم على هذه الحالة من السجود انزعج وتوجه إلى رهبانهم قائلاً: «قفوا، استقيموا فأنا السلطان محمد، أقول لكم ولجميع إخوانكم ولكل الموجودين هنا أنكم منذ اليوم في أمان في حياتكم وحرياتكم»، وهذا ما سجله مؤرخ بولوني كان معاصراً للخطة.

كان هذا التصرف من الفاتح له أثر كبير في عودة المهاجرين النصارى الذين كانوا قد فروا من المدينة، وأمر الفاتح قواده وجنوده بعدم التعرض للشعب بأذى ثم طلب من الناس العودة إلى ديارهم بسلام، وحوّل آياصوفيا إلى جامع على أن تصلى فيه أوّل جمعة بعد الفتح (كان الفتح يوم ثلاثاء) وكانت آياصوفيا أكبر كنيسة في العالم وأقدم مبنى في أوروبا كلها.

كان سلوك الفاتح عندما دخل القسطنطينية ظافراً، سلوكاً مختلفاً تماماً، كان الفاتح يستطيع حسب شريعة الحرب في زمانه أن يفعل أبسط ما تقول به شريعة الحرب في العصور الوسطى وهو نفي شعب المدينة المفتوحة إلى مكان آخر أو بيعه في أسواق النخاسة، لكن الفاتح قام بما عجز عن فهمه الفكر الغربي المعاصر له من تسامح ورحمة، فقد قام بالآتي:

١ ـ إطلاق سراح الأسرى فوراً نظير مقابل مادي قليل يسدد على أقساط طويلة المدى.

٢ ــ إسكان الأسرى الذين كانوا من نصيبه في المغانم في المنازل الواقعة على ساحل الخليـج .

٣ ــ عندما أبيحت القسطنطينية للجنود ثـلاثة أيـام عقب الفتـح ، كان هذا الإذن مقتصراً على الأشياء غـير المعنويـة ، فلم تغتصب امرأة ولم يمس شيـخ عجوز ولا طفل ولا راهب بأذى ، ولم تهدم كنيسة ولا صومعـة ولا دير ولا بيعـة ، مـع أن المدينة أخذت بالحرب ورفضت التسليم .

٤ ــ كان من حق الفاتـح قانوناً ــ ما دامت المـدينة قـد أخذت عنـوة ــ أن يكون هو نيابة عن الجيش الفـاتـح مالكـاً لكل مـا في المدينـة وكان من حقـه أيضاً تحويل نصف الكنائس والبيـع وعلى مدى زمني طويل إلى جوامـع ومساجد وترك النصف الآخر لشعب المدينة على ما هو عليه ، وفي وقفيـات السـلطان محمد الفاتـح بنود كثيرة على بقاء أديرة جوكاليجا وآيا وليبس وكيرا ماتوا والكس في يد البيزنطيين .

٥ ــ اعترف لليهود بملكيتهم لبيعهم كاملة وأنعم بالعطايا عـلى الحاخـام موسى كابسالي .

٦ ــ عـين (في ١٤٦١م) للجماعـات الأرمنيـة بـطريقـاً يـدعى يـواكيم ليشرف على مصالـح الأرمن ويوحد صفوفهم .

٧ ــ بدأت أعمال تعمير المدينة ابتداء من ٢ يونية ١٤٥٣م (كان الفتـح يوم ٢٩ مايو من العام نفسه) وأمر بنقل جماعات كثيرة من مختلف أنحـاء الدولـة إلى القسطنطينية للإسهام في إعادة إنعاشها .

٨ ــ أعاد الفاتـح للأرثوذكس كرامتهم التي أهدرها اللاتـين الكاثـوليك بـأن أعـطاهم حق انتخـاب رئيس لهم يمثلهم ويشـرف عــلى شؤونهم وأصبـح سكولا ريوس (جناديوس) أول بطريق لهم بعد الفتـح العثمـاني للقسطـنطينية ، وبذلك أنقذ الفاتـح إيمـان الأمة التي فتـح ديـارها ، وأحيـا الأرثوذكسيـة بعد أن أخـذت تخفت (لاحظ أن هـذا التصـرف من الفـاتـح تسبب في تكتــل أوروبـا الكاثوليكية ضده) .

٩ ـ جعل الفاتح مسائل الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والميراث وأمور الوفاة الخاصة بأهل المدينة المفتوحة من حق الجماعات الدينية المختصة، وكان هذا امتيازاً منعدم النظير في أوروبا ذلك الوقت.

الفاتح وحكام عصره

لقد تصرف الفاتح تصرفاً حضارياً في الوقت الذي كان الحكام من الشرق والمغرب يتلذذون بسفك الدماء وبقتل الناس بالآلاف، ويتلذذون وهم على موائد الطعام بمنظر الأسرى وقد اخترقت بطونهم أسنة رماح الجنود وبرفع الأسرى على الخوازيق وبخلط دمائهم بأنواع الشراب، (قارن بين أعمال جنكيز خان وتيمور لنك في الشرق، وفلال وهونيادي في الغرب، وبين موقف الفاتح من المسيحيين واليهود بعد فتحه القسطنطينية ــ كمثال ــ وكذلك قارن بين موقف دولة بيزنطة عندما هدمت حي المسلمين في القسطنطينية وأبادت سكانه بعد أن علم الامبراطور بانتصار تيمور لنك على السلطان العثماني بايزيد الصاعقة في واقعة أنقرة عام ١٤٠٢م، وبين الفاتح في تناسيه لهذه الحادثة والصفح عنها وعن نصارى المدينة بعد دخوله القسطنطينية).

إن الجيوش الصليبية قد أزهقت في عملية احتلال القدس أرواح ٧٠,٠٠٠ بريء، يقول هـ. ج. ويلز في ذلك: «كانت المذبحة التي دارت في بيت المقدس رهيبة وكان الراكب على جواده يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع. . .» نفس المؤرخ يقول عن هولاكو: «كان هولاكو يفتح فارس وسوريا وأظهر المغول في ذلك الزمان عداوة مريرة للإسلام، ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد فقط بل. . . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابا من الخرائب والأطلال لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان. . .».

وتقول سامحة آي ويردى: «إن الجيوش الصليبية التي تدفقت على القسطنطينية (عام ١٤٠٢م) قامت بتحول المدينة إلى خرابة بائسة فقيرة معدمة بعد أن كانت غنية معمورة يسودها الرخاء».

وعندما دخل شارل الخامس تونس عام ١٥٤٠م لم يترك حياً أمامه إلا قتله

ولم تسلم من وحشيته حتى الجمال والقطط، وهذا ما ذكره شهاب الدين تكين داغ في مذكراته عن الدولة العثمانية.

إن هذه الأمثلة إذا ما قارناها بموقف الفاتح الحضاري من القسطنطينية وأهلها، نرى الفاتح قائداً منعدم النظير بين أقرانه من أباطرة الشرق وحكام الغرب. ولو كان الفاتح قد اتبع ما كان يجري على الجانب الغربي من البحر المتوسط من فظائع الأسبان في الأندلس وما فعلوه بالمسلمين وبالعرب لما أصبح هناك مسيحي واحد في القسطنطينية.

دور المدفعية العثمانية

كان المدفع اختراعاً حديثاً مروعاً غيّر مجرى التاريخ. وكان مدفع الهاون اختراعاً عثمانياً عرفه العالم لأول مرة أثناء حصار العثمانيين للقسطنطينية كما كان المدفع الضخم خاصة مع الهاون أكبر عامل في فتح المدينة.

كان المدفع الضخم من اختراع اثنين هما: مصلح الدين وأوربان، وأوربان هذا مختلف في أصله هل هو مجري أو روماني، كان المدفع ضخماً جداً تسمع طلقاته من مسافة (١٠٠) ستاد (٢٥ ميلاً) وقذيفته من الحجر والبارود تبلغ زنة القذيفة الواحدة (١٥٠٠) كيلو جرام تصل مداها إلى مسافة ميل. (يقول أداري مونتالدو أن عدد المدافع التي صبها كل من مصلح الدين وأوربان قد بلغ ٢٠٠ مدفع).

وعندما كان المدفع ينقل من أدرنة العاصمة إلى القسطنطينية ليستقر أمام أسوارها كان لزاماً على العثمانيين توسعة طريق أدرنة ــ القسطنطينية وقام بهذه العملية (٥٠) مهندساً ومائتا عامل، وكان يجر المدفع (٦٠) جاموسة ويسند المدفع من على جانبيه ٤٠٠ رجل قوي (٢٠٠) على كل جانب، وذلك حتى لا ينزلق المدفع يمنة أو يسرة أثناء مروره (فرانتزيس يقول بأن بعض هذه المدافع كان يحتاج إلى ٢٠٠٠ رجل لجره).

ولقد لعبت مدافع الهاون دوراً ملحوظاً في الحصار سواء في الضرب أو في

عمليات التمويه وإن لم تكن كافية للتحكم تماماً في الخليج كله.

وبسبب هذه المدافع حدث التحول الكبير في أوروبا.

فالمعروف أن أوروبا كانت تعيش ـ إلى ما قبل فتح القسطنطينية ـ في العصر الإقطاعي الذي كان يمثله الإقطاعيون الذين يعيشون داخل حصون مُسَوَّرة بأسوار ضخمة. وكان هذا هو رمز العصور الوسطى في الغرب. فلما اخترع العثمانيون المدفع الهاون والمدفع الضخم وانهارت أمام طلقات المدفعية العثمانية أسوار القسطنطينية، ثم أخذ المدفع في الانتشار، أخذت أسوار الإقطاعيين في التهاوي، والسقوط، فانتهى عهد الأمير الإقطاعي المستبد وأخذت الدول الحديثة تتشكل، ومعها ظهرت بداية التاريخ الحديث ومن هنا فإن مدفع العثمانيين في فتح القسطنطينية أصبح هو مفتاح تاريخ العصر الحديث، وعلى هذا اتفق المؤرخون سواء في الغرب أو في الشرق.

مغالطة مفضوحة

في عام ١٩٥٣م نشر المستشرق الألماني فرانز بابنجر كتاباً بعنوان «السلطان محمد الفاتح وعصره» قال فيه أن السلطان محمد الفاتح مات مسموماً وأن الذي قدم له السم ليشربه طبيبه اليهودي يعقوب باشا.

كان ادعاء بابنجر هذا نتيجة ترجمة متعسفة لكلمة تركية جاءت في نص في تاريخ عاشق باشا زاده المسمى تواريخ آل عثمان، في الفصل الخاص بمرض السلطان محمد الفاتح الذي أدى إلى وفاته. والعبارة المقصودة هنا هي كالتالي: «اتفق الأطباء ـ أي أطباء السلطان ـ على إعطائه (شراب فارغ)، وكان مجلس أطباء السلطان يضم فيمن يضم يعقوب باشا اليهودي «المهتدي» ولم يكن الباشا هذا من النفوذ بحيث ينفرد بالرأي في المجلس، وضعت الكلمة التي تعسف في ترجمتها بابنجر كما هي من النص التركي يقول بابنجر بأن هذه الكلمة تعني السم، مع أنها في الحقيقة الدواء المقيىء بمعنى الدواء الذي يفرغ المعدة مما بها من أكل وما شابهه.

كان بابنجر يقصد من هذا الادعاء أن يجر الرأي العام العالمي عامة والتركي خاصة إلى طرح مسألة موت الفاتح بالسم ومناقشتها ولما كان من المعروف تاريخياً أن السلطان محمد الفاتح ــ جرياً على العادة التركية في ذلك الزمان ــ قد أقام جامعه فوق مقبرة بيزنطية، فإن معنى تحليل رفاته أن يشمل ذلك حفراً سيجر بالتالي إلى عملية تنقيب التربة ويمتد الأمر إلى المقبرة البيزنطية القديمة وبالتالي سيتحول جامع السلطان محمد الفاتح ــ بحكم قانون الآثار التركية ــ إلى منطقة أثرية ومتحف وبالتالي كان لا بد أن يغلق تماماً أمام المصلين وتمنع فيه الصلاة (لاحظ أن جامع صوفيا كان تحول بحكم القانون التركي إلى متحف ولم تعد تقام فيه الصلاة).

فطن المؤرخ التركي شهاب الدين تكين داغ إلى حملة بابنجر على الفاتح فقام هذا المؤرخ القدير أثناء احتدام مناقشة هذا الادعاء في الصحف والمجلات والندوات الثقافية التركية، قام بكتابة بحثه المشهور «قضية موت الفاتح» أشار فيه إلى أن بابنجر اعتمد في ادعائه هذا على عاشق باشا زاده وهو مؤرخ عثماني أتى بعد حادثة فتح القسطنطينية بواحد وثمانين عاماً، ولم يقل هذا شيئاً جديداً على المؤرخين السابقين عليه من الذين عاصروا الفتح من عثمانيين وأجانب، ولم يدّع أحد من هؤلاء مثل هذا الادعاء وإنما اتفقوا على أن موت السلطان الفاتح كان نتيجة لإصابته بالنقرس، وهو المرض الذي أصاب كثيراً من سلاطين آل عثمان على درجات متفاوتة كان آخرهم السلطان عبد الحميد الثاني.

ثم فند شهاب الدين تكين داغ تعسف بابنجر في ترجمة كلمة «شراب فارغ» ودحضه من وجهتي نظر لغوية وتاريخية، ثم أثبت فشل زعم بابنجر في مسألة تسمم الفاتح وفضح نواياه.

كان لموقف شهاب الدين تكين داغ أثر حاسم في إيقاف الحملة العالمية والتركية المحلية على السلطان محمد الفاتح وعلى مؤامرة تحويل جامعه المشهور إلى منطقة أثرية ومتحف.

وكما لم ينس الغرب لصلاح الدين الأيوبـي استرداده للقدس، فإن الغرب لم ينس أيضاً للفاتـح فتحه القسطنطينية والقضـاء على الـدولة البيـزنطيـة فما زال يوم ٢٩ مايـو من كل عـام هو يـوم حزن عنـد بعضٍ رجال الـدين الغربيـين. . وهو يوم فتـح القسطنطينية.

(٢)

الحملات الحربية
في عهد سليمان القانوني

● تولى السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية بعد موت والده السلطان سليم الأول، وكانت سنة تولية سليمان عام ٩٢٦هـ (١٥٢٠م) وحكم الدولة العثمانية مدة ست وأربعين سنة وهي أطول مدة حكم فيها سلطان عثماني.

كان عهد القانوني قمة العهود العثمانية سواء في الحركة الجهادية وفي الناحية المعمارية والعلمية والأدبية والعسكرية. كان هذا السلطان يؤثر في السياسة الأوروبية تأثيراً عظيماً وبمعنى أوضح كان هو القوة العظمى دولياً في زمنه. نعمت الدولة الإسلامية العثمانية في عهده بالرخاء والطمأنينة ●

ابتلى سليمان في السنوات الأولى من عهده بأربع تمردات شغلته عن حركة الجهاد. إذ أتاح موت سليم الأول وكان متصلباً، ثم جلوس ابنه على العرش وهو صغير السن، أتاح هذا الفرصة لكي يظن الولاة الطموحون للاستقلال أنهم قادرون على ذلك. فلما وصل خبر تولية سليمان العرش، إلى الشام وكان جان بردى الغزالي والياً عليها من قبل الدولة العثمانية، تمرد وأشهر العصيان على الدولة.

جان بردى الغزالي هذا، قائد مملوكي كان قد تعاون مع سليم الأول في حربه ضد المماليك، كان هذا أميراً طموحاً وأودى به طموحه إلى أن ينقلب على المماليك ويتعاون مع سليم، حتى أن بعض المؤرخين العثمانيين يرون أن

معركة غزة التي قادها ضد طلائع الجيش العثماني الزاحف على مصر إنما كان بالدرجة الأولى لعبة سياسية قصد منها إخفاء دوره في التعاون مع الجيش العثماني.

من الثابت في المصادر العثمانية المسماة سليم نامه أن تعاون جان بردى الغزالي ــ وهو تعاون مبكر ــ مع سليم. ومن الثابت أيضاً في هذه المصادر أن سليم الأول أقطع الغزالي، وكان هذا يخاف كثيراً من سطوة سليم، وكان والياً لسليم على الشام. فلما تولى سليمان أرسل الغزالي من الشام رسالة إلى خاير بك النائب العثماني على مصر أوضح فيها الأول للثاني أن حان الوقت لإعادة الدولة المملوكية وبعثها من جديد، إلاّ أن والي مصر العثماني أرسل الرسالة هذه إلى العاصمة العثمانية ليطلع عليها السلطان سليمان. وهذه الرسالة موجودة الآن في متحف طوبقبو سرايي ــ قسم الأرشيف.

جان بردى الغزالي، كان ــ وهو وال للدولة على الشام ــ يراسل أكبر عدو للدولة العثمانية، ألا وهي الدولة الشيعية في إيران. وكان يتزعمها الشاه إسماعيل الصفوي والوثيقة رقم (٥٤٦٩) بقسم الأرشيف بمتحف طوبقبو عبارة عن رسالة من جان بردى الغزالي إلى الشاه إسماعيل الصفوي تقول بأن جان بردى كان على تعاون سري بعيد المدى مع الفرس وأن الغزالي طلب من الصفوي حضوره شخصياً إلى بلاد الشام أو تقديم مساعدة عسكرية ضخمة له ــ أي إلى الغزالي ــ ولم يكن سليم على علم بهذا إذ أن رسول الغزالي كان وصل بهذه الرسالة سراً إلى كاشيان لمقابلة الشاه إسماعيل. وفي هذه الرسالة عرض من الغزالي بتقديم تبعيته وخالص عبوديته للشاه إسماعيل الصفوي.

فإذا ما مات سليم وتولى سليمان العرش إذا بالغزالي يفور ويثور وقام للاستيلاء على حلب وفشل في ذلك. وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وأرسل رأس الثائر إلى إستانبول دلالة على انتهاء التمرد.

أما التمرد الثاني فقام به أحمد باشا الخائن في مصر وكان هذا عام ٩٣٠هـ (١٥٢٤م). وكان هذا الباشا يطمح أن يكون صدراً أعظماً ولم يفلح في هذا.

لذلك طلب إلى السلطان أن يعينه والياً على مصر فقبل السلطان. وما أن وصل مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً. لكن أهل الشرع في مصر وكذلك جنود الانكشارية لا يعرفون إلا سلطاناً واحداً خليفة لكل المسلمين هو السلطان سليمان القانوني. لذلك ثار أهل الشرع والجنود ضد هذا الوالي المتمرد وقتلوه. وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعي علوي قام به بابا ذو النون عام ١٥٢٦م في منطقة يوزغاد حيث جمع هذا البابا ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسلت رأسه إلى إستانبول.

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني كان تمرداً شيعياً علوياً أيضاً وكان على رأسه قلندر جلبي في منطقتي قونية ومرعش وكان عدد أتباعه ٣٠,٠٠٠ شيعياً قاموا بقتل المسلمين السنيين في هاتين المنطقتين. ويقول بعض المؤرخين أن قلندر جلبي جعل شعاره أن من يقتل مسلماً سنيّاً ويعتدي على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز على أكبر ثواب.

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم إذ أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبي، فقلت قواته وهزم وقتل.

بعد هذا هدأت الأحوال في الدولة العثمانية وبدأ السلطان سليمان في التخطيط لسياسة الجهاد في أوروبا.

بدأ العثمانيون في عصر سليمان فتوحاتهم في أوروبا بفتح أهم مدن البلقان وهي بلغراد، التي كان المجريون يتولون حمايتها، وكانت علاقة العثمانيين بالمجريين في هذا الوقت متوترة إذ كان سليمان قد أرسل إلى ملك المجر رسولاً يعلنه بتولي سليمان عرش العثمانيين، فقتل الملك المجري رسول

سليمان ويدعى بهرام جاووش، فأعلن السلطان العثماني الحرب على المجر، وحاصرت القوات العثمانية بلغراد من البر ومن النهر وسلّمت بلغراد بعد شهر واحد من الحصار (عام ١٥٢١م) واتخذها العثمانيون قاعدة حربية تنطلق منها قواتهم في فتوحاتهم الأوروبية. وأثناء حرب بلغراد هذه استولى العثمانيون أيضاً على قلاع هامة في منطقة بلغراد مثل صاباج وسلانكامن وزملين.

وبعد خمس سنوات فقط من هذه الحرب التي أخذ فيها العثمانيون بلغراد أخذ ملك المجر لايوش يجمع القوى الأوروبية لقهر العثمانيين. كتب ملك المجر إلى كل من شرلكان الإمبراطور الألماني وإلى فرديناند الأرشيدوق النمسوي يطلب منهما التحالف معه لقهر العثمانيين. وفي ذلك الوقت كان سليمان يعد العدة للحرب ضد المجر.

في تلك الفترة أيضاً قامت حرب محدودة بين شرلكان وبين ملك فرنسا فرانسوا الأول، انتصر شرلكان وأخذ فرنسوا أسيراً، فقامت أم الملك الفرنسي ثم ابنها بعد ذلك بإرسال خطابات نجدة إلى سليمان العثماني يطلبان منه تأييده ضد أعداء فرنسا. فوعد سليمان خيراً، وفي ربيع ١٥٢٦م تحرك الجيش العثماني في أكثر من ستين ألف جندي من إستانبول حتى وصل إلى سهول المجر. وفي صحراء موهاج بالمجر دارت معركة ضخمة من المعارك الإسلامية المسيحية دارت في يوم ٢٩ أغسطس من نفس العام واستمرت ساعتين. وبخطة موفقة من العثمانيين هزم الجيش المجري وكان من أرقى الجيوش الأوروبية ومشهور بفرسانه المدرعين ولعبت المدفعية العثمانية المتقدمة تكنولوجيا دورها في هذا النصر السريع الخاطف الذي أحرزه الجيش العثماني بعد قطعه لمسافات طويلة. مات من الجنود المجريين الكثير وفر أيضاً عدد كبير من ميدان المعركة وكان من ضمن هؤلاء الذين فروا إلى المستنقعات ملك المجر القائد الأعلى للقوات المسيحية لايوش وهو نفسه الملقب بالملك لويس الثاني ملك بلاد المجر. وإن كان الملك المجري لم يلق حتفه على يد سيف عثماني، فقد لاقاه عند هربه

إلى المستنقعات إذ قد مات غرقاً فيها. ورفعت الرايات العثمانية فوق العاصمة المجرية بشت ولم تكن قد صارت بعد باسمها المعروف الآن بودابست.

من بودابست أعلن السلطان سليمان القانوني خضوع مملكة المجر للحماية العثمانية ثم أصدر أمراً بتعيين أحد المجريين ملكاً عليها وكان هذا الملك هو جون زابوليا أمير منطقة أردل وهو الذي تعرفه المصادر الشرقية باسم الملك يانوش. وعاد سليمان إلى استانبول بجيوشه.

بعد ثلاث سنوات من الحملة العثمانية لفرض الحماية الإسلامية على مملكة المجر جاءت رسالة إلى سليمان من يانوش ملك المجر يقول فيها بأن أرشيدوق النمسا فرديناند يستعد لأخذ المجر منه بعد أن قام الكثير من أمراء المجر بتأييده ملكاً على المجر بدلاً من يانوش واستولى فرديناند بالفعل على مدينة بودين من الملك المجري التابع للعثمانيين.

وفي مايو من عام ١٥٢٩م تحركت الجيوش العثمانية من إستانبول إلى المجر واستعاد سليمان القانوني مدينة بودين مرة أخرى وفي احتفال مهيب توّج القانوني جون زابوليا ملكاً على المجر.

ورغم حماس كل من فرديناند وشرلكان ورغم توقع أن يتحركا للحصول على بودين من العثمانيين وإنزال ضربة بالقوات العثمانية، إلاّ أن شيئاً من هذا لم يحدث فقد استولى عليهما الرعب والخوف من سليمان.

أصر السلطان سليمان القانوني على محاربة فرديناند، فحاصرت القوات العثمانية في سبتمبر ١٥٢٩م مدينة فيينا عاصمة النمسا، واشترك في الحصار مائة وعشرون ألف جندي وثلاثمائة مدفع، وقبل الحصار خرج ملك النمسا من عاصمته وانسحب بعيداً عنها. وقامت معارك كبيرة أمام أسوار فيينا لكن الجيش العثماني لم يتمكن من فتحها، إذ جاء الشتاء وبدأت المواد الغذائية تنقص، وأثناء حصار فيينا أرسل العثمانيون قوات (المغيرين) وهي وحدات خاصة في الجيش العثماني، إلى داخل ألمانيا حيث شنوا الغارات وأخذوا الغنائم وأسروا

الكثير وعادت القوات العثمانية جميعاً دون التمكن من فتح فيينا.

وبعد ثلاث سنوات من بداية الحملة على المجر وحصار فيينا، بدأ السلطان سليمان القانوني القيام بحرب ألمانيا (١٥٣٢م).

سبب حملة سليمان على ألمانيا هو أن أرشيدوق النمسا فرديناند أرسل إلى السلطان العثماني سفيراً يطلب منه الاعتراف به ملكاً على المجر، ولم يكتف فرديناند بذلك بل جرّد حملة وحاصر بها مدينة بودين. وقامت الحامية العثمانية في هذه المدينة مع القوات المجرية المحلية بالدفاع عن المدينة. على هذا كان قرار سليمان بحملته على ألمانيا، أما لماذا سمّيت بالحملة العثمانية على ألمانيا فذلك لأن سليمان كان يقصد بها دحر قوات شرلكان الألماني أكثر منها حملة على فرديناند.

وصل السلطان العثماني إلى النمسا ماراً بيوغوسلافيا والمجر. كانت القوات العثمانية المشتركة في هذه الحملة تقدر بمائتي ألف. لم يحاصر العثمانيون فيينا هذه المرّة بل توجهوا لتأديب أسرة هابسبرج العريقة لكن آل هابسبرج وقوادهم خافوا عندما علموا بوصول سليمان العثماني وخشوا مواجهته. ولما لم يتحركوا للحرب. أرسل سليمان إلى فرديناند رسالة كلها احتقار دفعاً لحماسه إلى الحرب. لكن آل هابسبرج لم يتحركوا وصدرت للمغيرين أوامر بالقيام بعمليات عسكرية سريعة في داخل ألمانيا غنموا فيها وأسروا وانتصروا، وعندما حل الشتاء عادت الحملة العثمانية بأكملها إلى إستانبول.

أسفرت الحملة العثمانية على ألمانيا عن خوف فرديناند وإيمانه بأن لا قوة في أوروبا تستطيع التصدي لسليمان العثماني، فاضطر فرديناند إلى طلب الصلح وهو صاغر. ووافق السلطان القانوني على الصلح بشرط أن يعترف فرديناند بأنه ليس نداً للسلطان العثماني وأنه مجبر في معاهدة الصلح هذه على الاعتراف بيانوش ملكاً على المجر تحت الحماية العثمانية، ووافق فرديناند صاغراً على دفع ٣٠,٠٠٠ دوقاً ذهبية جزية للدولة العثمانية.

وفي الجبهة الأوروبية، مات يانوش عام ١٥٤٠م ولم يكن له إلا ولداً طفلاً فقامت الملكة إيزابيلا بالكتابة إلى السلطان العثماني تقول له أنها تريد أن يكون ابنها هو الملك بديلاً عن أبيه، وكانت تدرك أن فرديناند أرشيدوق النمسا يطمع في ملك المجر بل وتحرك وحاصر بودين فعلاً، وسريعاً ما تحرك جيش العثمانيين بقيادة السلطان سليمان القانوني نحو بودين. وما أن سمع النمساويون بقرب القوات العثمانية حتى تركوا حصار المدينة وهربوا. وعند انسحابهم كانت بعض وحدات العثمانيين بقيادة الوزير محمد باشا تلحق بهم الخسائر الفادحة أثناء انسحابهم.

وفي عام ١٥٤١م دخل السلطان بودين وأمر بتحويل أضخم كنائسها إلى جامع للمسلمين كما أمر بإلحاق هذه المنطقة الهامة من المجر بالدولة العثمانية تحت اسم ولاية بودين، وأمر بتعيين سيجسموند الابن الطفل لملك المجر يانوش، أميراً على إمارة أردل التي كان يحكمها أبوه قبل أن يصبح ملكاً على المجر. ثم عاد السلطان إلى العاصمة.

لكن فرديناند لم يسكت فقد أقنع البابا بول الثالث بضرورة تكوين حملة صليبية قوية لكي تستريح أوروبا من العثمانيين بالتخلص منهم والقضاء عليهم، تحركت هذه الحملة إلى بودين عام ١٥٤٢م، وحاصرتها حصاراً محكماً، لكنها فشلت في الاستيلاء عليها، ولما وصلت أخبار هذه الحملة إلى السلطان سليمان، تحرك مرة أخرى عام ١٥٤٣م إلى أوروبا واستولى على أهم القلاع المجرية التي كانت في يد النمسويين وهما استركون، واستولني بلغراد.

توسل الملكان المرموقان في أوروبا في ذلك الوقت إلى السلطان سليمان عن طريق السفراء أن يعفو عنهما، وسامحهما سليمان بشرط أن تدفع النمسا سنوياً مبلغ ٣٠,٠٠٠ ذهباً عن أراضي المجر التي في يدها، ولم تستمر هذه المعاهدة طويلاً إذ اعتدى النمساويون على أردل. لذلك قام الوزير قره أحمد باشا مع أمير أمراء الروملي صقوللو محمد باشا عام ١٥٥٢م بحصار قلعة طمشوار وكانت في أيدي النمسويين وأخذها فتحاً. وتحرك علي باشا الخادم من بودين

ودخل الأراضي المجرية التي تسيطر عليها النمسا وفتح كثيراً من قلاعها وغنم وأسر. وحاول أحمد باشا بقواته أن يستولي على قلعة أيرى فلم يوفق.

اجتمع مجلس شعب إمارة أردل ورفض الحكم النمسوي ووقع المجلس مع العثمانيين معاهدة وطلبوا من سليمان أن يصبح سيجسموند بن يانوش والموجود في بولندة ملكاً عليهم فقبل العثمانيون هذا وأصبحت أردل مملكة يحكمها سيجسموند تحت الحماية العثمانية عام ١٥٥٩م. ولم يكن مناص من أن ترسل النمسا سفارة إلى سليمان العثماني ترجوه فضّ حالة النزاع وعقد معاهدة سلام. ولما وافق سليمان العثماني على ذلك وقعت المعاهدة عام ١٥٦٢م اعترفت فيها النمسا بعدم أحقيتها في أردل وأنها تقبل دفع مبلغ ٣٠,٠٠٠ ذهباً وسار الحال هادئاً حتى مات فرديناند وخلفه مكسميليان الذي اعتدى على الأراضي العثمانية فخرج سليمان العثماني ليؤدبه. إلّا أن السلطان توفي وهو يحاصر إحدى القلاع في هذه الحرب.

أما في جبهة الدولة العثمانية مع عدوها الدولة الصفوية فنذكر عنها ما يلي:

في عام ١٥٢٤م تولى الحكم في الدولة الصفوية الشاه طهماسب ابن الشاه إسماعيل، وكان طهماسب عدواً للعثمانيين السنيين. بدأ طهماسب نشاطه ضد الدولة العثمانية بأن رغب في التحالف مع القوى الأوروبية لحصر العثمانيين بين القوتين والقضاء على دولتهم، فأرسل طهماسب إلى شرلكان سفيراً يطلب منه التحالف بين الاثنين.

إن البداية الحقيقية للنزاع هذه المرة بين العثمانيين والصفويين كانت من بغداد. طلب ذو الفقار خان حاكم بغداد الدخول تحت الحماية العثمانية فأرسل له الشاه من يقتله عام ١٥٢٩م ودخلت القوات الصفوية بغداد. وعلى الجانب الآخر قام شرف خان حاكم بتليس بخيانة العثمانيين وتحالف مع الصفويين. عند هذا أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الصفويين وتحرك الصدر الأعظم إبراهيم باشا فدخل تبريز دون مقاومة تذكر. ومن خلفه كان

السلطان سليمان القانوني يقود الجيوش العثمانية إلى نفس الهدف ودخل تبريز عام ١٥٣٤م ثم اتجه إلى بغداد فسلّمت القوات الصفوية عام ١٥٣٤م وكان سليمان قد استولى على أذربيجان وعبر جبال زاغروس الإيرانيةُ ومنها إلى بغداد، وسميت هذه الحملة حملة العراقين أي العراق العجمي وهو أذربيجان والعراق العربي. وبهذه الحملة دخلت العراق في كنف الدولة العثمانية. وعندما انسحب العثمانيون من تبريز وجوارها ثم فتحوا بغداد استرجع الصفويون المنطقة مما سبب عزم السلطان على تأديب الصفويين مرة أخرى وهذا ما سمي باسم الحملة الثانية على إيران وكانت عام ١٥٤٨م واسترجع فيها تبريز وأضاف إليها قلعتي وان وأريوان لكن انسحاب العثمانيين وعودتهم جعل الإيرانيين بعد أن انتهزوا إنشغال الدولة في أوروبا وعادوا مرة أخرى فقام سليمان بحملته الثالثة ولم يحصل على نتيجة مباشرة إذ أن طهماسب خاف من مجابهة الجيوش العثمانية، فلما عاد سليمان إلى بلاده. وعند وصوله إلى أماسيا. وصلت إليه رسل طهماسب للصلح فقبل السلطان توقيع معاهدة أماسيا عام ١٥٥٥م وبموجبها تقررت أحقية الدولة العثمانية في كل من أريوان وتبريز وشرق الأناضول.

أما ما كان من أمر السلطان مع فرنسا فقد بدأت أول ما بدأت أثناء حروب القانوني في المجر. فقد لبى السلطان طلب الدعم الذي تقدم به فرانسوا الأول ملك فرنسا وأمه، وأنقذ السلطان فرانسوا من ضغوط شرلكان عليه.

أما لماذا قبل السلطان سليمان القانوني أن يساعد فرنسا. فذلك لأن الأوروبيين كانوا ينظمون حملات صليبية على الدولة العثمانية وعلى العالم الإسلامي ولا يكلّون من هذا رغم هزائمهم المتكررة فانتهز القانوني النزاع بين شرلكان وبين فرانسوا ملك المجر وفكر في نزع فرنسا من أوروبا بمعنى إبعادها عن المعسكر المسيحي واتخاذها مانعاً أوروبياً ضد أي تجمع صليبي ضد العثمانيين.

كان سليمان القانوني في حملته البغدادية فتقدم إليه السفير الفرنسي جون دي لافوريت ليهنىء السلطان بانتصاراته. وعندما عاد القانوني إلى إستانبول وقع مع فرنسا معاهدة ١٥٣٥م منح بموجبها السلطان لفرنسا بعض الامتيازات التجارية مثل إعطاء تخفيض جمركي خاص للسفن الفرنسية التي تصل الموانىء العثمانية، وتم الاتفاق على أن هذه المعاهدة تسري طالما أن الحاكمين على قيد الحياة. لكن الفرنسيون نجحوا في تجديدها كلما جدّ سلطان جديد حتى وصل الأمر على تثبيت هذه الامتيازات رسمياً عام ١٧٤٠م.

كان القانوني معواناً لفرنسا فقد أمدها بمعونات عسكرية وأرسل قباطنته العظام مثل خير الدين برباروس وطورغود رئيس، وتحت إمرتهما الأساطيل العثمانية إلى فرنسا لمؤازرتها.

في عهد القانوني تم فتح جزيرة رودوس عام ١٥٢٢م. ورودوس ذات موقع استراتيجي هام بالنسبة للأناضول والدولة العثمانية. وكان انتصاراً باهراً على فرسان القديس يوحنا، انتصاراً كلف الدولة كثيراً واشترك الأسطول العثماني مع تدعيم بحري من مصر، قلعة رودوس كانت أقوى قلعة بحرية في العالم في ذلك الوقت، لكنها خضعت للمسلمين العثمانيين.

ومن المواقع البحرية الخالدة في التاريخ الإسلامي الحديث معركة بَرَوَزَه البحرية. وقد حدثت عام ١٥٣٨م، وقصتها أيضاً مرتبطة بالصراع الإسلامي المسيحي في القرن السادس عشر الميلادي. فقد دعا البابا بول الثالث الجيوش الأوروبية للاتحاد ضد العثمانيين، ولتكون تحالفاً صليبياً بحرياً ضم ثلاثمائة قطعة بحرية مسيحية، كان يقودها أشهر قائد بحري عالمي في هذا القرن وهو أندريا دوريا. أما أسطول العثمانيين فقد كان يتكون من ١٢٠ قطعة بحرية يقودها خير الدين برباروس. والتقى الأسطولان في يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٥٣٨م أمام بروزه.

وضع خير الدين برباروس أسطوله على شكل هلال عيّن على رأس جناحه الأيمن صالح رئيس. وعلى رأس جناحه الأيسر سيدي علي رئيس. وقاد

خير الدين بنفسه الجناح الأوسط وأمر طورغود رئيس بأن يقود احتياطي الأسطول ويبقى في الخلف.

بدأ برباروس بإطلاق نيران مدفعيته على سفن العدو، وعلى حين غرة وعندما لم يكن أسطول الصليبيين يتوقع الهجوم إذا بخير الدين برباروس ينطلق إلى مقدمة الأسطول المسيحي الذي اختل نظامه بفعل المباغتة وما لبث أن تفرق وإذا بالقائد أندريا دوريا يهرب نجاة بحياته. ولقد كان انتصار العثمانيين في هذه المعركة انتصاراً يدين للمباغتة والهجوم الغير متوقع من خير الدين برباروس. وجعل هذا النصر، العزة في البحر المتوسط للعثمانيين.

ولم يستطع شرلكان تحمل أنباء هذه الهزيمة الأوروبية، فقاد بنفسه أسطولاً أوروبياً قوياً وهجم به على الجزائر العثمانية عام ١٥٤١م، ولكن حسن آغا المسؤول عن أمن الجزائر والذي كان خير الدين باشا يتبناه، دافع بشجاعة عن الجزائر أجبر بها شرلكان على الانسحاب خاسراً.

كانت طرابلس الغرب في هذا العهد تحت حكم فرسان مالطة وهم من المسيحيين ونظراً لأن أهل طرابلس الغرب من المسلمين فقد وجه السلطان سليمان القانوني أمره إلى قبطان البحر العثماني طورغود رئيس بتخليص طرابلس الغرب من النفوذ المسيحي فقام هذا القبطان بأسطوله بمحاصرة طرابلس الغرب حصاراً شديداً إلى أن اضطر حاميتها المسيحية إلى التسليم وكان ذلك عام ١٥٥٢م. وعين القانوني طورغود رئيس، عينه والياً على طرابلس الغرب. وكان طورغود بطلاً مسلماً بحرياً كبيراً. وقد استشهد بعد ذلك عام ١٥٦٥م أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطة.

ثم اتجهت أنظار العثمانيين إلى استخلاص جزيرة صاقيز وهي جزيرة هامة في بحر إيجة في مواجهة إزمير. وكانت في يد البنادقة وبالفعل فتحها العثمانيون عام ١٥٦٦م على يد بياله باشا.

ولم تقتصر أعمال العثمانيين الجهادية ضد الأوروبيين في أوروبا والبحر المتوسط فقط بل أخذ العثمانيون يناضلون ضد البرتغاليين في المحيط الهندي.

عندما فتح العثمانيون مصر في عهد والد سليمان، كان البرتغاليون قد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ووصلوا إلى الهند، وما لبثوا أن قاموا باعتداءات وحشية على مسلمين الهند. فاستنجد حاكم كجرات بالخليفة العثماني سليمان القانوني، وكان طبيعياً أن يلبي الخليفة هذا الاستنجاد فقامت القوات البحرية العثمانية بأربع حملات بحرية لتأديب البرتغاليين كانت الأولى عام ١٥٣٨م وكانت بقيادة سليمان باشا الخادم في الهند. والثانية عام ١٥٥١م وكان قائدها هو بيري رئيس صاحب كتاب بحرية والثالثة عام ١٥٥٢م وكانت بقيادة مراد رئيس والرابعة بقيادة سيدي علي رئيس صاحب كتاب مرآة الممالك.

وتأتي أهمية هذه الحملات إلى أهمية مضيق باب المندب وسواحل البحر الأحمر بالنسبة للاستراتيجية العثمانية.

ظهر في عهد القانوني شخصيات هامة في التاريخ العثماني ففي التشريع ظهر الشيخ أبو السعود الذي نظم قوانين البلاد على أساس الشرع الإسلامي وترجع شهرة سليمان القانوني إلى ما في اجتهادات الشيخ أبو السعود.

وفي مجال العمارة ظهر في عهد القانوني أكبر شخصية معمارية في التاريخ الإسلامي وهو المعمار سنان، كما ظهر في عهده أعظم القواد الحربيين وأبرزهم خير الدين باشا الملقب بلقب برباروس.

ومات السلطان سليمان القانوني مريضاً في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ الموافق الخامس من سبتمبر ١٥٦٦م وعمره أربع وسبعون سنة وكانت مدة حكمه ثمان وأربعين سنة قضاها في الحرب والتقنين والإعمار، مات عندما كان يقود الجيوش العثمانية أثناء حصارها قلعة سكتوار. مات السلطان العثماني سليمان القانوني بين طلقات المدافع وأخفى وزيره نبأ وفاة السلطان، وفي اليوم التالي للوفاة فتحت القلعة.

(ج)

عَـــدَاءُ اليَهُود

(١) ليس بالاستشراق اليهودي نفهم تاريخنا!!

(٢) يهود الدونمة.

(٣) موئيز كوهين: يهوديٍ عثماني من قادة الطورانية.

(١)

ليس بالاستشراق اليهودي نفهم تاريخنا!!

● أحالنا الأستاذ فتحي رضوان، في مقاله (السلطان عبد الحميد أمام محكمة التاريخ) (الدوحة العدد ١٢٤) إلى قراءة مستشرقين غربيين، امتدحهما كثيراً، هما: برنارد لويس وستانفورد شو، وزوجته أزل قورال شو. وكان الأستاذ فتحي رضوان متأثراً في مدحهما بالدكتور عبد العزيز الشناوي صاحب كتاب «الدولة العثمانية دولة إسلامية».

والواقع أن الاستشراق الحديث قد غيّر طريقته المباشرة، ولجأ إلى الأسلوب الرقيق والتشكيك غير المعلن، عند تناوله للقضايا الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وكذلك كان هذا الاستشراق تجاه تاريخ السلطان عبد الحميد.

أما الاستشراق اليهودي، فقد أسهم مع الحركة الصهيونية في تناول عبد الحميد والدولة العثمانية، تناولاً يعتمد على المدح الظاهر والقدح الخفي. وعلى رأس الاستشراق اليهودي الحديث شخصيتان كبيرتان هما: برنارد لويس، وستانفورد شو، وزوجته أزل شو ●

وبرنارد لويس، مستشرق كبير، يهودي، صهيوني متعصب، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة لندن. تتلمذ عليه كثير من الأساتذة العرب الجامعيين، ودرّس لويس أيضاً في جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية، وله مؤلفات وأبحاث في مختلف نواحي التاريخ الإسلامي.

اتجه برنارد لويس في السنوات الأخيرة إلى البحث والكتابة في الدولة العثمانية وتركيا الحديثة. وهو رائد الاتجاه الاستشراقي اليهودي الجديد في استبعاد الطعن المباشر في تاريخ الدولة العثمانية وعهد عبد الحميد.

يلجأ هذا المستشرق في كتابة أفكاره إلى الحذر والدقة وافتعال حسن النية في الكتابة، وإلى المغالطة، باستخدام لوي ذراع النص، وبالعبث بذهن قارئه باستخدام مصادر ضعيفة.

برنارد لويس يطعن في الإسلام ويفتري عليه. ومن افتراءاته قوله: «إن ترفع العلماء وجفاف عبادتهم الشرعية الباردة، فشلت في أن تلبي الحاجات الاجتماعية والروحية لكثير من المسلمين، فاتجهوا نحو غيرهم لطلب العون والإرشاد».

وهو باحث مجد دؤوب، لكنه سيىء النوايا، إنه يجيد بعضاً من اللغات الشرقية ومنها التركية، ويعرف جيداً المصادر العثمانية الأصلية. ويعلم أن هذه المصادر تقول أن جامعة إستانبول أقيمت في عهد السلطان محمد الفاتح عقب فتحه إستانبول (القسطنطينية)، وكان مشروع الجامعة مشروعاً إسلامياً بحتاً، لكن برنارد لويس أراد أن يحرم الفاتح من هذا الشرف، فلجأ ـ لا إلى مصدر عثماني قديم مثل وقفية محمد الفاتح لإنشاء جامعة إستانبول، وإنما ـ إلى مصدر تركي حديث ومدرسيّ كتبه عثمان أركين في العهد الجمهوري التركي الثاني، بهدف قومي بحت، هو طمس مآثر العثمانيين قبل عهد الجمهورية، وعنوان هذا الكتاب (تاريخ المعارف التركية).

ينقل الأستاذ فتحي رضوان، في مقاله المذكور عبارة هذا المستشرق اليهودي برنارد لويس، ونصها: (وقد توج عبد الحميد نشاطه الواسع في مجال التعليم بإنشاء جامعة إستانبول، وكان مشروع الجامعة أصلاً: قومياً تركياً.. وكانت جامعة إستانبول هذه، أول جامعة تنشأ في العالم الإسلامي). فإذا كان فتح القسطنطينية (إستانبول) قد حدث عام ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) فكيف يمكن أن

تكون جامعة إستانبول في عهد الدولة العثمانية الأخير، أي في عهد عبد الحميد، أول جامعة في العالم الإسلامي؟!.

يوجه برنارد لويس إلينا فكره الخاص، ويغالط، ويحاول إخضاع تصورنا للتاريخ الإسلامي، تاريخنا، لمفاهيمه هو، وهو اليهودي، ومفاهيمه أبعد عنا، على كل المستويات: الإسلامية والوطنية، بل حتى القومية.

نقل الأستاذ فتحي رضوان عبارة لبرنارد لويس عن التربية العثمانية هي: (... في السنة التالية لارتقاء عبد الحميد العرش، بدأ بالمدرسة الملكية، وهي أول مدرسة ملكية، أي مدنيّة غير عسكرية).

ماذا توحي هذه العبارة؟ إنها تكاد تقول بأن المدارس العثمانية نشأت واستمرت عسكرية حتى أواخر أيامها، في عهد عبد الحميد، وكأن التعليم في هذه الدولة كان عسكرياً. وهذا القول يتنافى مع ألف باء تاريخ التربية العثمانية بمدارسها المدنية التي قامت دينية إسلامية، ثم دخلها بعض التعديل فأخذت تدرس ـ بجانب العلوم الشرعية ـ العلوم التطبيقية، وهذه المدارس هي الأصل، وكان بجوارها بعض مدارس عسكرية داخل الجيش العثماني، وإن هذه المدارس العسكرية، لم توجد عند العثمانيين، إلا بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية.

أما الدكتور ستانفورد شو، وزوجته أزل شو، الوارد اسمهما في المقال المذكور، فهو ـ أي شو ـ يهودي أمريكي يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا (لوس أنجلوس)، وزوجته أزل شو، يهودية من يهود الدونمة في تركيا، وتعمل معه في نفس الجامعة وفي قسم التاريخ.

ستانفورد شو متخصص في تاريخ مصر العثمانية، ثم في تاريخ الدولة العثمانية. وهو يمثل العنصر الأكثر حيوية في مدرسة الاستشراق اليهودي الحديث. وهو باحث مجد، يعرف العربية والتركية. تواجد في القاهرة أثناء إعداده لرسالته عن النظم المالية والإدارية في مصر العثمانية.

ومن كتاب الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها للدكتور عبد العزيز الشناوي، وهو الذي دفع الأستاذ فتحي رضوان لمدح لويس وشو، نعرف عن ستانفورد شو وزوجته العبارة الآتية: (كان من بين المؤرخين الغربيين في السنوات القليلة الماضية: ستانفورد شو، وزوجته.. وقد أتيحت لهما عديد من الفرص للبحث عشرين عاماً في دور الوثائق الرسمية، والأوراق الخاصة، بكبار رجال الدولة في إستانبول وأنقرة، وفي لندن وباريس وفيينا، ومراكز البحوث في جامعات الولايات المتحدة، بفضل المساعدات السخية التي قدمتها لهما مؤسسات فورد، درروكفلر، وجوجنهايم).

تستوقفني في مقولة الدكتور الشناوي، الكلمات الآتية: (أتيحت لهما عديد من الفرص للبحث عشرين عاماً ـ المساعدات السخية ـ مؤسسة فورد ـ مؤسسة روكفلر ـ مؤسسة جوجنهايم).

إن ستانفورد شو هو صاحب هذه الفرية: (وضع السلطان العثماني قوانين علمانية في المجالات التي لم يستطع التشريع الإسلامي أن يشملها بدقة، وبذلك ظهر نظام قانوني ثنائي).

وطبعي، أننا لا ننتظر من مدرسة الاستشراق اليهودي الحديث إنصاف العثمانيين. ألم يكن السلطان عبد الحميد هو القائل: (لا بد أن تظل القدس إسلامية)، كما أننا لا ننتظر أن ينسى المستشرقون اليهود أن الدولة العثمانية حمت الحقوق الطبيعية للفلسطينيين في بلادهم. لكننا نلفت النظر إلى قضية هامة، ألا وهي أن ليس بالاستشراق نفهم تاريخنا.

(٢)

يهود الدونمة

●لم يعترف اليهود بعيسى عليه السلام مسيحاً، لذلك ظلوا ينتظرون المسيح ليأتي ليُعيد إليهم ـ كما يعتقدون ـ دولتهم، ثم ليفرض سيطرتهم على العالم، وكانوا يعتقدون بأن المسيح المنتظر نبياً وملكاً، سيقيم دولة كبيرة ويجبر العالم كله على التدين باليهودية.

وكلمة مسيح ومسيحاً في العبرية تعني الرجل الذي طهره يَهْوه. والكلمة تأخذ في التوراة معاني عامة، فتطلق على الملوك والأنبياء وكل الرجال الذين يقومون بعمل ديني ومقدس: أما المعنى الخاص لهذه الكلمة فهو: النبي أو المخلص الذي يُرسله يهوه لإنقاذ بني إسرائيل.

وقد تسبب هذا الاعتقاد في ظهور كثير ممن ادعى أنه المسيح المنتظر مثل: تيوداس الروماني عام ٤٤ ميلادية، وموسى التكريتي، وأبو عيسى الأصفهاني، ثم ساباتاي زفي الأزميري (نسبة إلى مدينة أزمير التركية) وهو مؤسس طائفة الساباتائية أو طائفة يهود الدونمة ●

فكرة المسيح المنتظر

ظهر ساباتاي زفي والدولة العثمانية في أحرج أوقاتها: الجنود يعيثون في الأرض فساداً ويقتلون سلطانهم إبراهيم (١٦٤٨م)، ويسحقون بشدة السخط الشعبي الذي ظهر نتيجة لمقتل السلطان، وأساطيل البندقية تهدد سواحل

الدولة، والجيوش عاجزة ــ للمرة الثانية ــ عن فتح قلعة فيينا (عاصمة النمسا الآن).

كانت أوروبا تعيش في هذا العهد فترة محاكم التفتيش، والحريات الدينية مكبوتة، أما اليهود الأوروبيون، فقد كانوا يتعرضون للاضطهاد، وخاصة في إسبانيا، ولم يجد هؤلاء اليهود حامياً لهم إلا الدولة العثمانية وما عرف عنها من تسامح ديني فهاجر الكثير منهم إليها.

في هذه الظروف التاريخية، وبالذات في عام ١٦٢٦م، ولد في أزمير يهودي يدعى ساباتاي، لأب يدعى موردخاي زفي، كان يعمل بالتجارة في إزمير منتقلاً إليها من المورة في اليونان، وكان من أصل يهودي إسباني.

في تلك الفترة أيضاً قال بعض اليهود بأن حساب الجمل لبعض كلمات واردة في التوراة تقول بأن المسيح سيظهر علم ١٦٤٨م، لكي يقود اليهود وأنه سيظهر في صورة نبي مخلص سيحكم العالم من فلسطين ويجعل القدس مركزاً وعاصمة للدولة اليهودية.

كان ساباتاي في هذه الظروف قد بلغ الثانية والعشرين من عمره، فأخذ يعد نفسه ليصبح هو ذلك المسيح المنتظر. ويقول إبراهيم علاء الدين صاحب كتاب ساباتاي زفي: إن هذا اليهودي ــ ساباتاي ــ كان مصاباً بحالة صرع، وكان معتل الصحة والمزاج وكان حاخامات إزمير ينفرون منه.

وفي العام المحدد (١٦٤٨م) فاتح ساباتاي أقرب الأقربين إليه بأنه هو المسيح المنتظر، الذي تشير إليه إشارات الكتب المقدسة.

وكان الجو الإعلامي الذي أشاعه حاخامات اليهود عن قرب ظهور المسيح المنتظر بالإضافة إلى تقوي ساباتاي الظاهرة، وانكبابه على دراسة النصوص الدينية والكتب ذات الصبغة الصوفية اليهودية مع اشتهاره بتفسيرها، وحالة الصرع التي تنتابه بين الحين والحين، أقول كل هذا هيأ الجو أمام ساباتاي لإعلان نفسه مسيحاً.

وفي عام ١٦٦٣م، ذهب ساباتاي إلى مصر حيث استضافه يهودي يدعى رافاييل جوزيف، يعرفه المصريون باسم يوسف جلبي، وكان هذا يعمل رئيساً للصيارفة بالقاهرة، واستطاع ساباتاي أن يكسب رافاييل إلى جانبه ويفيد من دعمه المالي لحركته.

ثم قام ساباتاي بزيارة فلسطين، وتعرف بيهود القدس عن قرب، ثم عاد إلى إزمير عام ١٦٦٦م حيث كانت شهرته قد طبقت الآفاق.

وفي إزمير انهالت عليه وفود اليهود من: رودوس، وأدرنة، وصوفيا، واليونان، وألمانيا حيث قلدته هذه الوفود تاج «ملك الملوك» ثم قام ساباتاي بتقسيم العالم إلى ٣٨ جزءاً، وعين لكل جزء منها ملكاً، لأنه كان يتصور أنه سيحكم العالم كله من فلسطين، وكان في كل ذلك يوقع بلقب «الابن الوحيد الأول ليهوه»!

عندما أشهر إسلامه

ثم ظهر مسيح آخر يدعى كوهين، منافساً لساباتاي، تقدم كوهين بشكوى إلى القصر السلطاني العثماني مدعياً أن: ساباتاي، يعد العدة للقيام بتمرد بهدف إقامة دولة يهودية في فلسطين. أصدر القصر العثماني أمراً بالقبض على ساباتاي وأحضر إلى القصر، حيث واجه هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من شيخ الإسلام وواحد من كبار العلماء. وعن طريق مترجم للأسبانية تم استجواب ساباتاي. أنكر هذا كل ادعاءاته. وبين خوفه من العقاب موتاً وبين نصيحة العلماء له، أشهر ساباتاي إسلامه، وصار يدعى محمد البواب، لأن السلطان خصص له ريع وظيفة رئيس البوابين في القصر السلطاني وعلى الفور أرسل ساباتاي نشرة إلى أتباعه قال فيها: «جعلني يهوه مسلماً، أنا أخوكم محمد البواب. هكذا أمرني فأطعت» والمعروف أن الكتب اليهودية تقول بأن المسيح سيبتلعه المسلمون، ثم قدم أخوه التوضيح الآتي: «كيان ساباتاي القديم صعد إلى السماء، وبأمر من يهوه، ترك ملكاً يستمر في كونه المسيح ولكن تحت جبة وعمامة».

وعلى هذا، أطلق الأتراك لقب الدونمة على اتباع ساباتاي، والدونمة صفة تعني العائد أي الذي أسلم بعد أن كان يدين باليهودية، متبعاً ساباتـاي زفي ثم أصبحت الكلمة اصطلاحاً يعني المسلم ظاهراً، اليهودي فعلاً وباطناً.

طلب ساباتـاي من السلطات العثمانية، أن تسمح له بـدعوة اليهـود إلى الإسلام فأذنَت له، وانتهزها فرصة فانطلق بين اليهود يواصل دعوتـه إلى الإيمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام مبطنين الساباتائية.

ثم قدم قائمة ضمت أسس دعوته، وجهها إلى «كل المؤمنين به» صدرهـا بـالآتي: «هذه هي الأوامـر الثمانيـة عشرة التي أمـر بها سيـدنا وملكنـا ومسيحنا ساباتاي زفي، فليزدد شرفه!».

من هـذه الأوامر: «الإيمـان بأن مسيـح يهـوه هو المسيـح الحق ولا مخلص غيره، هو سيدنا وملكنا ساباتاي زفي، وأنه من نسل داود «و» قراءة مزامير داود سراً كل يوم «و»يجب مراعاة الأتراك المسلمـين ذراً للرماد في أعينهم ويجب عـدم إظهار الضيق بصوم رمضان أو عند تقديم أضحية العيد، بل يجب المحافظة على جميـع المظاهر الدينية الإسلامية و«ممنـوع الزواج من المسلمـين» «ومن بين هـذه الأوامـر أيضاً مـا ينص على اعتبـار اليوم الـذي أسلم فيه سـاباتـاي عيـداً يجب الاحتفال به احتفالاً بالغاً».

وبناء على تقارير إدارة الأمن العثمـانية حـول إقامـة سابـاتاي الـطـقوس اليهـودية مـع أتبـاعـه، تم نقله إلى ألبـانيـا، وهنـاك في ١٦٧٥/٩/٣٠م مـات المسيـح المزيـف والمسلم المزيف زعيم طائفة الساباتائيين: ساباتاي زفي وهو يبلـغ من العمـر ٤٩ عامـاً. ولا يـزال أتبـاعـه إلى اليـوم يقفـون عـلى ضفـاف الأنهار ـ ساباتاي دفن على ضفة أحد الأنهار ـ ويدعون قـائلين: يا سـاباتـاي زفي إننا ننتظرك».

هم والمسلمون

عاش هؤلاء اليهود مختلفين عن المسلمين، لكنهم يؤيدون الشعائر الدينيـة

الإسلامية الظاهرة فيصومون أحياناً، ويحجون أحياناً، ويدخلون المساجد والجوامع للصلاة أحياناً، وكانت لهم عاداتهم الخاصة منها لبس الأحذية بدون كعوب وحلق شعورهم بالموس، كما يحتفلون بعيد الخروف (أعيادهم عشرون) وهذا العيد يحدث في ٢٢ مارس دائماً حيث يشترط تساوي العدد بين النساء والرجال المتزوجين: يذبحون خروفاً ويلهون، ثم تطفأ الشموع ويسود الظلام، والأولاد الذين يولدون في هذه الليلة يكتسبون قداسة. وإن قال أحد حاخامات سلانيك في معرض احتجاجه على هذا العيد أن: «من المحتمل أن يكون نسل المحتفلين بهذا العيد هذه الليلة، نسل غير مشروع» (انظر إبراهيم علاء الدين في كتابه ساباتاي زفي ومقالة رشدي قرقاش زاده ــ وهو من يهود الدونمة في هذا الخصوص بجريدة وقت التركية، إستانبول ١٩٢٤م).

ويهود الدونمة ثلاث فرق: اليعاقبة والقراقاشية والقابانجية، ولهم لغتان: تركية للتعامل مع الأتراك. وإسبانية للتعامل فيما بينهم ولكل منهم اسمان: اسم يهودي خاص واسم إسلامي رسمي عام.

وقد توصل حكمت طانيو، عند محاولته دراسة يهود الدونمة من خلال شواهد مقابرهم في إزمير إلى حقيقة هامة، وهي أن التجار من يهود الدونمة أخذوا يتزاوجون من العائلات التركية المسلمة العريقة والغنية والمعروفة في عالم التجارة، وكان المعروف أن حالة أو حالتين كانتا تعدا في حكم الندرة التي حدث فيها زواج بين الدونمة والمسلمين، أبرزها زواج زكريا سرتل الكاتب التركي المعروف، بصابحة سرتل وهي يهودية من الدونمة.

ويجب ملاحظة أن ليهود الدونمة في تركيا مدارس خاصة بهم صباحية وداخلية، كما أن لهم مقابرهم الخاصة.

وقد تركزت جهود يهود الدونمة منذ الحرب العالمية الأولى في دفع عجلة التغريب في الحياة الاجتماعية التركية، بدأوا بالحرب على الحجاب وشجعوا سفور المرأة في المجتمع العثماني المحافظ (عام ١٩١٤م) وكانت حجة إعلامهم

وقتها «إن الحجاب ليس من الإسلام وإنما انتقل من الروم إلى المسلمين» انظر مجلة سبيل الرشاد العدد ٤٠٦ عام ١٩١٩م.

وفي فترة الهدنة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، قام إعلام يهود الدونمة بالدعوة إلى طرح قضية اختلاط الشباب بالفتيات في جامعة إستانبول كمظهر أوروبي غربي، ثم بذلوا جهداً كبيراً في إقناع الرأي العام العثماني بذلك (المصدر السابق).

صحيح أن مصطفى كمال أتاتورك هو أول من أوجد في تركيا مسابقة الجمال كمظهر أوروبي لإثبات أن «جمال المرأة التركية الذي تخفيه تحت الحجاب يضارع جمال أجمل نساء العالم» إلا أن يهود الدونمة هم الذين تبنوا فكرة مسابقة ملكة جمال تركيا إلى اليوم.

ومسابقات «ملكة الجمال» المحلية (في تركيا) واشتراك تركيا في المسابقات العالمية من هذا النوع وهي مسابقات خرجت عن النطاق المحلي تقيمها جريدتا «مليت» و «كون أيدين» التركيتين اللتين يملكهما يهود الدونمة.

في الحياة السياسية

يبلغ عدد يهود الدونمة في تركيا الآن حوالي (٣٠,٠٠٠) نسمة لهم تأثيرهم في كل مجالات الحياة في البلاد (حكمت طانيو، الأتراك واليهود عبر التاريخ، ج ٢، ص ١١٥٦/٥٧ إستانبول ١٩٧٦م).

ومنذ إسلام ساباتاي، ويهود الدونمة يحتلون مراكز هامة في الدولة مثل: منصب أمين الترسانة البحرية وأمين الصرة وكتخدا القصر وكتخدا المدينة.

وفي حركة حزب الاتحاد والترقي في أواخر عهد الدولة العثمانية، اندس فرع القابانجية من يهود الدونمة في خلايا الحزب، وأداروا الجزء الأكبر من انقلاب تركيا الفتاة الذي أطاح بحكم السلطان عبد الحميد الثاني، وأفسح المجال لحكم جمعية الاتحاد والترقي والحكم العلماني (انظر مجلة محراب التركية عدد (٥)، عام ١٩٢٤م).

ومن أبرز أسماء الدونمة في الحياة السياسية التركية في بدايات هذا القرن: قراصو عضو اللجنة التي قابلت عبد الحميد لخلعه. وقراصو كان مسؤول جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشعب ضد عبد الحميد لتهيئة الفرصة لعمل الجمعية الثوري: وهو ذاته الذي باع ليبيا لإيطاليا بعد أن خان دولته العثمانية نظير رشوة من الإيطاليين (انظر مقدمة كتابي: مذكرات السلطان عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٧٩م، وخاصة طبعة دار الهلال من هذه المذكرات، القاهرة ١٩٨٥م).

هناك أسماء أخرى كثيرة من يهود الدونمة برزت في شتى فروع الحياة في تركيا منها: محمد جاويد: وزير المالية في عهد الاتحاد والترقي ونزهت فائق وهو أيضاً أحد وزراء مالية العهد ذاته، ومصطفى عارف أحد وزراء داخلية الاتحاد والترقي، ومصلح الدين عادل وكان مستشاراً لوزارة التعليم التركية وأحد أساتذة الحقوق.

يهود في أجهزة الإعلام

وأبرز عائلات الدونمة في تركيا الآن عائلات: قبانجي و «كبار» و «إيبكجي»، وهذه الأخيرة لها مكانتها الضخمة في الحياة الإعلامية في تركيا.

إن تأثير الدونمة على هيئة الإذاعة والتلفزيون التركية ضخم بدرجة ملحوظة ولا يمكن إنكارها، ومن الثابت أن أكبر دور النشر وأضخم دور الصحف التركية يمتلكها ويديرها الدونمة.

لقد كان أول اسم صحفي من يهود الدونمة، يخرج من نطاق المحلية إلى العالمية هو: أحمد أمين يالمان (سلانيك ١٨٨٨ ـ إستانبول ١٩٧٣م)، الذي أسس عدة صحف ومجلات هامة، واشترك في بعض المؤتمرات الصهيونية بالولايات المتحدة الأمريكية، وتبنى أثناء الحرب الأولى الدفاع عن قيام دولة أرمنية ودولة كردية تقتطعان من الأراضي التركية. كما نادى بعد الحرب العالمية الأولى بضرورة قبول تركيا الحماية الأمريكية. وناصر أيضاً قضايا الماسون

الأتـراك ودافـع عن قضايـا الشيوعيـين الأتراك، وعن أمن إسـرائيل، ونشط في الدعاية للصهيونية، كما كان معادياً للإسلام وللمسلمين حتى أن الشاعر التـركي نيزن توفيق هجاه بقصيدة مطلعها: «أحمد أمين، دونمة خبيث يقذف بالطين أهل الشرف» (راجـع حكمت طانيو، المرجـع السابق، ص ٢٤٥ ــ ٣٤٩).

وآخـر اسم كبـير منهم في الصحـافـة هــو عبـدي أيبكجي، أشهــر اسم صحفي في تركيا في الفترة الأخيرة، وهو من عائلة أيبكجي، أشهر عائلات يهود الدونمة. تولى عبدي أيبكجي عام ١٩٦٤م إدارة تحرير جريدة «مليت» الصباحيـة اليومية كما ترأس نقابة الصحفيين الأتراك. وكـان عضواً في اللجنـة التحضيريـة لقانون أخـلاق الصحافـة وكان الأمـين العام لـديوان الشـرف الصحفي، وكان لعبـدي أيبكجي شهرةً عـالميةً إذ أنـه كان عضـواً بمجلس إدارة معهد الصحـافة بزيورخ (أي. بـي. أي) المعـروف بسيطرة اليهـود عليه. وفي عـام ١٩٦٨م عُيِّن عبدي أيبكجي عضواً في هيئة التدريس بمعهد الصحافة بجامعة إستانبول.

اغتيل عبدي أيبكجي في ١٩٧٩/٢/٢ فاهتزت تركيا جميعـاً لمقتله، وبعد مضي حوالي خمسة أشهر على حادث الاغتيال، قبض على قاتله، وكانت أول مرة في تركيا ــ منذ أن عرفت الصحافة. يتم القبض على قاتل أحد أساطين الصحافة.

ويمتلك يهود الدونمة مؤسسة جـريدة (حـريت)، وهي توزع يـومياً مـا بين ٨٠,٠٠٠ نسخة ومليون نسخة، وهي تأخذ مكانتها بين أكـثر (٢٠) صحيفة في العـالم توزيعـاً. وصدر العـدد الأول منها في أول مايو ١٩٤٨م وشعـارها: تـركيا للأتراك (انظر موسوعة لاروس، الطبعة التـركية مـادة حريت). وهـذه المؤسسة تملك دار نشر معـروفة كـما تملك أيضاً عـدة مجلات دوريـة، أسبوعيـة وشهريـة وسنوية مثل هفته صونو (نهاية الأسبوع وهي فنية) وييللربويو (مجلة التاريـخ وهي شهرية)، ومؤسس «دار حريت» للصحافة والنشر هو «سداد سيماوي» من يهـود الدونمة، ولما مات أخذت أسرته تدير هذه المؤسسة إلى اليوم.

جـريدة (كـون آيدين) تـرجمة اسمهـا حـرفيـاً هـو: (صبـاح الخـير) وهي صباحية يومية تطبـع (٥٧٠) ألف نسخة يـومياً وهي ثـاني صحف تركيـا ــ بعد

حريت ـ توزيعاً ويملكها الدونمة.

وجريدة مليت رابع صحف تركيا توزيعاً، وأكثر صحف اليسار التركي اعتدالاً، يملكها يهود الدونمة وتتبع لهذه الجريدة مجلة صنعت (الفن) الأسبوعية، ودار نشر مليت بسلاسلها المشهورة.

وجريدة (جمهوريت) الصباحية اليومية أيضاً، يطلق عليها أيضاً «برافدا تركيا»: لغلبة الصبغة الماركسية عليها، أسسها يونس نادي اليهودي الدوْنمة وكان يديرها نوري تورن، ثم سيطر على إدارتها بعد عام ١٩٧٢م: رشاد أتابك وكلاهما يهودي دونمة.

وفي جريدة (ترجمان) ثالث الصحف التركية الصباحية اليومية توزيعاً يبرز اسم عثمان كبار، وهو من عائلة (كبار) اليهودية الدونمة، وكان هذا الصحفي والكاتب البارز رئيساً لبلدية إزمير قبل امتهانه الصحافة.

يهود الدونمة والماركسية

في عام ١٩٤٥م أسست الصحفية اليهودية الدونمة صابحة سرتل جريدة (طنين) الشيوعية، كان لصابحة قلمها المعروف وكان لها إسهام كبير في نشر الفكر الماركسي في تركيا واضطرت صابحة سرتل عام ١٩٥٢م للهروب إلى الاتحاد السوفييتي، وظلت هناك حتى ماتت في مدينة باكو عام ١٩٦٨م.

ثم قام إسماعيل جم أيكجي بتأسيس جريدة (بوليتيكا) اليومية الصباحية وتصدر من إستانبول (يلاحظ أن الصحف التي وردت أسماؤها من قبل تصدر كلها في إستانبول) وإسماعيل جم يهودي دونمة، وهو من أبرز الكتاب الماركسيين الأتراك إن لم يكن أبرزهم، وكان يعمل في جريدة «مليت» كما كان مديراً لهيئة الإذاعة والتلفزيون التركية حتى قامت حكومة الائتلاف الوطني عام ١٩٧٥م، فطردت إسماعيل جم من منصبه رغم تأييد رئيس الجمهورية ـ فخري كوروتورك ـ له. (انظر كتابي: يهود الدونمة، ص ٥٤) وقد لخص فاروق تيمور طاش الأستاذ الجامعي والكاتب ذو الاسم اللامع دور إسماعيل جم بقوله: «المفروض رسمياً أن تكون هيئة الإذاعة والتلفزيون

التركية جهازاً محايداً لكن إسماعيل جم، وجه الجهاز فكرياً إلى الدعوة لفكر اليسار المتطرف، وحزبياً إلى تأييد حزب الشعب الجمهوري والدعاية له (هو أكبر الأحزاب اليسارية في تركيا). (انظر نصرت ك. أحزابنا وقادتها ص ٨٢، إستانبول ١٩٧٥م).

يهود الدونمة وإسرائيل

وكان من الطبيعي أن تدافع أجهزة الإعلام الخاضعة للدونمة عن إسرائيل وتشتد في تبني وجهات نظرها في كل مواجهة لها ضد العرب، وتبرر اعتداءاتها على البلاد العربية خاصة مثلما حدث في اعتداءاتها على جنوب لبنان (انظر حكمت طانيو المرجع السابق، ج فصل الدونمة).

وقد نجحت أجهزة إعلام الدونمة في إيجاد رأي عام تركي مؤيد لإسرائيل وغير متعاطف مع العرب، ويستثنى من هذا التعميم حزب السلامة الوطني. إذ أن هذا الحزب ينادي بسحب اعتراف تركيا بإسرائيل وضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وتدعيمها وإقامة علاقات قوية مع العالم العربي، والإسهام في التكاتف العربي والإسلامي من أجل تحرير فلسطين.

وهنا أيضاً يجب القول بأن أجهزة إعلام الدونمة تعمل على خدمة اليهودية العالمية فمن مقالات سامي كوهين (يهودي ومدير الشؤون الخارجية بجريدة مليت) إلى عرض أفلام التنديد بمعاداة اليهود في التلفزيون التركي، خاصة في عهد إدارة إسماعيل جم. نلحظ دفع هذا الإعلام إلى العطف على إسرائيل واليهود.

يقول حكمت طانيو: «ليس من الصعب على صاحب الحس السليم إحصاء هؤلاء العملاء من يهود الدونمة الذين يعملون ضد تركيا تحت أسماء متعددة منها: جمعية الاتحاد اليهودي العالمي والمنظمة الصهيونية، ومنظمة رأس المال العالمي وإسرائيل». (المرجع السابق، ص ١١٥٦).

إن أبرز شخصية نسائية في الأدب التركي الحديث والمعاصر، يهودية من

الدونمة هي خالدة أديب كان أبوها يهودياً دونمة يعمل في القصر السلطاني، وكانت خالدة ذات شخصية نافذة وعلى قدر كبير من الجمال، واستطاعت عن طريق صلتها الشخصية بجمال باشا حاكم سوريا العسكري في الحرب العالمية الأولى وأحد القادة البارزين في الاتحاد والترقي أن تفرض وهي مديرة مدرسة البنات في بيروت، تمثيل أوبرا (رعاة كنعان) وهي من تأليفها (يلاحظ أنها أول أوبرا غنائية في الأدب التركي). كالت خالدة أديب المديح فيها لليهود وسجلت فيها تمنياتها بقيام دولة يهودية في فلسطين.

وكان هذا التمثيل بحضور قادة جمعية الاتحاد والترقي وفي منطقة عربية هي بيروت أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان كل هذا كفيلاً بإيذاء الشعور العربي والإسلامي.

وقد وُصفت أوبرا «رعاة كنعان» لخالدة أديب بأنها نوع من (البشرى! تعلن قرب قيام إسرائيل) (عن خالدة أديب ويهوديتها انظر منور عياشلي: ايشتكلرم.. إستانبول ١٩٧٣م).

وكانت خالدة أديب قد بدأت إظهار عدائها للحركة الإسلامية ولعلماء الدين الإسلامي الذين عارضوا الحركة الكمالية، وأتاتورك، برواياتها أضربوا الغانية، (انظر منور عياشلي، المرجع السابق).

اشتركت خالدة أديب، في حرب الاستقلال التركية برتبة (أومباشي) ثم (جاووش) ثم كانت لها إسهامات بين الجنود خطيبة ومواسية لهم ومرفهة عنهم، كما كانت صديقة شخصية لمصطفى كمال أتاتورك، وعبرت عن حرب الاستقلال بمفاهيمها في روايتها (قميص من نار).

لكن خالدة أديب اختلفت مع أتاتورك «ولم يكن اختلافها في طريقة التفكير، بل أنه لم يتجاوز كونه خلافاً بين رجل وامرأة (عن فالح رفقي وهو صديق أتاتورك ــ انظر السيدة منور عياشلي المرجع السابق وكتابي: يهود الدونمة، ص ٥٤ ــ ٥٦).

ماتت خالدة أديب عام ١٩٦٤م، بعد أن تركت مدرسة أدبية واجتماعية تحذو حذوها، وأقام لها الجمهوريون تمثالاً نصفياً يقوم الآن بجانب جامع آياصوفيا (حول إلى متحف) وفي مواجهة جامع السلطان أحمد.

أمن هدف آخر بعد قيام إسرائيل؟

يقول عبد الرحمن كوجوك في رسالته للدكتوراه عن الدونمة من الناحية العقائدية: «إن هرتزل تعقب خطى ساباتاي زفي. نجح هرتزل في السيطرة على فلسطين وحقق ليهود هدفهم القريب وهو تجميع اليهود في فلسطين بإقامة دولة يهودية فيها، وامتلاك «المعبد المقدس» عام١٩٤٨م، ومن ثم فقد اتجه يهود الدونمة إلى العمل نحو هدفهم التالي لهذا وهو تحقيق فكرة «السيطرة على العالم» وفي هذا يتفق كل اليهود. (عبد الرحمن كوجوك: دونمة لك، ص ١٩٣، إستانبول ١٩٧٩م).

(٣)

موئيز كوهين

يهودي عثماني من قادة الطورانية

● يقول نيازي بركس الأستاذ بجامعة ماكجل بكندا، في كتابه «المعاصرة في تركيا»: «إن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين (في الدولة العثمانية) في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية. فالعلماء اليهود في الغرب مثل لوملي دافيد وليون كاهون وأرمينيوس فامبري، تصدروا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما أن اليهود المحليين (في الدولة العثمانية) مثل كراسو (قراصو)، وموئيز كوهين، وأبراهام غالانتي، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي. وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية (في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم في الاستيلاء على السلطة) تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود. . .».

ومن بين الذين أورد نيازي بركس أسماءهم، شخصية يهودية هامة هو موئيز كوهين، ولخطورة دور هذا اليهودي وصفه رينيه بينو بقوله:

١ ــ إن موئيز كوهين هو خالق الفكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية.

٢ ــ إن كتاب موئيز كوهين «توران» هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية ●

والجدير بالذكر هنا أن سيرونستون تشرشل كتب في مذكراته عن الحرب

العالمية الأولى يقول أن مرجعه الوحيد في دراسة موقف الدولة العثمانية ومعرفته هو كتاب موئيز كوهين الذي نشره عام ١٩١٤م بعنوان «الطورانية والجامعة الإسلامية».

وصلت جمعية الاتحاد والترقي إلى سدة الحكم، فنفت السلطان عبد الحميد إلى مدينة سلانيك ذات الطابع اليهودي، وإمعاناً في إذلاله ـ وهو المانع للهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ سجنته في قصر يملكه يهودي وهو الأتيني. ويقع المقر العام للجمعية في هذه المدينة، وإليها استقدم الاتحاديون كاتباً وشاعراً تركياً سيصبح فيما بعد مفكرهم ومنظر اتجاهاتهم وهو: محمد ضيا.

وفي سلانيك التقى محمد ضيا بالكاتب والصحافي اليهودي العثماني موئيز كوهين، واتخذ الاثنان لقبا تركيا مشتركا وهو ألب، فأصبح اسم الأول محمد ضيا كوك ألب، والثاني موئيز كوهين تكين ألب، ولم يفترقا حتى الموت.

شخصية موئيز كوهين

ولد موئيز كوهين في سلانيك عام ١٨٨٣م، وتخرج في مدرسة الحقوق، وبعد أن تولى الاتحاديون السلطة وأعلنوا «المشروطية» أخذ موئيز كوهين يكتب في جريدة «روم أيلي»، وكان يصدرها يونس نادي وهو من يهود الدونمة، وجريدة «اتحاد وترقي» وكان يصدرها الاتحاديون. وكان موئيز كوهين قد انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي عضواً أساسياً ومفكراً عام ١٩٠٥م، وكان رئيساً لجمعية تعميم اللغة التركية وانتخب عضو شرف في أبرز جمعية تركية وهي «تورك وجاغي».

أخذ موئيز كوهين على عاتقه التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان «الأتراك يبحثون عن روح قومي» نشره في «ميركور دي فرانس» عام ١٩١٢م.

وفي الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩١٨م عمل موئيز كوهين أستاذاً بكلية الحقوق بجامعة استانبول وترجم للأساتذة الأجانب الذين استقدمتهم الجامعة من ألمانيا.

وفي عام ١٩٢٢م انتقل موئيز كوهين إلى أنقرة حيث عمل في الصحافة والتبغ، حتى وصل إلى منصب الأمين العام لاتحاد التبغيين الأتراك، كما كتب في جريدة «وطن» وكان يصدرها الصحفي أحمد أمين يالمان وهو من اليهود الدونمة.

وفي عام ١٩٤٦م أصبح موئيز كوهين في المجلس الأقليمي لحزب الشعب الجمهوري لمدينة إستانبول، وفي عام ١٩٥٠م رشح هذا الحزب موئيز كوهين عضواً بمجلس الأمة عن إستانبول.

وفي عام ١٩٤٨م أقيم في إستانبول عيد فضي تكزيماً (لهؤلاء الكتاب الذين أمضوا خمسين عاماً ي خدمة الصحافة التركية) وكان هؤلاء عبارة عن ثلاثة كتاب يهود، موئيز كوهين أحدهم.

وحتى لا يثير موئيز كوهين حساسية القراء العثمانيين عامة والأتراك المسلمين خاصة، لم يستخدم اسمه الحقيقي في الكتابة إلا في كتاب واحد فقط من كتبه التي نشرها بالتركية وبضع مقالات قليلة على وفرة مقالاته وتعددها. لكنه استخدم اسمين مستعارين هما: تكين ألب ومؤنس ألب، حتى أن الأغلبية العظمى من قرائه كانوا يقرأون له على اعتبار أنه مسلم عربي.

أسهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وهي السياسة التي أثرت على العلاقات التركية العربية، خاصة في بلاد الشام، وهي أيضاً السياسة التي تتردد شكوى العرب منها أثناء حكم جمال باشا الاتحادي.

عن السياسة الاتحادية وفكر الاتحاد والترقي كتب موئيز كوهين كتباً ثلاثة هي:

«ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب» و «طوران» و «سياسة التتريك». كما أسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي بكتابه «الكمالية»، وكتابه «الروح التركية» الذي أرخ فيه لتطور العنصر التركي.

مات موئيز كوهين في ٢٧ سبتمبر عام ١٩٦١م، وفي ٢٤ مارس ١٩٦٢م، أقامت جمعية التراث التركي اجتماعاً لتأبينه حضرها ابنه إسحاق كوهين.

خمسة كتب

في كتبه الخمسة، يقول موئيز الكثير:

١ ـ ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب: ويقصد هنا الحرب العالمية الأولى، والكتاب صدر في إستانبول عام ١٩١٤م. وهو الكتاب الوحيد الذي وضع عليه موئيز كوهين اسمه الحقيقي، ووضع على غلاف هذا الكتاب كلمة للكاتبة التركية خالدة أديب وهي من اليهود الدونمة هذا نصها: «إن أهم ما أريده هو رؤية كل الأتراك في العالم متحدين مستقلين سياسياً وذهنياً».

في هذا الكتاب يتحدث عن الضمير القومي واليقظة القومية السائدة في أيامه وعن المفهوم القومي ـ لدى الأمم ـ الحديث وعن أتراك أذربيجان والقوقاز، كما يتحدث عن أشهر ستة من الكتاب القوميين العنصريين الأتراك المعاصرين له منهم الشاعر: محمد أمين وهو من تلامذة الأفغاني، والكاتب القصصي عمر سيف الدين، والدكتور عبد الله جودت وهو من القوميين الملحدين ثم محمد ضياكوك ألب.

ظهر الكتاب أثناء الحرب العالمية الأولى وقصد موئيز كوهين بنشره، إلى (الإيحاء للشباب العثماني بفكرته العنصرية التركية) وإلى (اتحاد الأتراك في العالم بديلاً عن الوحدة الإسلامية المتمثلة في الجامعة الإسلامية).

ويرجع موئيز كوهين في هذا الكتاب، السبب في هزيمة الدولة العثمانية في حرب البلقان إلى (فقد الشعور القومي).

ومن أقوال موئيز كوهين في صفحات هذا الكتاب: (من الألزم أن يتحد جميع الأتراك في سبيل سمو الجنس التركي، وطالما أن هذا التيار وهذه الفكرة لم تنم ولم تتسع بعد، فمن الصعب كثيراً على الأتراك العثمانيين خلق الحضارة الجديدة التي يستهدفون إقامتها منذ أمد) و (لأن هذه الحضارة المستقبلة لن ينجح في تشييدها اثنا عشر أو خمسة عشر مليون تركي، فلا بد من إيقاظ الأتراك خارج تركيا أيضاً ويبلغون أربعين أو خمسين مليوناً، ودفعهم إلى هذه الفكرة) و (إن الحرب الحالية (العالمية الأولى) ستنتهي لا محالة بهزيمة روسيا، و (بالتالي) فإن الأتراك سيطورون وبصورة غير عادية اتحاد أتراك العالم).

يعقب الكاتب التركي ارطغرل دوزداغ على هذا الكتاب بقوله: (إن موئيز كوهين ــ وهو يشير إلى حضارة تركية جديدة ومستقلة يريد أن تكون هذه الحضارة منفصلة عن دين وثقافة العالم الإسلامي، ومستقلة بمعنى قطع الصلة بين الأتراك وبين الشعوب الإسلامية الأخرى).

٢ ــ «الطورانية» لم يضع موئيز كوهين اسمه الحقيقي على هذا الكتاب الذي نشره في إستانبول عام ١٩١٤م، وإنما وقعه باسم تكين ــ ألب. وفي هذا الكتاب يعرف هذا اليهودي بمفهوم القومية التركية الطورانية وأهدافها، ونشر باللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية. ومما يقوله فيه: (إن تعبير طوران ليس تعبيراً سياسياً، إنه فقط مثل إيطاليا التي يظن أنها اسم جغرافي وهي بالمثل اسم لاتحاد أتراك العالم الذي سيتحقق ذات يوم). (سيحدث ذات يوم، أن تنهار روسيا التي يعيش الأتراك في أسرها اليوم، ستنهار روسيا كما انهارت من قبل الإمبراطوريات) و «سيرفع الأتراك التاج الذهبي (لجدهم) جنكيز خان فوق صدورهم الملتهبة بالفكر القومي، سيرتفع هذا التاج لأن طوران ليست تعبيراً تاريخياً، إن طوران حقيقية عرقية لأن التركية قومية تعيش حية تتدفق بالحياة» و (أن طوران أكبر من الأناضول بعشر مرات. إن طوران تعيش، لكنها تعيش

تحت مخلب الصين وحذاء الروس. طوران أسيرة وحبيسة! طوران ذليلة ومظلومة! إن أكبر إذلال للقومية التركية ليتمثل في ترك طوران هكذا. إن الواجب الأول والأقدس لكل تركي يدرك واجبه القومي أن يسرع لنجدتها، إنقاذ طوران من التنين الصيني وأظافر النسر الروسي الدامية!).

كان للكتاب تأثير واضح في ضباط الاتحاد والترقي مثل جمال باشا، وأنور باشا بالذات أهاجته فكرة الطورانية، فترك ميادين القتال الرئيسية أثناء الحرب العالمية الأولى ووجه ـ وهو وزير الحربية العثمانية. الجيوش لتحرير منطقة طوران، وكانت النتيجة أن مات بفعل العوامل الطبيعية في شتاء روسيا ثمانون ألف ضابط وجندي عثماني من خيرة القوات العثمانية.

التتريك والكمالية

٣ ـ سياسة التتريك: صدر هذا الكتاب في إستانبول عام ١٩٢٨م، وهو عبارة عن ١٢ مقالاً، وأيضاً لم يذكر اسمه الحقيقي في هذا الكتاب وإنما وضع عليه اسمه المستعار تكين ألب. وعبر فيه موئيز كوهين عن فكره في مسألة تتريك العناصر غير التركية في الدولة العثمانية وهي سياسة اتحادية سابقة لتاريخ النشر. ويبحث الكتاب في الموضوعات الآتية: مهمة التتريك ـ قواعد التتريك ـ غاية التتريك ـ وفائدته ـ من هو التركي ـ مشكلة الأقليات غير التركية ـ سياسة العناصر المحدودة ـ ما هي الأمة يعني الذهنية ـ تتريك الأسماء ـ الضمير المشترك ـ واجب أجهزة الإعلام ـ جاذبية القومية التركية.

ويبدأ موئيز كوهين كتابة هذا ببيان خدماته التي قدمها لجمعية الاتحاد والترقي. ومن الطريف أنه خصص باب «الضمير المشترك» لمخاطبة بني قومه من اليهود المحليين (في الدولة العثمانية) في نداء أسماه بالأوامر العشرة ينصح فيه اليهود أن يمتثلوا لسياسة التتريك، وهذه الأوامر العشرة وهي:

اتخذوا الأسماء التركية مثل الأتراك ـ اليهود تحدثوا بالتركية ـ اجعلوا أدعيتكم في معابدكم ـ ولو جزء منها ـ باللغة التركية. عليكم تتريك

مدارسكم ـ ألحقوا أولادكم بمدارس الدولـة ـ تداخلوا في شؤون البـلاد وخذوا دوركم فيها ـ اختلطوا بالأتراك ـ انزعـوا روح الجماعـة من جذورهـا ـ قومـوا بواجبكم الخاص في ساحة الاقتصاد القومي.

٤ ـ كتاب الكمالية: أصدره موئيز كـوهين في إستـانبول عام ١٩٣٦م، باسم تكين ألب، وصدرت من هذا الكتاب ترجمة فرنسية في باريس عام١٩٣٧م بتقديم وتقريظ الدكتور هيريو رئيس البرلمان الفرنسي، وترجمـة تشيكية صـدرت في براغ بتقديم مدير جامعة براغ.

في هذا الكتاب يقول موئيز كوهـين: (إن الأمة التـركية قـد انسلخت من شـرقيتها لتـأخذ طـريقها إلى الغـرب) و (إن الشيء الذي يمثـل الكمـاليـة ليس أسطورة كما حدث في ماضي الفكرة القوميـة، بل يمثلهـا إنسان من لحم وعـظام يمتلك ديناميكية وحيـوية لا نـظير لها، ليس بـإنسان فقط بـل أنه فـوق الإنسان (يقصد أتاتورك) و «إن الكمالية حركة مستقلة، لا علاقة لها بالحركة القومية التي بدأت من قبل، ذلك لأن أول إجراء اتخـذته الكمـالية كـان: الابتعاد عن نـوع الدين»، و «كانت حركة ضياكوك ألب القومية عبارة عن نوع من التثليث، فقـد كان دستوره هو: أنا أنتمي لثـلاث، الأمة التـركية والأمـة الإسلاميـة والحضارة الأوروبية. أما الكمالية فقد وجهت حملتها الأولى ضد حكم الدين، وقد انهارت هذه السلطة الدينيـة الغاشمـة بضربـة واحدة، وجههـا إليها أتـاتورك. إن رب الكمالية الذي عبدته منذ بدايتها هو: القومية».

(لقد فتـح إلغاء الخلافة مرحلة جديـدة أمام الكمـالية وفي الحقيقـة لا بد قبل البدء في البناء وقبل عملية خلق وطن حديث وأمة حديثة، لا بد من تسوية الساحة التي يملؤها عقبتان رهيبتان هما: السلطنة والخلافة، لم يعد هناك إذن سر قومي يجبر أتاتورك عـلى إخفائـه في صدره. لقـد حل أخيـراً زمن إصدار الأمـر بالبدء في تشييد البناء الجـديد وخلق الـدولة الجـديدة والـوطن الجديـد والتركي الجديد).

وتحت عنـوان (فلتسقط حكومـة الشريعـة) يقول مـوئيز كـوهـين: (كـان

الشعب التركي مجبراً على العيش تحت تأثير القوانين الدينية والشرعية الموجودة في صحراء بلاد العرب. وهذا شيء يبعد عن الثقافة الغربية، ولم يستهن كمال أتاتورك في أي وقت قط بقوة خصمه هذا، حتى أصبحت أنقرة قلعة تحتمي بها الديموقراطية التركية الجديدة (ديموقراطية أتاتورك) ضد هجوم محتمل من الحكم الديني والشريعة وما يأتي معها من استبداد).

(والأمة التركية ـ مثلها مثل كل الأمم الإسلامية الأخرى ـ ترفض كل تجديد يأتيها من ديار غير إسلامية. الحياة على طريقة الكفار (الأوروبيين) وارتداء أزيائهم واتخاذ قواعدهم وعاداتهم لا يعني عند المسلمين إلا إنكار الشريعة المحمدية، حتى أكثر المثقفين الأتراك، حتى أكثر الأتراك تفكيراً بحرية يرون أن ارتداء القبعة ـ وهي الطربوش الأوروبي ـ ما هو إلا إلحاد لا يغتفر. إن شاباً مسلماً كان عائداً من أوروبا خرج من السفينة وهو يرتدي قبعة على رأسه وأبدى شجاعة حين وطأ الأرض الإسلامية وهو على شاكلته هذه. فما كان من الشرطة إلا وأسرعت بالقبض عليه وتحدثت الصحف عن هذا الرجل باشمئزاز بالغ وشدة زائدة. والغريب أن هذه الحادثة قد حدثت والنظام الجمهوري الكمالي معلن). (ومن نافلة القول أن العمامة أخطر من الطربوش. فالعمامة كانت رمزاً. كانت العمامة هي الشريعة نفسها).

٥ ـ كتاب الروح التركية: صدر في إستانبول عام ١٩٤٤م باسم تكين ألب، ويقصد موئيز كوهين من هذا الكتاب ـ كما يقول هو ـ توضيح الصفات الأخلاقية والمعنوية لتلك الروح التركية التي تمكنت من خلق العديد من الإمبراطوريات العظيمة.

ويقول حلمي ضيا أولكن في كتابه «تاريخ الفكر المعاصر في تركيا» إن موئيز كوهين خصص كتابيه الكمالية والروح التركية لعهد أتاتورك وقسم الكتاب الأخير إلى أربعة عهود: الأول عهد الأجداد، ويرى المؤلف أن هذا العهد هو عهد الأبطال الذين أنجبهم التاريخ المشترك للمغول في آسيا الوسطى. والعهد الثاني وهو العهد الإسلامي ويقول عنه موئيز كوهين أن الروح

الإسلامية سحقت الروح التركية، والعهد الثالث يقول أن الروح القومية التي استيقظت نتيجة انقلاب الاتحاد والترقي وإعلان المشروطية قد بدأت في الظهور في إطار الإسلامية والعثمانية، والعهد الرابع عهد الروح القومية الأصلية التي ولدت في عهد الجمهورية الكمالية والتي وجدت التعبير عن نفسها في كل من أتاتورك وعصمت انيونو.

كما علل موئيز كوهين في هذا الكتاب بعض الإجراءات الكمالية مثل اتخاذ أنقرة عاصمة، واتخاذ العلمانية مبدأ، تعليلاً قومياً تاريخياً.

يقول في اتخاذ الكماليين أنقرة حاضرة لتركيا الحديثة: (لم يفكر جنكيز خان في أي وقت أن ينقل عاصمته إلى بكين أو سمرقند، بل كان يفضل البقاء في صحراء قراقوروم الوطن الأصل القديم والبسيط والمتواضع في الاستبس، جنكيز خان (الذي يصوره من أجداد الأتراك) لم يفارق مناطق الاستبس لكنه نشر على العالم روح الاستبس، منحة منه وفضلاً، فهل هناك ضرورة ـ والحالة هذه ـ للبحث عن أسباب أخرى لتوضيح كيفية اتخاذ حكومة تركيا أنقرة عاصمة لهم؟).

وعن تعليله لاتخاذ الكماليين مبدأ العلمانية يقول موئيز كوهين في كتابه «الروح التركية» ما يلي: (مبدأ العلمانية، واحد من الأعمدة الرئيسة في تركيا الجديدة، وهو مبدأ يطابق كل المطابقة النظام السياسي والاجتماعي للأتراك القدماء فيما قبل الإسلام. لم يعط الأتراك القدماء في أي وقت من الأوقات ولا في أي عهد من عهودهم أدنى أهمية للدين في حياتهم العامة، إن الأتراك ـ بالفطرة ـ ليسوا في حاجة ماسة إلى الدين، ولم يكونوا يهتمون أبداً بالعقائد الدينية).

(د)

ثورات

(١) الشيخ بدر الدين بن إسرائيل وثورة الباطنية لاقتلاع الدولة العثمانية.
(٢) جان بردى الغزالي لم يكن بطلاً عربياً.
(٣) عزيز المصري وحلم الثورة.

(١)

الشيخ بدر الدين بن إسرائيل
وثورة الباطنية لاقتلاع الدولة العثمانية

● في ٢٨ يوليو عام ١٤٠٢م، دارت في شمال مدينة أنقرة (عاصمة تركيا الآن) معركة هائلة بين جحافل تيمورلنك بقيادته، وبين العثمانيين بقيادة بايزيد الصاعقة، دارت الدوائر على العثمانيين لأسباب منها أنهم لم يألفوا حرب الفيلة التي كانت تجيدها قوات التتار، كما أن انحياز الجنود المرتزقة العاملين في جيش بايزيد إلى تيمورلنك، بعد أن أمطروا العثمانيين بوابل من السهام في ظهورهم، كان من العوامل التي عجلت بهزيمة الجيش العثماني، ورأى المستشارون العسكريون العثمانيون، ضرورة أن يهرب سلطانهم من الحرب، لكن «الصاعقة» رفض وحارب رغم كل الظروف، حتى أنه استخدم البلطة العسكرية في القتال (تقابل السونكي والسلاح الأبيض الآن) ●

انهزم بايزيد وأسر، لكن تيمورلنك المحارب، قدر قدر أسيره، فأجله واحترمه. لكن بايزيد العملاق العثماني، العظيم الاعتداد بالنفس، والذي لعب دوراً تاريخياً كبيراً في توحيد الأناضول ذي الولايات المتعددة المتنافرة في دولة واحدة، بايزيد الذي رفع راية الجهاد الإسلامي في أوروبا، وحاول فتح القسطنطينية (إستانبول الآن) في حصار دام سبعة أشهر كاملة، أقول: إن

بايزيد لم يستطع تحمل ذل الأسر ـ رغم ما لاقاه من تقدير ـ فمات بعد قليل من وقوعه أسيراً.

كانت واقعة أنقرة نكبة كبرى على العالم الإسلامي عامة، وعلى العثمانيين خاصة، فعلى أثرها انهارت السلطنة العثمانية الفتية انهياراً فجائياً، وبهزيمتها انفصلت عنها كثير من مناطق الروملي وانحل اتحاد الأناضول الذي عمل من أجله العثمانيون كثيراً، وعاش العثمانيون عهد تحلل سلطنتهم وهو عهد استمر إحدى عشرة سنة، سماه مؤرخوهم (فاصلة السلطنة) وقد سجل هذا العهد انهياراً شاملاً في كل مناحي الحياة العثمانية.

ببعض وضوح نقول أن هزيمة أنقرة جعلت السلطنة العثمانية الموحدة، على الشكل الآتي:

* انهيار الدولة العثمانية وتفككها بحيث لم يبق للعثمانيين منها إلا ثلاث مناطق: أماسيا وجوروم وتوقاد.

* تحول الأناضول من دولة موحدة ـ تقريباً ـ إلى إمارات صغيرة مستقلة تذكرنا بملوك الطوائف بالأندلس والإمارات السلجوقية الأناضولية في أعقاب سقوط دولة سلاجقة الروم.

* توقف حركة المد العثماني في أوروبا واستقلال كل من بلغاريا، والأفلاق (في رومانيا الآن)، والصرب (في يوغسلافيا الآن) بعد أن كانوا تابعين للعثمانيين.

* الانهيار الاقتصادي التام والحيرة والقلق يسود البلاد.

* انتشار الأوبئة والأمراض المعدية.

مات بايزيد الصاعقة في الأسر، فبدأ صراع أبنائه فيما بينهم، ولما كان مصطفى بن بايزيد أسيراً لدى تيمورلنك، وكذلك قاسم بن بايزيد أسيراً لدى إمبراطور بيزنطة، فقد انحصر صراع الأخوة الباقين، في كل من:

١ ـ عيسى: وقد أعلن نفسه سلطاناً في بورصة بمساعدة القائد العثماني المشهور تيمور طاش باشا.

٢ ـ محمد: وقد أخذ يسعى لإعادة كيان الدولة العثمانية من جديد (منجم باشي المؤرخ العثماني يطلق على محمد لقب «مجدد الدولة») فيحارب جنود تيمورلنك الموجودين في الأناضول، حاربهم في جبال الأناضول، واستخلص منهم بعض المدن الهامة، وقام محمد باستخلاص أخيه موسى من أسر أمير كرميان، ثم قام محمد بتسليم أخيه العائد من الأسر ـ موسى ـ جيشاً جراراً، ليحارب أخيهما سليمان المتحالف مع إمبراطور بيزنطة ضد أخوته، واستطاع موسى بالفعل هزيمة أخيه سليمان خارج أسوار أدرنة عام ١٤١٠م، وأن يقتله.

٣ ـ موسى: وقد داخله الطمع فتمرد على أخيه محمد الذي أنقذه من الأسر، وفتح له طريق أدرنة.

لكن محمداً استطاع أن يظفر بأخيه وأن يأمر بقتله عام ١٤١٣م.

بداية بدر الدين

كان في جيش موسى، عالم ديني يشغل منصب قاضي العسكر (أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ) وكان هذا العالم يسمى بالشيخ بدر الدين بن إسرائيل.

يقول طاشكوبريلي زاده أحمد في كتابه الشقائق النعمانية ما يلي: «الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل.. المشهور بابن قاضي سيماونه ولد في قلعة سيماونه في بلاد الروم (إحدى قرى أدرنة التي تقع اليوم في الجزء الأوروبي من تركيا) كان أبوه قاضياً بها وكان أيضاً أميراً على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة على يده أيضاً. وولادة الشيخ بدر الدين (كانت) في زمن السلطان غازي خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ العلم في صباه عن والده.. وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى

المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل إلى الديار المصرية.. وقرأ هناك مع (أي زامل) السيد الشريف الجرجاني، على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيلعي، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البابيوردي). وقرأ على الشيخ المذكور (أي تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكي برقوق).

ثم أدركته (أي الشيخ بدر الدين) الجذبة الإلهية، والتجأ إلى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ، وحصل عنده ما حصل (أي أصبح مريده).. وأرسله الشيخ الأخلاطي إلى بلدة تبريز للإرشاد (الصوفي). حكى أنه لما جاء تيمورلنك تبريز.. نال (أي بدر الدين) من الأمير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغاً إلى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر إلى مصر.. ثم إلى حلب ثم إلى قونية ثم إلى تيزة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز (وهو نصراني) فأسلم على يدي الشيخ.. ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصب الشيخ (أي جعل من الشيخ بدر الدين) قاضياً بعسكره ثم أن أخا موسى (محمداً) قتل موسى.. وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق.. (انظر الشقائق النعمانية مخطوط لاله لي بالسليمانية رقم ٢٠٧٦).

والواقع أن السلطان محمد الأول هذا، لم يشأ أن ينتقم من قاضي العسكر الشيخ بدر الدين وإنما «أكرمه لوفور فضله فعين له ألف درهم عثماني في كل شهر وأرسله إلى أزنيق وأمره أن يسكن في قلعته (أي قلعة أزنيق)».

دعوة الشيخ

وفي أزنيق ــ وهي مدينة في تركيا ــ بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن إسرائيل يدعو إلى مذهبه. وتتلخص الخطوط العريضة لدعوته ــ هذه الدعوة

التي نشأت في هذه الظروف العصيبة التي كانت الدولة تجتازها ـ على النحو الآتي، مأخوذة من كتابه «واردات»، والواردات هنا بمعنى الإلهام أو ما يرد إلى الذهن أو الخاطر من أفكار:

* وحدة الوجود: قال الشيخ بدر الدين بنظرية وحدة الوجود، وعمل على نشرها بين أتباعه، وفي كتابه «واردات» يقول الشيخ:

* «الوجود الصرف البحت عند الاطلاق والتقييد بينهما هو الحق تعالى وتقدس ليس بكلي ولا جزئي، إذ الكلية والجزئية باعتبار ثان بالنظر إلى الاشتراك وعدمه وهو مسبوق بالحقيقة من حيث هي حقيقة مجردة عن الاعتبار نظراً إلى الحقيقة من حيث هي، مع قطع النظر عن غيرها وإن كانت لا تخلو عن أحدهما باعتبار ثان».

* «ذات الحق منزه عن الكل والكل فيه وهو في الكل وواجب لا يفارق الوجوب في كل أطواره والإمكان خيال بحسب الصورة. والحدوث والقدم يتعاقبان على الصور وهو منزه مع أنه فيها، فوجود الممكن محدث وخلق باعتبار الصورة».

* «والوجود المطلق هو الله الإله الخالق باعتبار الفعل والتأثير والعبد المخلوق باعتبار التأثر والانفعال».

* «سار في الكل وانصبغ في الكل وهو منزه عن الكل والخسة والشرف والظلمة والكدر يظهر بالمظاهر ويتفاوت بالنسبة إليه وليس في الحقيقة غيره وهو الواحد ولو ظهر بألف صورة».

* الدعوة إلى الزهد المطلق: وذلك بأن يتجرد الفرد من فاخر الثياب ويكتفي بقطعة من الملابس واحدة تستره وأن يسير عاري الرأس وله أن يتخلص من شعره تماماً ويسير حافي القدمين!.

والواقع أن الشيخ بدر الدين جعل ترك الدنيا وعدم الاشتغال بأمورها من أهم ما نادى به ويعبر الشيخ نفسه عن نظرته هذه بالعبارات التالية:

* ترك الاشتغال بالدنيا من أعظم أصول الوصول إلى الحق.

* «اعلم أن العبد ينبغي أن ينظر إلى القرآن ما جاء فيه مما يتعلق بأمور الدنيا ومعاشه وما جاء فيه مما يتعلق بعلوم الآخرة وعلوم الدنيا على تلك النسبة. والقرآن ثلاثون جزئاً وما يتعلق بمعاش الدنيا يكون جزءاً من ثلاثين أو أكثر قليلاً أو أقل، والباقي تسعة وعشرون جزءاً بالتقريب كلها للآخرة، وتنزيل القرآن على هذه النسبة للتنبيه على العباد على أن اشتغالهم بالدنيا والآخرة وكذا اشتغال العلماء بعلوم الدنيا والآخرة ينبغي أن يكون على هذه النسبة والله أعلم وهذا وارد «من واردات الحق على...».

* إنكار الجنة والنار ويوم القيامة والملائكة والشياطين: للشيخ بدر الدين مفهومه الخاص للآخرة وللثواب والعقاب، سجلها في وارداته، فيقول عن الآخرة: «اعلم أن الكون والفساد أزليان أبديان، والدنيا والآخرة اعتباريان، فالظاهر دنيا فانية والباطن عقبي باقية فهما موجودان أزلاً وأبداً، ولكن الاعتبار بالأغلب».

* «وعن الجنة والنار: «اعلم أن الجنة يصح أن يطلق لكل حال ورتبة ومقام شريف دنيا وآخرة، وكذلك النار والحيات والعقارب، والزقوم يطلق على كل حال ومقام خسيس ودنيء والذي يوصف في الكتب ويسمع من الحور والقصور وغيرهما صورة ما قلنا».

وعن الشياطين والملائكة يقول الشيخ: «الملائكة من الملكوت فليس لهم تحقق إلا في ضمن الملك إذ الملكوت باطن الملك فكل بواعث الخير تسمى ملائكة وبواعث الشر تسمى شياطين وأبالسة».

* «كل ما يهيجك إلى الحق فهو ملك، وكل ما يهيجك إلى ما سواه وليس ما سواه فهو إبليس وشيطان، فتقواك التي تبعثك على الميل إليه تعالى ملائكة، وقواك التي تبعثك على اللذات الجسمانية الشهوانية شياطين فأنت مملوء من الملائكة والشياطين والحكم للغالب والجن بينهما».

* «اعلم أن القوى الفلكية والقوى العنصرية وأمثالها هي الملائكة وقول الأنبياء فيهم محمول على ما قلت من القوى لا كما زعم الجهال».

* قوله عيسى المسيح مات جسداً أما روحه فهي الحية:

* «عيسى عليه السلام حي بروحه ميت بجسده العنصرية ولما كان روح الله الروحانية غالبة ولا موت على الروح لأنه لم يمت سوى جسده العنصرية وهو محال فافهم».

* «رأيت سنة ثمان وثمانمائة يوم الجمعة رجلين حضرا بين يدي وعلى يد أحدهما عيسى وهو ميت كأنهما يشيران علي، على أنه عيسى توفي بدنه».

* قصر الشهادة على نصفها الأول:

بمعنى أن تقتصر الشهادة على «لا إله إلا الله» وحذف نصفها الثاني «محمد رسول الله» وكان ذلك طمعاً في ضم اليهود والنصارى إلى الحركة، يقول شكر الله صاحب بهجة التواريخ وهو مؤرخ معاصر لحركة بدر الدين:

«هؤلاء الصوفيون الذين شهدوا بألا إله إلا الله وأصروا على عدم ذكر بقية الشهادة (وهي محمد رسول الله)، هؤلاء المتصوفة قد خصوا شيخهم (أي بدر الدين) بمرتبة النبوة».

يقول الأستاذ محمد شرف الدين أستاذ الفلسفة وعلم الكلام بكلية الإلهيات بدار الفنون (جامعة إستانبول) في كتابه «سماونة قاضي سي أوغلي شيخ بدر الدين» (إستانبول ١٩٢٤م): «إن أتباع الشيخ بدر الدين كانوا يخصون شيخهم بالنبوة حيث لم يكن هناك طريق مختصر لجمع المسلمين تحت رايته إلا التضحية بدرجة النبوة في الشهادة».

أين الشيوعية في فكره

للشيخ بدر الدين عدة كتب في الفقه والتفسير والصرف والنحو، من ذلك: «لطائف الإشارات» و«جامع الفصولين» و«تسهيل» في الفقه. أما في

التصوف فمن كتبه: «حاشية على مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم» و «مسرة القلوب» و «واردات». وفي التفسير: «نور القلوب» وفي الصرف والنحو «عقود الجواهر» و «جراغ الفتوح».

لكن فكر دعوته انحصر أكثر ما انحصر في كتابه واردات.

والمصادر الشيوعية، من دائرة المعارف السوفييتية إلى ملحمة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونة للشاعر التركي ناظم حكمت (إستانبول١٩٣٦م)، تصف دعوة الشيخ بأنها حركة شيوعية إسلامية، ووصفها أحد الباحثين اليوغوسلافيين بأنها «شيوعية محمدية».

لكن الأستاذ محمد شرف الدين يقول: «إن (الشيوعية) في الأرزاق والملبوسات والمواشي والأراضي وما شابهها لم توجد في أي كتاب من كتب الشيخ بدر الدين، كما أن الشيخ لم يلقن هذه الأفكار لأحد، ولم يقل بها أحد من الذين تلقوا الدرس عنه (انظر كتاب محمد شرف الدين السابق الذكر، ص ٦٧).

ويقول الأستاذ حلمي ضيا أولكن أستاذ الفلسفة في كتابه «الفكرة الإسلامية» (إستانبول عام ١٩٤٦م): «لا وجود للفكرة الاشتراكية في فكر الشيخ بدر الدين، ولا في كتابه الفلسفي «واردات» ولا في كتابه الفقهي «جامع الفصولين» لا وجود للفكر الاقتصادي عند بدر الدين إلا جملة واحدة مست الفكر الاقتصادي من بعيد». وهي عبارة وردت في وارداته يقول فيها: «إن الناس يتصورون أنهم يعبدون الله في الحين الذين يعبدون فيه بعضهم البعض ويعبدون الدرهم والدينار والرتبة والمنصب وكذلك المأكل والمشرب». (انظر الفكرة الإسلامية، ص ١٨٨، ١٨٩، كذلك انظر نجدت قورداكول: بدر الدين بكل زواياه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥).

والغريب أن الفكرة الشيوعية ليست موجودة في مصنفات الشيخ الثائر كما أن هذه الفكرة لم ترد في المصادر الأولى التي عاصر مؤلفوها حركة الشيخ

بدر الدين وكتبوا عنها وأرخوا لها، وهم: ابن عربشاه وعاشق باشازاده والمؤرخ البيزنطي الجنوي دوكاس وشكر الله بن شهاب الدين.

كل ما هناك أن دوكاس قال في معرض كلامه عن حركة الشيخ: «إن بوركلوجه مصطفى (أحد أعوان الشيخ) كان يقول: كما أني أستطيع التصرف في أملاكك، فبنفس القدر، تستطيع أنت التصرف في أملاكي وبنفس الشكل الذي أتصرف به أنا».

كما قال دوكاس أيضاً: «إن القروي المذكور (يعني بوركلوجه مصطفى) كان يعظ الأتراك ويبذل لهم النصح وكان يوصي بأن تكون كافة الأشياء مثل الأكل والملبس والحيوانات والأراضي مشتركة بين عموم الناس باستثناء النساء».

ويرد شرف الدين (أوائل العقد الثاني من القرن العشرين) على دوكاس البيزنطي (القرن الخامس عشر) بقوله: «إن توصية بوركلوجه مصطفى بأن تكون كافة الأشياء من مأكل وملبس وحيوانات وأراض، مشتركة بين عموم الناس ثم استثناؤه النساء من ذلك إنما كان ستراً أمام الرأي العام العثماني. فمن المحقق أن الشيخ بدر الدين لم يلقن مصطفى مثل هذه الاشتراكية» (شرف الدين، ص ٦٨).

وحسب الجدول الذي صنفه نجدت يورداكول، فإننا نجد أن إضافة فكرة الاشتراكية والشيوعية إلى فكر هذه الحركة الباطنية الثورية ضد الدولة العثمانية، والتي استندت بدورها إلى كلام دوكاس المار الذكر، لم تبدأ عند المؤرخين المحدثين إلا في تاريخ «أبو الفاروق» الذين صنفه ميزانجي مراد وهو من مؤرخي العثمانيين في العقد الأول من القرن العشرين.

بدايات الثورة

يقول صاحب كتاب هشت بهشت نقلاً عن الشيخ بدر الدين هذه العبارة التي تفسر هدفه من ثورته على الدولة العثمانية: «إني سأثور من أجل امتلاك العالم، وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريديَّ،

بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل ـ باتساع مشاربي ـ بعض المحرمات».

كان الشيخ ثائراً طموحاً، وكانت البلاد في حالة تمزق كامل والفوضى تضرب أطنابها في كل أرجاء البلاد.

قام الشيخ ونادى بأفكاره، وساعده في نشرها، مريدان على درجة كبيرة من الحركة والنشاط. أحدهما يهودي يدعى طورلاق هود كمال، وكان يدعو لفكر الشيخ في منطقة مغنيسيا، والثاني يدعى بوركلوجه مصطفى ويدعو إلى فكر الثورة بالقرب من إزمير، جمعا للشيخ أنصاراً أكثر، وكانت أفكار الشيخ أكثر انتشاراً بين نصارى الدولة بالدرجة الأولى ثم بين اليهود فيها بالدرجة الثانية ثم بين الأتراك. وكان على رؤوس هؤلاء تلامذة الشيخ أثناء ما كان يلقي دروسه، وكذلك الذين أنعم عليهم الشيخ أثناء ما يتنقل في مناصب الدولة حتى وصل إلى درجة قاضي العسكر وهي أعلى الرتب.

أعطى طورلاق هود كمال، إشارة البدء بالثورة، وكان في منطقة مغنيسيا.

وكان الشيخ وقتئذ في منطقة سينوب، وقد تلقى من أمير الأفلاق (في رومانيا) ــ وكان من ألد أعداء الدولة العثمانية ــ عوناً عسكرياً ومادياً، وبناء على ذلك عبر الشيخ فوراً إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن).

يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان: «إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات». (شرف الدين، ص ٦٨).

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوروبية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق

الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول، وبدأ أنصار الشيخ الحركة بجيش يقدر بين ٧ ــ ٨ آلاف محارب.

ولم يكن السلطان محمد الأول بغافل عما يفعله الثوار. أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير الصربي المسلم سيسمان، لكن الثوار هزموه، ثم أرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة الوزير الأعظم بايزيد باشا وكان بصحبته ولي العهد الأمير مراد إلى قتال اليهودي طورلاق هود كمال وكان في ثلاثة آلاف رجل في مغنيسيا فظفرا به وصلبوه، وقام نفس الجيش العثماني بدحر قوات بوركلوجه مصطفى في قرة بورون بمنطقة ايدين بجوار إزمير.

أما السلطان فقد قام بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان، اتخذ السلطان محمد من سيروز (في اليونان الآن) مركزاً لقيادته. أرسل السلطان قواته إلى الشيخ فكسرته، وتوارى الشيخ الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان، فراراً من السلطان.

القبض على الشيخ

وكان ملازماً للشيخ في الأيام الأخيرة من هذه الواقعة، شابان، ينفذان أوامره، ويرعيان كافة شؤونه حتى حازا على كل ثقته.

وذات يوم استدعاهما الشيخ وصرح لهما بنيته في السفر إلى الأفلاق (رومانيا) استصوب الشابان الرأي، وأحضرا عربة بجوادين حمل فيها متاع الشيخ. هبطت الأمطار الغزيرة في منطقة دلي أورمان في ذلك الوقت، فاستبشر الشيخ خيراً وتفاءل كثيراً وركب مع مريديه العربة، ونادى الجميع بالسائق:

ــ إلى رومانيا وبدلاً من أن يتجه السائق إلى الشمال أخذ ينطلق بأقصى سرعة بعد أن غير اتجاه العربة إلى الجنوب. نظر الشيخ إلى مريديه وهو فاغر فاه، وقال:

ــ أنحن على طريق رومانيا؟!.

وجاءه الجواب سريعاً:

ـ لا يا سيدنا، نحن الآن في طريقنا إلى معسكر السلطان محمد!.

امتقع وجه الشيخ وسكت. وصلت العربة إلى مدينة سيروز حيث يعسكر السلطان. نزل الشيخ بدر الدين من العربة.. تقدم منتصب القامة نحو السلطان.

قال السلطان محمد الأول: ما لي أرى وجهك قد اصفر؟!.

أجابه الشيخ قائلاً: إن الشمس يا مولاي، تصفر عندما تقترب من الغروب.

أقيمت مناظرة علمية حرة بين الشيخ بدر الدين وعلماء الدولة الكبار. ثم أقيمت محكمة شرعية، ترك القضاة فيها الكلمة الأخيرة للمتهم نفسه ليصدر الحكم الشرعي الذي يراه. وأصدر الشيخ بدر الدين حكمه بنفسه على نفسه، وكان: الإعدام.

وقال الشيخ حيدر الهروي أن دم الشيخ بدر الدين حلال، أما ماله فحرام، ولم يمس أحد من رجال السلطة ماله لكنه أعدم. أعدم شنقاً على شجرة في مدينة سيروز.

وما زالت بقايا دعوة الشيخ بدر الدين في منطقة دلي أورمان وما حولها حتى الآن متمثلة في أتباعه ـ وهم قلة ـ يطلقون على الشيخ منهم لقب ابن سيماوي، والمريد سيماوني.

(٢)

جان بردي الغزالي، لم يكن بطلا عربيا

● يبالغ الذين يكتبون التاريخ، في مصر وفي سوريا، كثيراً، عندما يمتدحون ـ بالعروبة ـ أبطالاً ينتمون إلى أجناس أخرى غير عربية، لا تربطهم بالعرب أدنى رابطة، غير الدين. ولا أقصد هنا صلاح الدين بالذات، لأنه وإن كان كردياً، إلا أنه كان شافعي المذهب، وهو كالأكراد الشوافع، يُعلون من قدر اللغة العربية، عملياً، ويرفعونها إلى درجة ملحوظة من الإجلال والاحترام، ويستخدمونها لغة للعلم، ويحبونها لغة للحديث أحياناً. لكني أقصد، هنا، هؤلاء الأبطال العسكريين الذين ظهروا قادة في التاريخ العربي وهم غير عرب، من الأتراك والسلاف والشراكسة والألبان وغيرهم.. ●

أذكر ـ على سبيل المثال ـ من هؤلاء الأتراك: ابن طولون (وطولون كلمة تركية معناها: البدر) وقطز (وقطز كلمة تركية معناها: المسعور) وبيبرس (وتكتب أحياناً بايبارس وبايبرس، وهي كلمة تركية معناها: الفهد)، ومن الألبان ـ كما يذكر في المصادر العربية حتى الآن ـ محمد علي باشا، ومن السلاف: جان بردى الغزالي..

جان: بمعنى الروح وبردى، بفتح الباء وسكون الراء، بمعنى أعطى، والغزالي نسبة إلى منية غزال (في الشرقية بمصر)، وكانت ضيعة لتغري بردى الأستادار، وكان جان بردى الغزالي شادا بها.

جان بردى الغزالى، لم يكن عربياً إذن، وإنما كان سلافياً، من خرواتيا[1]

---

(١) خرواتيا هى كرواتيا.

وهي منطقة سلافية تقع الآن في يوغوسلافيا. وكان يتكلم اللغة الخرواتية، ثم وقع في أسر العثمانيين، عندما كان هؤلاء يعملون على فتح منطقة البلقان (التي تسمى في المصطلح العثماني باسم الروملي). كان أسر جان بردى هذا، في زمن بايزيد الثاني (والد السلطان سليم الأول فاتح مصر والشام) ثم أرسل العثمانيون، الأسير جان بردى الغزالي، ضمن مجموعة من لأسرى الأقوياء، هدية إلى السلطان المملوكي، في القاهرة.

ظهر جان بردى الغزالي، بعد ذلك، في التاريخ المملوكي، ضمن العبيد المعتقين الذي أعتقهم الأشرف قايتباي، ثم وصل هذا العبد الطموح، إلى درجة الإمارة، في عهدي السلطان قانصو الغوري، وطومانباي.

الأمير القلق الباحث عن السلطة بأي ثمن

كان جان بردى الغزالي، متقلباً، يتحالف مع المتناقضات، في سبيل الوصول إلى تحقيق طموحه. وأقدم، هنا، أربعة أمثلة رئيسية من حياته:

* **المثال الأول**: كان جان بردى الغزالي من رجال جانبلاط، ووصل في عهده إلى منصب رأس نوبه ثان. ولما قامت الحرب بين جان بولاط، المذكور وبين العادل طومان باي الذي كان متملكاً على بلاد الشام، ترقب جان بردى الغزالي، مجرى الحرب، فلما وجد أن كفة النصر تميل إلى عدو سيده، مال هو إلى هذا العدو، وبالتالي أصبح من رجال العادل طومان باي ومن أعوانه. لكن العادل طومان باي تخلص من جان بردى الغزالي (وكان رأس نوبه ثان وكاشفاً للشرقية)، وسجنه، ونفاه إلى قوص. غير أنه اختفى بعد قليل، حتى قام كل من مصر باي، مع قيت الرجبي بثورة على السلطان العادل طومان باي، فظهر المغامر جان بردى الغزالي، منضماً إلى الثائرين، بعد أن أدرك أن كفة ميزان الانتصار ترجح إلى ناحيتها، وبتلك الثورة اعتلى الأشرف الغوري العرش في القاهرة، وأصبح الغزالي، بالتالي من رجال العهد الجديد، فعُيِّن في محجوبية الحجاب بحلب، ثم انتقل إلى نيابة صفد، ثم إلى نيابة حماة (عام ٩١٨هـ).

* **المثال الثاني**: عندما أدرك جان بردى الغزالي أن العثمانيين قد يفطنوا إلى تذبذب ولائه لهم، خشى أن تضيع مكانته ويضيع منصبه بالشام، وسرعان ما أرسل رسولاً إلى الشاه إسماعيل الصفوي، الزعيم الشيعي في إيران، ليخبره بأن (جان بردى الغزالي يعرض عبوديته) عليه، وتعبير العبودية في ذلك الزمان لم تكن تعني إلاّ عرض طاعته وولائه الكامل، بشرط أن يمده الشاه إسماعيل الصفوي، بجيش يؤازره ضد العثمانيين، على أن يضمن جان بردى الغزالي، تابعية الشام لإيران، وفي رسالة الغزالي للشاه حديث عن أنصار الغزالي في مصر ممن يؤيدونه. ورغم هذا الجهد والولاء من جان بردى الغزالي، إلاّ أن التحالف الصفوي الشيعي ـ المملوكي السني لم يتم. (انظر الوثيقة رقم ٥٤٦٩/١٩، بالأرشيف العثماني، متحف طوب قابو في إستانبول).

* **المثال الثالث**: عندما اقترب العثمانيون من الشام، واضطر الغوري إلى الخروج لملاقاتهم إلى الشام، أدرك جان بردى الغزالي أن النصر للعثمانيين، فلم يلتحق بالغوري ضمن الأمراء الزاحفين معه. ولما قتل الغوري في مرج دابق، واعتلى السلطان الجديد طومان باي، عيّن جان بردى الغزالي لنيابة الشام. ثم وقع الخلاف بين الأمراء المماليك حول تقسيم الوظائف الكبرى، وأدرك جان بردى الغزالي أن هناك منافسين أقوياء عنه ـ وكان أمير الجيش الذي أعده طومان باي للقاء العثمانيين بالشام، وحاصلاً على لقب أمير الأمراء، وكان بعد ذلك قائد المماليك في موقعة غزة ـ إلاّ أنه آثر الوقوف في جانب السلطة القادمة، وهي سلطة العثمانيين الأقوياء، فما كان منه إلاّ أن طلب من زميله خاير بك ـ نائب حلب المملوكي الذي انضم للعثمانيين ـ أن يتوسط له لدى السلطان سليم الأول وكتب جان بردى الغزالي عريضة يطلب فيها من سليم العفو والأمان. وعفا عنه سليم وأمّنه، بل واستقبله في أوطاقه (يعني خيمته) في ٨ فبراير ١٥١٧م (١٦ محرم ٩٢٣هـ) وخلع عليه. ثم أصدر السلطان سليم فرماناً في ٢٥ سبتمبر ١٥١٧م (٩ رمضان ٩٢٣هـ) بتعيين جان بردى، والياً على القدس، وكانت تشمل سناجق غزة وصفد ونابلس، وفي ١٥ فبراير ١٥١٨م، صدر فرمان عثماني بتعيين جان بردى الغزالي لحكم ولاية الشام مدى حياته.

وأصبح جان بردى الغزالي، مغالياً في ولائه للعثمانيين منذ مطلع ولايته على الشام، حتى أنه قتل أمير البقاع ناصر الدين بن الحنش، وبطش ببعض الأمراء المحليين في نابلس، وفي غيرها. وشن حملات عدة ضد بدو حوران وعجلون الذين تعرضوا لقافلة الحج الشامي.

* **المثال الرابع**: عندما مات سليم الأول في ٢١/٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م (٨/٩ شوال ٩٢٦هـ) وصل خبر تولية ابنه السلطان سليمان الذي عرفناه بعد ذلك باسم سليمان القانوني، تصور جان بردى الغزالي أن السلطان الجديد الشاب ليس في قوة أبيه وحزمه، فعقد اجتماعاً بقصره في دمشق مع أنصاره، وتباحث معهم في كيفية التمرد على الدولة العثمانية. وانتهى هذا الاجتماع بإعلان جان بردى الغزالي استقلاله، باسم «الملك الأشرف جان بردى الغزالي»، ومنع اسم السلطان العثماني سليمان بن سليم من خطبة الجمعة بالشام، واستبداله باسمه هو. وأعاد آل الحنش البدو إلى حكم البقاع. وحاصر قلعة دمشق حيث الانكشارية، الموالين للسلطة في إستانبول. ثم سار إلى حلب وأميرها قراجه باشا العثماني.

ولم ينس جان بردى الغزالي أن يكتب إلى الشاه إسماعيل الصفوي في إيران ليحالفه ويقفا معاً ضد السلطان العثماني الجديد. وأرسل رسالة أخرى إلى زميله خاير بك والي مصر من قِبَل العثمانيين، يحثه فيها على الثورة والتمرد ضد السلطان سليمان.

الذي حدث أن خاير بك، أرسل رسالة جان بردى الغزالي كما هي بإضافة رأيه، ومضمونها إلى السلطان في إستانبول، ولم ينس خاير بك أن يعرب عن ولائه المطلق للعثمانيين، وأنه ضد زميله المغامر الغزالي، في تمرده. وهذه الوثيقة محفوظة بالأرشيف العثماني ـ متحف طوب قابو في إستانبول، مع ملحقاتها وقد أطلعنا عليها.

* * *

أرسل السلطان العثماني سليمان بن سليم، جيشين لإنهاء تمرد جان بردى

الغزالي: الأول بقيادة أمير دلقادر وهو علي بك شهسوار أوغلو، والثاني بقيادة فرهاد باشا (ويكتب أحياناً في بعض الكتب العربية فرحات باشا!). وكان علي بك هو الأسرع إلى قلعة حلب المحاصرة، ونجح في أن يفرق قوات جان بردى، الذي اضطر إلى الانسحاب مع قواته، وتراجع إلى دمشق ليستريح وينظم صفوفه.

ولما التقت قوات فرهاد باشا بقوات علي بك واتحدا، اتجها إلى دمشق وكان الوالي المتمرد قد اتخذ مواقعه خارج دمشق.

وفي ٦ فبراير ١٥٢١م (٢٧ صفر ٩٢٧هـ) دارت معركة تسمى في المصادر العثمانية بمعركة المصطبة، انتهت باندحار قوات جان بردى الغزالي، واستطاع هذا القائد المغامر، الهرب مع ثلاثة أشخاص، لكن العثمانيين لحقوا بهم وقبضوا عليهم.

أوثق العثمانيون يدي جان بردى الغزالي، أصعدوه على تل قليل الارتفاع. أجلسوه على ركبتيه. سددوا السيف إلى قفاه، فطارت رأسه، إلى الأرض. وأخذوا الرأس ووضعوها في كيس وأرسلوها إلى القسطنطينية، لإعلام السلطان بانتهاء تمرد القائد المغامر، جان بَرْدى الغزالي: السلافي الأصل، الخرواتي الوطن، الخرواتي اللسان، المملوكي الذي أدّى دوره في خدمة أسياده ـ إن كانوا أقوياء ـ في كل من مصر والشام، والذي كان يتحدث بالخرواتية وبالعثمانية، والذي كان يبحث عن الرياسة والسلطة، حتى مات في سبيلها. ولم يملك من متاع الدنيا شيئاً. ولم يحقق مراده، فلم يصبح ملكاً.

(٣)

عزيز المصري وحلم الثورة

● أحرص كل الحرص في كتابة هذه الكلمة على ألا أتعرض بأي شكل لعاطفة قارئها، سواء كانت هذه العاطفة، دينية أو قومية أو سياسية كما أحرص أيضاً على أن أنبه هنا، أنني لا أقف موقف المؤرخ أو الباحث في التاريخ، بل أني ناقل أحياناً ممن نسميهم بالتاريخ الحي، ومعلق أحياناً، في حدود معرفتي، وفي أحيان أخرى أقف موقف المستفسر. ●

أقول إن عزيز باشا المصري عاش في عهد بلغ فيه الصراع أشده بين أصحاب الفكر الديني، وأصحاب الفكر القومي، الذي كانت نتيجته نجاح الفكر القومي في بلاد المسلمين متمثلاً في تسلم حزب الاتحاد والترقي الحكم وعزل السلطان عبد الحميد. ويكاد يكون معروفاً أن الجيش الموالي لحزب الاتحاد والترقي هذا ويسمى جيش الحركة، خرج من مدينة سلانيك وتحرك إلى إستانبول ليجبر عبد الحميد على إعادة العمل بالدستور، ثم عزلوه بعد حين، وكان هذا الجيش الثوري جيشاً عثمانياً جديد الفكر يرأسه القائد محمود شوكت باشا العربي العراقي وكان له ضابطان شابان هما «أركان حرب» واحد منهما مصطفى كمال والذي عرف بعد ذلك بأتاتورك، والآخر عزيز أفندي والذي عرف بعد ذلك بالمصري. وكان هذان الضابطان الشابان ينتميان إلى نفس الفكر، وكانا صديقين وأذكر أن مصر قد طلبت من حكومة الجمهورية التركية ضباطاً أتراكاً للإسهام في تدريب الجيش المصري، فكان رد أتاتورك: «يكفيهم عزيز باشا» ويقصد بذلك أن ما دام عزيز باشا موجوداً في مصر،

فلا حاجة بمصر إلى خبرة عسكرية أجنبية.

والواقع أنني أضع كلمة (المصري) لقب عزيز باشا، دائماً، بين قوسين. لأنه لم يكن مصري الأصل بل كان جركسياً (وتكتب أحياناً شركسياً) ويتمتع عزيز باشا بكل صفات الشركس: القوة والصلابة والانضباط وسرعة الغضب وكان مع شركسيته وتحدثه بلغته هذه ـ فقد كان ككل متخرج من إستانبول يتحدث التركية بطلاقة، ويتحدث بها في مصر دائماً. يذكر أستاذنا الأديب والشاعر التركي نهاد يازار ـ وكان أستاذاً للغة التركية في جامعة عين شمس بالقاهرة وكان من قبل ذلك مقيماً في مصر ومن خواص عزيز باشا وجلسائه ـ يذكر نهاد يازار، أنه لم يكن يجد في عزيز باشا تمسكاً بمصرية ولا اعتداداً بالتحدث بالعربية.

وقد عين عزيز باشا في أوائل عهد الجمهورية في مصر، سفيراً لمصر في الاتحاد السوفييتي. وفي موسكو، حن إلى قوميته، والقومية مسألة غريزية في الإنسان، فطلب من السلطات السوفييتية السماح له بزيارة أقاربه في بلاد الشركس الخاضعة للاتحاد السوفييتي. وسمح السوفييت لعزيز باشا في ذلك، لاعتبارات كثيرة منها أنه الأب الروحي لثورة ٢٣ يوليو ـ كما قال الرئيس جمال عبد الناصر.

زار الباشا أقاربه هناك، وتعرف إليهم، لكنه أعلن لهم في دهشة تعجبه من تمسكهم بالإسلام، رغم موقف الماركسية من الدين، ورغم تدريس الماركسية في المدارس وفي كل مكان. بكى عزبز باشا (وكان فريقا) بكاء شديداً لأمرين: تحقق الحنين، وتحقق الإيمان. ذلك لأن عزيز باشا كان ـ حتى زيارته هذه التي أتحدث عنها ـ علمانياً وملحداً، فهو ابن الاتحاد والترقي فكرياً وإن اختلف مع أقرانه منهم حركياً.

اتجه عزيز باشا ـ بعد انتهاء مهمته في الاتحاد السوفييتي إلى الإيمان، وكان يصلي ويبكي، ويردد كثيراً الآية القرآنية: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾. كان الباشا يبكي نادماً على مسألتين، رددهما كثيراً على زواره من الأتراك، وفيهم نهاد يازار، وهما: اشتراكه في الثورة العربية الكبرى التي ضربت الترك في المدينة

المنورة من الخلف وغدرت بهم، والأخرى حرمانه من الإيمان فترة طالت كثيراً في حياته.

لم يكن مقر عزيز باشا في القاهرة ملتقى للثوار فقط، ولا للقوميين فقط، ولا للإسلاميين فقط، ولا للملكيين فقط!! وإنما كان ملتقى لكل هؤلاء: ثائرين كانوا أم عاقلين، عصبيين كانوا أم وقورين. مثلاً كان الباشا صديقاً شخصياً للأمير محمود شوكت، الأمير العثماني الذي طرده أتاتورك من تركيا والأمير شوكت كان مرشحاً ليكون ملكاً على فلسطين عام ١٩٤٨م، وكان عزيز باشا مؤيداً لفكرة أن يكون الأمير ملكاً لفلسطين، وأخذ على عاتقه إقناع الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس اللجنة العليا لفلسطين، وجمع عزيز باشا أعضاء هذه اللجنة بمنزله في القاهرة، ليقول لهم إنه يريد هذا وعليهم التنفيذ.

كان الباشا صديقاً حميماً للشيخ أمين الحسيني ــ والرجل معروف بإسلاميته ــ كما كان منزل الباشا ملتقى للضباط الشبان الذين قادوا ثورة مصر عام١٩٥٢م، وبهذه المناسبة أسأل وأستفسر ترى هل عرضت قيادة ثورة الشبان على الباشا، وإذا كان كذلك فهل قبلها وما ظروف هذه المسألة التاريخية؟.

عزيز باشا، كان ثورياً في انتمائه لحركة الاتحاد والترقي، ثم ثورياً في انتمائه للتيار القومي العربي، وكان ثورياً في ليبيا، وكان ثورياً في نبذه لكل هذا وعودته للإيمان، عزيز باشا كان ثورياً أيضاً في تعاونه مع الآخرين. مع العثمانيين، ومع الأتراك، ومع العرب، ومع المصريين، ومع الإنجليز، يعمل مع كل هؤلاء عندما كان يريد وينسحب من التعامل معهم عندما يريد.

استفساري أيضاً يتجه إلى الآتي: هل يمكن الحكم على عصبية الباشا لأنه كان يجيد الانسحاب بعد احتداد التيار الذي يناصره؟ وهل أيد كل ما نادى به حتى النهاية؟ ولماذا؟.

ترى هل يمكن القول بأن الإنجليز استطاعوا استخدام الباشا بنجاح وذكاء، معتمدين على دراستهم لنفسيته؟ أم لا يمكن القول بهذا، ثم ما الدليل؟

ترى كيف تدرج الباشا من رتبة ضابط صغير في جيش الحركة إلى ضابط مشهور فجأة، بل ومن أبرز الضباط العثمانيين، مما جعل قادة الاتحاد والترقي العسكريين، يغارون منه، . . إلى ضابط له مكانته الخاصة في جيش الشريف حسين الذي يؤيده الإنجليز ضد العثمانيين؟ ثم إلى ضابط بالجيش المصري الذي سيطرت عليه قوات الاحتلال الإنجليزي وقتها، والإنجليز كانوا ضد وحدة منطقة الشرق الأوسط تحت القيادة العثمانية بل كانت إنجلترا عاملاً من عوامل انهيار هذه القيادة؟

أسئلة واستفسارات وأضواء، وهناك أسئلة أخرى يمكن أن تضاف إلى ملف عزيز باشا. بل وهناك وثائق كثيرة عن الباشا في كل ساحات عمله، لم تنشر بعد، وقد وعد جمال قوطاي بنشر الوثائق التي عثر عليها بعد بحث، لكنه لم يوف بوعده حتى الآن. وعندما ينشرها ستتغير معارف كثيرة عرفناها عن عزيز باشا، القائد صاحب الشخصية المهيمنة القوية.

(هـ)

مسائل عربية

(١) البكتاشية في مصر.

(٢) نعم: المشرق العربي رحّب بالعثمانيين.

(٣) بدء ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الوثائق العثمانية.

(٤) حادثة طربوش السفير المصري وأتاتورك.

(٥) ادعاء أمير تركي عاش في مصر:
كدت أصبح ملكاً على فلسطين عام ١٩٤٨م.

(١)

البكتاشية في مصر [(١)]

●البكتاشية في مصر: تاريخها وتطورها وتكاياها، موضوعات لم تحظ حتى الآن بأي دراسة. وكل ما نملكه من معلومات ما هي إلا بضع صفحات كتبها اف. دبليو. هاسلوك في مقالته: «التوزيع الجغرافي للبكتاشية». وقد رجع هذا العالم الإنكليزي فيها إلى بعض روايات الرحالة الأوروبيين من الذين زاروا مصر وكتبوا عنها. كما رجع هاسلوك أيضاً إلى معنى استنبطه من سطور وردت في كتاب أس الظفر من تأليف أسعد أفندي. ولا شك أن هذه المعلومات غير كافية.

ونحن لا ندعي أننا سنستطيع إلقاء الضوء بشكل لائق على مسائل البكتاشية في مصر وكيفية دخولها، وشخصية قايغوسز أبدال (وهو ما يعرفه المصريون باسم سيدي عبد الله المغاوري) وهو يعتبر مؤسس الطريقة البكتاشية في مصر ●

إن المعلومات المتعلقة بتاريخ البكتاشية في مصر في القرنين ١٤ و١٥ محدودة للغاية ومختلطة بالمناقب الصوفية، رغم أننا نجد المعلومات في هذا الموضوع في القرنين ١٧، ١٨ قيمة وجديرة بالثقة، رغم تناثرها وعدم كفايتها. وقد حاولنا في القسم الأول إيضاح الصفحة الأولى للبكتاشية في مصر معتمدين

---

(١) بقلم الكاتب التركى: محمد فؤاد كوبريلي، وزير خارجية تركيا في وزارة عدنان مندريس، كتبه فى الأصل بالتركية.

على المناقب البكتاشية ــ ونفس الطريقة اتخذناها في تناولنا لشخصية قايغوسز أبدال (الشيخ عبد الله المغاوري) مع الإفادة التامة من أصول النقد التاريخي، مع العلم بأننا لا نجد حرجاً من الاعتراف بأن النتائج التي خرجنا بها من هذا المقال ما هي إلا فرضية مؤقتة. وهذا النوع من الفرضيات لا بد أن يولي اهتماماً لأنه يمكن أن يكون نقطة بداية للبحث التاريخي مستقبلاً. أما في القسم الثاني فقد عملنا على استخدام الوثائق ــ وهي وثائق ذات ماهية تاريخية بحتة ــ لتسليط الأضواء على وضع البكتاشية في مصر فيما بين القرنين ١٧ ــ ١٩.

إنني غير مشتغل بتاريخ مصر خاصة بالطبوغرافيا التاريخية المصرية، لذلك لم يكن في وسعي تقديم دراسة في مستوى أكبر من هذا في تاريخ البكتاشية في مصر. آمل أن تشكل هذه الصفحات، خطوة متقدمة لأنني كتبتها معتمداً على الوثائق التي يمكن أن تلقى ضوءاً ولو قليلاً على الموضوع.

الأحجار والأشجار تمشي

تقول المنقبة البكتاشية أن «قايغوسز أبدال (= الشيخ عبد الله المغاوري) هو ابن أمير سنجق علائية وكان هذا السنجق تابعاً لأمير تكه. وكان اسم هذا الابن هو غيبي. تذكر هذه المنقبة أن غيبي هذا كان يصطاد ذات يوم فأصاب ظبياً بسهمه. دخل الظبي الجريح أثناء هربه من الصياد باب تكية كبيرة فتبعه غيبي. وسأل الدراويش الموجدين بالتكية عن الظبي فأجابوه بأن ليست لديهم أدنى فكرة عن هذه المسألة. والواقع أن أبدال موسى شيخ هذه التكية هو الذي ظهر في صورة الظبي. ذلك لأن أبدال موسى (وأبدال كلمة تركية بمعنى المجذوب) استدعى غيبي هذا إلى مجلسه وأعطاه السهم الذي كان أطلقه على الظبي وجرحه به. دهش غيبي أمام هذه الكرامة وطلب أن يصبح مريداً لهذا الشيخ، إلا أن الشيخ أوضح له مدى الصعوبات التي تكتنف طريق التجرد الصوفي وأن لا بد من استئذان والده. لكن إصرار غيبي جعل الشيخ يقبل انتسابه، فحلق الدراويش شعر غيبي على أصول الطريقة البكتاشية وألبسوه التاج والخرقة وأعطوه حزاماً يتمنطق به. علم والد غيبي بالأمر فتضايق لأن في

انتساب ابنه حظ من قدره. فتوجه الوالد سريعاً إلى أمير تكه وطلب منه إنقاذ ابنه من يد أبدال موسى، فأرسل أمير تكه أحد أتباعه وهو قيرع أيلي عيسى إلى الشيخ لاقتياده إليه. لكن كرامة الشيخ تسببت في عثرة قدم رسول الأمير في السرج منذ نزوله من على الحصان فوقع وتبعثر جسده أشلاء وهو ينجر انجراراً من الحصان الجافل الهارب، فغضب أمير تكه واحتد وأرسل العسكر على الشيخ ليقبضوا عليه وليحرقوه في نار أوقدوها لذلك خصيصاً.

كشف الشيخ أبدال موسى ما يحدث فقام ومعه ما بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مريد من أتباعه وساروا تجاه أمير تكه وعساكره وهم ـ أي البكتاشية ـ في حالة وَجْد وذكر. سارت الأحجار والأشجار أيضاً معهم ترافقهم حتى وصلوا إلى مكان النيران، فاقتحم البكتاشية النيران وأطفئوها بأذكارهم، ثم رجعوا وأثناء عودتهم إلى تكيتهم، هبط عليهم من الجبل وحش أسود، فقال أبدال موسى: إن هذا الوحش ما هو إلا روح أمير تكه، فقام أحد الدراويش ـ وكان يجمع الحطب إلى التكية ـ بضرب الوحش ببلطته فأرداه قتيلاً. في هذه اللحظة بالذات مات أمير تكه، وتفرقت عساكره. أدرك أمير علائيه ـ وهو والد غيبي ـ بعد مشاهدته لكل هذا، إن أبدال موسى، ولي من أولياء الحق، فسار بجنوده وكانوا نحو ثلثمائة إلى الشيخ، وقبل يده، ورضي ببقاء ابنه مريداً له، وبهذه الصورة خدم غيبي في التكية، مدة أربعين عاماً، حتى منحه الشيخ لقب قايغوسز أبدال (= المجذوب الخالي البال) وأخيراً انتوى المريد الحج، فكتب له أبدال موسى إجازة وسلمها له، ولما لم يجد قايغوسز أبدال مكاناً مناسباً يخبىء فيه ورقة هذه الإجازة قام بتمزيقها ووضعها في اللبن الحامض الذي يشربه ثم أكلها، رغبة منه في تخبئتها، على هذا وجد نفسه يطلق الحِكم من قلبه، وهذه الحكم ما هي إلا القصائد الشافية.

عين له شيخه أربعين درويشاً لخدمته. وبعد سياحة طويلة مع دراويشه، وصل قايغوسز إلى مصر، وكان سلطان مصر في ذلك الوقت أعور، فوضع قايغوسز عصابة قطنية على إحدى عينيه وفعل ذلك دراويشه أيضاً. وركب هذا

الجمع مركباً من دمياط حتى وصلوا إلى مرفأ بولاق عن طريق النيل. وهناك قابلوا حاجب سلطان مصر، ، مصادفة، وجه هذا الحاجب أسئلة إلى قايغوسز فوجد إجابات أعجبته. وقام هذا الحاجب بشرح المسألة إلى السلطان فرغب هذا في امتحانهم فاستضافهم على مائدة عليها ملاعق يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أشبار، وكان من المدعوين إلى المائدة زهاد مصر وعبادها وأمراؤها. علت الوجوه الدهشة عند رؤية الملاعق ولم يستطع أحد أن يأكل، فلما جلس الدراويش على المائدة أخذ كل منهم يملأ ملعقته أكلاً ثم يقدمها إلى زميله الذي يجلس أمامه فيأكل منها ـ لطولها ـ على ذلك أدرك السلطان أن هؤلاء الرجال لا بد وأن يكونوا من العارفين (بالله). زاد الأمر بأن أفصح قايغوسز عن سر وضعه هو ودراويشه القطن على أعينهم وهو أن السلطان أعور. سر السلطان من هذا وأمر بأن ينزعوا القطن ويرمونه جانباً. عند ذلك قام قايغوسز ودراويشه برفع أيديهم بالدعاء، فرد الله البصر إلى السلطان.

أمام هذه الكرامة التي أظهرها هذا الشيخ البكتاشي، لم يسع السلطان إلا النزول من فوق العرش والإسراع إلى الشيخ ليقبل يده وليصبح مريداً له.

ها هي ذي منقبة قايغوسز أبدال ودخلت الكتب التاريخية التي تناولت العهود الأخيرة بالدراسة والتسجيل، بل وصلت إلى كتب الرحالة الأوروبيين التي استفاد منها هاسلوك.

نرى لزاماً علينا هنا أن نسجل عدم ورود اسم أمير علائية ولا اسم أمير تكه، كذلك لم يرد هنا ـ أي في المنقبة ـ ذكر لاسم سلطان مصر، بل إنما خلت المنقبة أيضاً من ذكر السنوات.

إن لطفي بابا يمدنا بمعلومات يقول فيها أن قايغوسز أبدال دخل مصر أول مرة عام ٧٩١هـ وخرج منها في نفس المرة عام ٧٩٦هـ وكان هذا الخروج بهدف زيارة كل من مكة والمدينة وكربلاء والنجف وأبدال موسى، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر عام ٧٩٩، وفي عام ٨٠٦ صار شيخاً في تكية قصر العيني أما

وفاته فكانت عام ٨٤٨هـ. وهـذه المعلومات لـم أرهـا في أي مصدر تـاريخي حتى الآن.

وثائق عن البكتاشية

وإذا استبعـدنا الـروايات البكتـاشيـة جـانبـاً نجـد الآن ضـرورة إيضـاح ما تقدمه لنا الوثائق الموجودة بين أيدينا حول شخصية قايغوسز أبـدال وشخصية أبدال موسى تاريخياً: بـالنسبة لأبـدال موسى تكفينـا ما نجـده في تاريـخ عـاشق باشازاده، وإذا اعتمـدنا عليـه فنقول أن أبـدال موسى هـو أحد مـريدي الحـاج بكتاش ولي (١٢٠٩ ـ ١٢٧١م وهو مؤسس الطريقة البكتاشية)، وأبدال موسى كان محباً لخاتون آنه، وكانت قد أنشأت قبر الحاجي بكتاش، فجاء مـريده هـذا وأقام هناك قليـلاً. واشترك أبـدال موسى في بعض الغـزوات العثمانيـة في عهد أورخان. وأخذ من أحد الجنود الانكشارية قلنسوته ولبسها على رأسـه وعاد بهـا إلى بلده. وفي هذا يقول عاشق باشازاده أن هذه المسألة هي أساس التاج الألفي المشهور عند البكتاشيين.

والـرواية البكتـاشية الخـاصة بسيـرة حياة أبـدال مـوسى قـد جعلت منـه شخصية محلية تنتمي إلى لواء إنطالية (في تركيا). تم اكتشاف قبـره في قريـة تكه على بعد ٣ ساعات من جنوب قصبة المالي، وكان ذلـك في القرن السـابـع عشر ليس هذا فقط. بل إن قبر كافي بابا وتكيته تقـع على بعد ساعة من غرب فنكـه وعلى باب قبره لوحة ترجـع إلى القرن ١٩ منقوش عليها أن كافي بابا هـذا خادم أبدال موسى. وفي نفس المنطقة في المـالي يوجـد بلطه سي كديـك وهو الشخص الذي تذكر منقبة قايغوسز أبدال أنه الذي قتل الوحش الأسود ببلطته. كل هذه التفصيلات تبين لنا أن الروايـات الخاصـة بأبـدال موسى ومـريديـه تتمركـز على الأكثر في هذه المنطقة المذكورة. إن هذه المسألة خطيرة وتتجلى هـذه الخطورة إذا وجهنا تفكيرنا إلى أن هذه المنطقة كانت مركزاً مهماً وعريقاً للشيعة الباطنية، وأن هذه المنطقة بالذات كانت مكاناً مكتظاً بالعشـائر التـركمانيـة وهي أكثر العشـائر ارتباطاً بهذا النوع من العقائد.

وإن الفرضية القديمة القائلة بأن ظهور البكتاشية كان في النصف الثاني من القرن ١٥ قد تغيرت تماماً بموجب الوثائق الجديدة التي تم العثور عليها مؤخراً. وبناء على ذلك لم يبق هناك سبيل ينفي اعتبار أبدال موسى بكتاشياً. ولا يمكننا البت بصورة قطعية في نسبة بعض الكتب لأبدال موسى والتي ينسبها البكتاشيون إليه.

والمعلومات المتعلقة بشخصية قايغوسز أبدال، تعتمد في أساسها على الروايات البكتاشية والأمر هنا يختلف عما في السابق فبفضل ما هو موجود بين أيدينا من أدبه شعراً كان أو نثراً، نستطيع التعرف على شخصيته الحقيقية. بعض القصائد التي نظمها قايغوسز أبدال تدلنا على انتسابه إلى أبدال موسى، ويتضح من هذا أن الرواية البكتاشية في هذا تطابق الحقيقة التاريخية، إن المخطوطة المستنسخة من كتاب ديلكشا بتاريخ ٩٠٠هـ، وإن منظومة في كتاب جامع النظائر لتظهر أن قايغوسز أبدال رجل عاش في أواخر القرن ١٤ والنصف الأول من القرن ١٥م. إن لقايغوسز أبدال مقام في مناستر (في يوغوسلافيا) وهناك بعض الروايات والمناقب عنه. لكن هذا لا يدعو للبحث عن أساس تاريخي لهذا نظراً لوجود العديد من الأمثلة الشبيهة بهذا في تاريخ الأديان خاصة بعد معرفة أن الأمر لا يعدو ذيوع شهرة قايغوسز أبدال في تلك الجهات.

لا تسعفنا المصادر التاريخية بأي معلومة عن رحلة قايغوسز أبدال إلى مصر، ولا عن انتشار البكتاشية في الديار المصرية، ولم أجد أي معلومة في مصادر تاريخ مصر الرئيسية وبالذات المقريزي على سبيل المثال، عندما يتحدث عن التكايا المختلفة في القاهرة، لا يتحدث عن التكية البكتاشية إلا أن انعدام المعلومات في المصادر التاريخية ــ بل حتى إذا لم نجد هذا مستقبلاً أيضاً ــ لا يمنع البتة من وجود هذه المسألة تاريخياً أي لا يمنع هذا كله من سفر قايغوسز إلى مصر ونشره للبكتاشية هناك. ويحتمل أن تكون البكتاشية قد استقرت في مصر في السنوات الأولى من القرن ١٥م لأن مصر ترتبط دائماً

بالأناضول بعلاقات ثقافية تراثية خاصة، وإن مصر كانت تحافظ دوماً على ارتباطاتها بالمراكز التجارية الأناضولية مثل أنطاكيا وعلائية بوجه خاص. وإذا أمكننا إدراك تفوق العنصر التركي في مصر على عهد المماليك ووصول هذا العنصر إلى موقع هام، وإذا أدركنا أيضاً معرفة أهمية اللغة التركية وأهمية أدبها في مصر في ذلك العهد فإن من الممكن القول بقيام منظمة بكتاشية في مصر تضم دراويش من الأتراك.

الانكشارية والبكتاشية

بعد الفتح العثماني لمصر، كان من الطبيعي جداً أن تكسب الطريقة البكتاشية أهمية خاصة، فالعلاقة بين أوجاق الانكشارية وبين البكتاشية كانت تتيح لهذه الطريقة في مصر أن تكون مرادفاً للحاكمية العثمانية، فإن الإدراك الطبيعي للأمور يتمثل في أن افتتاح التكية البكتاشية في مصر في القرن ١٦ مسألة تلقائية وطبيعية، إلا أن التفوق لم يكتب للبكتاشية في مصر نتيجة لتنافس الطرق الصوفية المحلية وهي طرق ذات جذور قديمة في البلاد مثل الطريقة البدوية (نسبة إلى أحمد البدوي)، مع أن البكتاشية كانت تستطيع أن ترسي لها أسساً في الأماكن القابلة لإبراز نشاط تبشيري (إسلامي) قوي بين العناصر غير المسلمة والأمثلة على ذلك بلدان. «مقدونيا وتساليا وكريت، وكذلك بين عشائر التركمان الرحل، أما في مصر فالعكس هو الصحيح لأنه لا يوجد فيها وضع مماثل لما في هذه البلدان، لذلك كانت البكتاشية لا تجد لها أنصاراً في مصر إلا بين البلقانيين والأتراك على الأكثر وهم الذين وفدوا إلى الديار المصرية من مختلف أماكن الإمبراطورية العثمانية، رغم أن الشيخ إبراهيم الكلشني، المعروف قد أضفى على الطريقة الكلشنية في مصر وضعاً قوياً أثناء وجوده في مصر في السنوات الأخيرة من الحكم المملوكي فيها. ونحن نعرف أن الأتراك ينتسبون إلى الشيخ إبراهيم الكلشني بدرجة كادت فيها الإدارة العثمانية أن تصاب بالقلق. ووصل الأمر إلى أن الولاة العثمانيين الجدد حاولوا بشدة منع من في معيتهم من الانتساب إلى الطريقة الكلشنية إلا أنهم فشلوا في ذلك على

هذا يمكننا التخمين بأن البكتاشية في مصر كانت في القرن ١٦ في وضع ذابل. أما في الأساس، فلا توجد بين أيدينا وثيقة صريحة عن البكتاشية في مصر في هذا القرن.

أما في القرن السابع عشر، فإننا نجد معلومات صريحة عن البكتاشية في مصر في رحلة أوليا جلبي (الجزء الخاص بمصر) يروي هذا الرحالة (التركي) أنه كان في مدينة مصر ويعني بذلك القاهرة ١٠٦٠ تكية منها ٢٠٠ تكية خاصة بمريدي السيد أحمد البدوي. ويسجل لنا أوليا جلبي وجود أربع تكايا بكتاشية في القاهرة، هي:

١ ــ **تكية حسن بابا**: في التراث البكتاشي أن حسن بابا هذا كان حاملاً لعلم النبي، والتكية عبارة عن بناء صغير تعلوه قبة صغيرة ويقع بين غرف العزب وأصبحت ــ من بعد ــ تكية بكتاشية يعيش فيها أربعون درويشاً، ولها تعيينات من مطبخ تكية العزب.

٢ ــ **تكية قايغوسز بابا**: وكانت تقع بالقرب من باب قاضي العسكر في مصر بمكان قريب من بين القصرين، وكانت تكية مظلمة بابها مفتوح ولم تكن كبيرة بدرجة تذكر، كما لم يكن لها أوقاف. وكان يعيش فيها عشرون درويشاً تقريباً، يعيشون على الصدقات، وبالتكية مكان واسع (لحلقات الذكر) وبها أيضاً مقبرة، وكان دراويشها يقدمون للضيوف بعد الصلاة من كل جمعة لحم الغنم والأرز بالزبادي.

٣ ــ **تكية عبد الله الأنصاري**: وكانت داخل قصر المقابلجي في القلعة الداخلية العليا. والمتصرف فيها عدة دراويش بكتاشية.

٤ ــ **تكية قصر العيني**: يقول أوليا جلبي أن هذه التكية كانت أهم تكية بكتاشية في مصر، وكانت تقع في متنزه معروف باسم قصر أبي العين بيبرس على شاطىء النيل، ونقتبس هنا أهم معلومات أوليا جلبي: تقع هذه التكية وسط متنزه قصر أبي العين وهي بناء له قبة عظيمة. ميدانها (مكان

الذكر الصوفي) مزين بالرخام ويتسع لألف رجل والجوانب الأربع لهذا مفروشة بجلود الخراف ويجلس الشيخ محمد دده تحت المحراب وبجواره بأقل من درجة يجلس خليفته الكبير.

وعلى الجوانب الأربعة من البناء نوافذ بمشربيات من النحاس الأصفر، يبدو من خلالها المنظر الخارجي للبناء وكأنه حديقة أسطورية، ويظهر بالخارج مدفن لبعض الشيوخ البكتاشيين، وتحيط بالقبة وعلى شكل مسبحة مجموعة عظام من الأغنام المذبوحة في التكية. إن الدراويش يرجون بعض القادمين إليهم أن يقدموا قرباناً من الأغنام أو الماشية ويقولون له: «أيها العاشق (لطريقتنا) يجب أن يكون لك في هذه التكية عظام أضحية تعلق بالقبة».

في رواية (صوفية بكتاشية) أن السلطان سليم (الأول) كان قد جاء إلى مصر قبل فتحه لها زائراً رحالة، فنزل ضيفاً عدة ليال في هذه التكية، ولما أراد العودة إلى بلاده قال أنه سيعود مرة أخرى. وبعد أن فتح مصر، أوفى بعهده، وحضر إلى التكية ومعه رجال بلاطه أصحاب الغرف الخاصة (رتبة عثمانية) ونزلوا بالتكية ضيوفاً سبع ليال.

هذه هي أهم وثيقة لدينا عن البكتاشية في مصر في القرن السابع عشر. وهنا يثور سؤال هام هو: ترى في أي وقت كانت تكية قصر العيني تكية بكتاشية؟ تقول الروايات البكتاشية السائرة في مصر أنه تم إنشاء هذه التكية في عام ٨٠٦هـ خصيصاً لقايغوسز أبدال، مع أننا نفتقر إلى الوثائق وإلى المادة المؤيدة لهذه الروايات. وأبرز دليل على كلامنا هذا أن الرحالة التركي أوليا جلبي لم يذكر في معرض حديثه عن هذه التكية أي معلومة عن قايغوسز، بل أنه يتحدث عن تكية أخرى على أنها تكية قايغوسز بابا. وعلى ذلك فلا يوجد أدنى علاقة البتة بين تكية قصر العيني وبين شخص قايغوسز أبدال، ولو كانت هناك رواية عن هذا سائرة بين البكتاشيين في مصر في القرن ١٧ لسجلها ــ بالتأكيد ــ أوليا جلبي، ومع هذا فقد كانت في القاهرة تكية أخرى للبكتاشيين في ذلك القرن تحمل اسم قايغوسز، تمركزت فيها منقبة قايغوسز،

وبعد أن أزيلت هذه التكية ـ فيما بعد ـ أسندت منقبة قايغوسز إلى تكيـة قصر العيني أشهر تكية بكتاشية بالقاهرة.

إحراق الضيف

يقول أسعد أفنـدي مؤلف كتاب أس الـظفر وهـو كتاب يحـوي إسنادات متشددة ضد البكتاشيين. ما يلي: «استولى البكتاشيون على المـراقد والـزوايا التي تحمـل أسماءهم، وادعـوا أن ألقابهم مثـل لقب سلطان ولقب بـابـا هي ألقـاب بكتـاشية». ويقـول المؤلف أن التكية الـواقعة عـلى ضفة النيـل في القصر العيني تخص العيني شارح البخاري، وأن البكتاشية استـولوا عليهـا وادعوا أنها خـاصة بمن يسمى عيني بابا، وأن هذا الاسم موهوم، ويعترف أسعـد أفندي نفسـه أن إسناد هذه التكية إلى عيني ليس له أساس تاريخي وإنما مسندهم فيه هو الروايات الشعبية. ثم أن غيبـي بابا موضوع الحديث في الرواية البكتـاشية هـو قايغـوسز وليس عيني بابا (كما يدعون) على هذا يمكن فهم التشابـه بين قصر العـين وعيني وغيبـي قد أوقـع المؤلف في الخطأ. والنتيجة الوحيـدة التي تخرج بهـا من حديث أسعد أفندي أن تكية قصر العيني التي لم يهتم بها بكتاشيو مصر في القرن ١٧ قد أخذوا في نسبتها إلى قايغوسز في رواياتها في القرن العشرين. وكما ذكرنا من قبل فإن هذه الرواية وهي مغايرة للتاريـخ ما زالت حتى الآن مستمرة بين البكتاشيين في مصر. وفيما يلي ما يؤيد هذا الأمر.

عن الشيـخ المولوي المشهور ثاقب دده صاحب كتاب السفينة في مجموعـة مناقبه معلومة عن البكتاشيـة في مصر في أواخر القـرن ١٧ عن واقعة حـدثت له أثناء زيارته لمصر في تكية قايغوسز: زار ثاقب دده أثناء مقامه في مصر عدة تكايا وقابل مشايخها، وزار تكية قايغوسز بالقاهرة عدة مرات ونزل بهـا ضيفاً. قـابله البكتاشيون بكل تكريم وحفاوة. وذات يوم دعوه فذهب إليهم وكان للبكتاشيين عادة غريبة وهي أن يحرقوا في فرن التكيـة في ليلة معينة من ليـالي السنة الضيف الأجنبـي الذي يحل عليهم وبهذا يعتقدون أنهم ينتقمـون من اليزيـديين. وجـاء ثاقب دده الذي اختاروه ضيفاً عليهم تلك الليلة. وكان في التكية درويش قديم

يعيش فيها منذ ثلاثين أو أربعين سنة. واعتاد منذ سنوات ألا يتحدث إلى أحد قط إلا أنه سمع إخوانه الدراويش وهم يتحدثون في أمر ثاقب دده. وقبيل المغرب وفي لحظة خلا فيها المكان إلا من ثاقب دده وهذا الدرويش أسر الأخير له بالأمر وأوصاه بالهرب. ارتعد الشيخ المولوي خوفاً وخرج من المكان بحجة تجديد وضوئه ثم جرى في هلع شديد نحو التكية المولوية (نسبة إلى مولانا جلال الدين الرومي) فوصلها في أذان المغرب. وجد البكتاشيون أن ضيفهم تأخر فحملوا العصى وساروا يبحثون عنه حتى أشرفوا على أطراف المدينة، ثم رجعوا ولم يدركوه.

يبدو أن المؤلف وقد نقل القصة عن والده أنه صدقها لذا يعقب على ذلك بقوله: إن أشياء من هذه القبيل لم تكن موجودة في البكتاشية لكن الزنادقة العجم منذ عهد الشاه إسماعيل انتسبوا إلى هذه الطريقة فأفسدوها ثم انضم إليها الأتراك الجهلاء فأكثروا فيها الفساد، وأن الحاج بكتاش ولي لينزعج من هذا. حتى المجاذيب أطلقوا على أنفسهم اسم البكتاشيين.

لم يقل أحد بعادة إحراق البكتاشيين لضيفهم، حتى أعدى أعدائهم لم يفتروا عليهم بإسناد كاذب هكذا. على هذا يمكن بشكل قطعي أن نفهم أن ثاقب دده أو ابنه قد لفق هذه الحكاية الكاذبة، ليوقظوا خصومة ما وعداء تجاه البكتاشية. ومع هذا فإن كذب هذه الرواية لا يمنع أن نفيد منها كوثيقة تاريخية. فبداية نفهم أن المؤلف وقد كتب بين عامي ١١٤٨ ـ ١١٩١م يصف التكية بمصر على أنها «تكية قايغوسز بابا» وبذا يورد استمرار الرواية البكتاشية القديمة حتى القرن الثامن عشر أيضاً. ثانياً: إن هذه الحكاية تؤيد المعلومات التي أوردها أوليا جلبي ولذا فلا بد أن تكون التكية على أقوى احتمال تكية قايغوسز التي حدثنا عنها الرحالة التركي وليست تكية قصر العيني. ونجد في القرن ١٩ معلومات هي التي ذكرها لطفي بابا وتنص على أن تكية قصر العيني بقيت في حوزة البكتاشيين حتى ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م هذا التاريخ تم إخراج شيخ التكية وهو إسماعيل بابا القربانجي البوسنوي مع ست وعشرين من

دراويشه منها ونزلوا ضيوفاً في قصر إسماعيل سزي باشا المناسترلي، وبعد تسعة أشهر سافر هؤلاء الدراويش إلى المدينة، ولم يبق مع إسماعيل بابا غير درويش واحد هو صادق. مات إسماعيل بابا في أواخر عام ١٢٥٠هـ أي ١٨٣٥م، فترك الدرويش صادق مصر إلى بيرأوي. وفي عام ١٢٦٨هـ يعني ١٨٥١ ـ ١٨٥٢م عاد الدوريش صادق إلى مصر بعد أن أصبح بابا. أجازه علي دده الساعاتي. اشترى صادق بيتاً في مكان يدعى باب اللوق وعاش فيه. وعام ١٢٨٢هـ أصبح علي بابا شيخاً لتكية المقطم الحالية، وكان ذلك بأمر من الخديوي إسماعيل باشا.

هذا ما يعرفه بكتاشيو مصر اليوم عن تاريخ البكتاشية في مصر القرن ١٩، وليس هناك بين أيدينا وثائق صريحة عن صحة هذه المعلومات وإن ظهر في كتاب العالم الإنكليزي هاسلوك أن تكية قصر العيني موجودة في حوزة البكتاشيين عام ١٢٢٣هـ أي ١٨٠٨م وأنها كانت تعرف باسم تكية قايغوسز بابا، وإسناد تكية قصر العيني إلى قايغوسز إنما كان بعد إندراس تكية قايغوسز بابا في القرن ١٨ والتي تحدث عنها أوليا جلبي وذكرناها سابقاً.

أما عن التكايا الأخرى التي تحدث عنها أوليا جلبي فنفهم أنها قد اندرست في القرن الثامن عشر غالباً. وأن بكتاشي مصر قد تركزوا غالباً في تكية القصر العيني.

في منظومة في ديوان نظمه كليسلي عشقي عام ١٢٧٤هـ قال الشاعر أنه أسكت بعض البكتاشيين في مصر وأفحمهم أثناء مناظراته لهم. بجانب هذا نجد أن رسالة ويراني بابا المشهورة طبعت في القاهرة عام ١٢٩٠هـ بواسطة بكتاشي يدعى وهبي بابا. إن هاتين المسألتين لدليل على أن نشاط البكتاشيين في مصر لم يكن شيئاً قليلاً، خاصة وأن بناء تكية المقطم عام ١٢٨٨هـ للبكتاشيين. ليعتبر عهداً جديداً لطريقتهم في مصر بعد فترة خمول واضح عقب فقدهم لتكية قصر العيني. على كل حال نستطيع القول بأن البكتاشية في مصر قد عاشت في القرن ١٩ عهداً عصيباً مظلماً يتناسق مع سياسة اقتلاع جذور البكتاشية بشدة

وهي السياسة التي طبقها السلطان محمود (الثاني) ضد البكتاشيين عقب إلغائه للإنكشارية عام ١٢٤١هـ في الديار العثمانية، ثم أخذت البكتاشية في الظهور المتأنى بين عامي ١٢٦٨ و ١٢٨٢هـ. وأخيراً وفي عام ١٢٨٢هـ دبت الروح فيها مرة أخرى بعد أن تعهد الخديوي إسماعيل باشا بحمايتها. إننا نرى نفس التطور تقريباً يحدث في تركيا أيضاً.

عن التكية البكتاشية الموجودة في أعلى القلعة الداخلية في المقطم، يقدم هاسلوك معلومات قليلة معتمداً فيها على الرحالة الذين زاروا مصر في العهد الأخير «تقع التكية فوق التل ويمكن ملاحظتها من بعيد بكتلة الأشجار الخضراء الكثيفة أمامها. وهي تكية أنشأها حديثاً الخديوي إسماعيل وبعض الأميرات. وظهر الميدان الخاص بطقوس المنتسبين إلى التكية نجد في أعلى التكية بقليل حوشها وهو صغير يؤدي إلى محجر يدخل أكثر من ٢٠٠ قدم من سطح البحر في داخل صخرة ثم طريق مدخل مفروش بالحصير ومغطى بغطاء خشبي سياجاً يمتد إلى أقصى غرفة حيث تجد الشيخ عبد الله المغاوري مدفوناً وهو قايغو سز سلطان».

أصاب هذه التكية الدمار بسبب انفجار في مخزن الذخيرة في ٢٩ سبتمبر ١٣١٩م إلا أن بناءها قد أعيد من جديد عام ١٣٢١م، وبعد ذلك وببعض العلاوات المختلفة اتخذت شكلها الحالي، لكن هاسلوك لم يحدثنا عن حادث هذا الانفجار وفي ديوان الشيخ البكتاشي المشهور محمد علي حلمي بابا تاريخ يسجل إعادة إنشاء التكية وبنائها.

(٢)

الوثائق العثمانية تقول:

نعم، المشرق العربي رحّب بالعثمانيين

● هل رحّب العرب بالحكم العثماني؟ هل قاوموه؟ كيف نظروا إليه؟ هل أبغضوه؟ هل أحبوه؟ كيف كانت رؤية العرب للعثمانيين؟ غزاة؟! فاتحين؟ منقذين؟! مستعمرين؟ هل كانت الرؤية العربية لهم مثل رؤيتهم للفرنسيين؟! عندما دخلوا مصر، أم للفاطميين عندما حكموا البلاد المصرية؟! أم للصليبيين وقت أن أسسوا كياناً في بلاد الشام، قام وانتهى؟ أم هي مختلفة عن هذا وذاك؟ ●

كل هذا وغيره يثار في مؤتمرات علمية دولية، وفي ندوات علمية محلية، وفي المجلات بمختلف جمهورها، بل وفي الصحف كذلك.

وأذكر، هنا، أن ندوة من ندوات التاريخ بإحدى الجامعات المصرية، كانت تناقش ـ فيما تناقشه ـ مدى الشعور الشعبي العربي، في استقبال الحكم العثماني، وقال أحد الأساتذة أننا نعلم أن المغرب العربي هو الذي رحب بمقدم العثمانيين، وهم أهل المغرب العربي، هم الذين أرسلوا إلى السلطان سليمان القانوني، سلطان الدولة العثمانية، وثاني الخلفاء العثمانيين، عريضة ـ نشرها الدكتور عبد الجليل التميمي في المجلة التاريخية المغربية ـ يحثونه فيها على قبول الدولة العثمانية أن ينضم المغرب العربي إليها، وقال القائل وقتها، لكن المشرق العربي لم يرحب بالعثمانيين، وسأل سؤالاً استنكارياً فقال: هل رحب المشرق العربي بالعثمانيين؟!.

وأقول: نعم! المشرق العربي أيضاً، رحب بالعثمانيين، مثلما رحب بهم المغرب العربي، وأزيد ـ هنا ـ فأقول: إن ترحيب المشرق العربي بالعثمانيين لم يكن قبيل قدوم الحملة العثمانية إلى الشام ومصر، بل قبلها بكثير. عندما أراد الشعب المصري، الانضمام إلى ما اعتبره الوحدة الإسلامية في ظلال دولة قوية تتمسك بالإسلام.

أبدأ مقالي، بعد هذه المقدمة، بأنه كما كان المغرب العربي ينتظر المنقذ له من الظلم الأوروبي وخطر الاعتداء الصليبي على الكيان المغربي من أرض وأرواح وممتلكات وعرض ودين، وتبلورت صورة هذا المنقذ، في الدولة العثمانية، فالمشرق العربي أيضاً كان ينتظر ـ قبل المغرب العربي ـ المنقذ له من جبروت الدولة المملوكية وظلمها وتعطيلها الأحكام الشرعية، وكان هذا المنقذ متمثلاً في الدولة العثمانية، التي كانت تسعى منذ قيامها، إلى قيام وحدة إسلامية.

قال عبد الله بن رضوان في كتابه: تاريخ مصر (مخطوط رقم ٤٩٧١ بمكتبة بايزيد في إستانبول) إن علماء مصر (وهم نبض الشعب المصري وممثلوه) يلتقون سرّاً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه (شكواهم من جور الغوري) ويقولون له بأن الغوري (يخالف الشرع الشريف) و (يستنهضون عدالة السلطان العثماني) لكي (يأتي ويأخذ مصر).

وقال يانسكي في كتابه عن السلطان سليم الأول، إن علماء مصر كانوا يراسلون السلطان سليم الأول منذ بداية توليه عرش بلاده، لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولي عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك).

أما عن الجانب الشامي من المشرق العربي، فإننا نرى ترحيب الشعب السوري هناك بمقدم العثمانيين، قبل قدومهم الفعلي، وعلى سبيل المثال، كان الغوري قد تحرك من مصر ـ بجيوشه ـ إلى الشام لملاقاة العثمانيين، وعند دخوله إلى حلب، فوجىء الغوري وجيوشه بأن الأهالي هناك لقنوا أطفالهم صيحة: (ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم).

وفي حلب أيضاً، اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الرأي مع الشعب، وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السوري ضاق (بالظلم المملوكي) وإن حكام المماليك (يخالفون الشرع الشريف)، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه إلى عينتاب ـ البعيدة عن حلب ـ ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولا من عنده، وزيرا ثقة، يقابلهم سراً، ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس.

هذه العريضة، موجودة محفوظة، في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في إستانبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦). ونظراً لأن الذين كتبوها لم يكونوا ـ فيما يبدو ـ على دراية كافية باللغة العثمانية، التي أرادوا أن يخاطبوا بها السلطان العثماني، جاء أسلوبها ضعيفاً فيه ركاكة، وإننا إذا استثنينا السطور الأولى من هذه العريضة الوثيقة، لأن بها أسماء العلماء والقضاة والأشراف، وإذا بدأنا قراءة هذه الوثيقة العريضة، بعد ذلك، نجد أن ترجمتها من العثمانية إلى العربية كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ إلى مولانا السلطان عز نصره. . .

يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم ـ طواعية ـ لمولانا السلطان عز نصره ـ وبإذنهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل إلى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم. يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح لنا بالاطمئنان في طلب الأمان لأرواحنا وأموالنا وعيالنا، فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقبالكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خَلِّصْنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضاً من يد الكفار، قبل

حضور التركمان، وليعلم مولانـا السلطان، إن الشريعـة الإسلاميـة، لا تأخـذ مجـراهـا، هنـا، وهي معـطلة، إن الممـاليـك إذا أعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالاً أو نساء أو عيالاً، فالرحمة لا تـأخذهم بـأحد، وكـل منهم ظـالم. وطلبـوا منـا رجـلاً من ثـلاثـة بيـوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا، (ونريد) قبل أن يـذهب التركمـان أن يقـدم علينا وزيـر من عندكم أيهـا السلطان صاحب الـدولة، مفـوض بمنـح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، أرسلوا لنا رجلاً حائـزاً على ثقتكم يـأتي سراً ويلتقي بنـا، يعطينـا عهد الأمـان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقـراء، وصـلى الله عـلى سيدنا محمد وعلى آله أجمعين».

(٣)

تقرير رسمي عثماني عن:

بداية ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

●في مكتبة السلطان عبد الحميد الثاني في إستانبول، تقرير رسمي مخطوط، باللغة التركية العثمانية، كتبه أحد الأمناء بالقصر الحاكم العثماني، عن جزيرة العرب. ويبدو أن هذا التقرير قد كُتب لإطلاع السلطان وإحاطته بمعلومات عن الجزيرة العربية، للاسترشاد بها. كاتب التقرير هو: محمد كامل بن نعمان المعروف بابن درامي الحمصي، الأمين الخامس في (المابين) العثماني، وتاريخ التقرير: ٢٧ رمضان عام ١٣١٢هـ، ويقع في ٨٢ ورقة أي ١٦٤ صفحة، ويحتوي على معلومات هامة أساسية ومتنوعة، وخرائط دقيقة. ●

يتضمن هذا التقرير الرسمي العثماني معلومات عن جزيرة العرب من ناحية: التاريخ، والجو، وطبقات الأرض، والمعادن، والمحصولات، وطرق الحج، والسكة والنقود المستعملة، والأوزان، وعادات البدو، وملابسهم، وأصول تعاملهم، وأعرافهم، والحالة الصحية بين البدو، وتفاصيل عشائر العرب، وظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والصراع بين آل سعود وبين الحملة المصرية على نجد، ووصف دقيق لنجد، ودراسة شاملة للعرب: أصولهم، وأدبهم الجاهلي، والإسلام، وعرض للتاريخ الإسلامي حتى عهد كتابة التقرير، والمؤسسات الخيرية التي أقامتها الدولة العثمانية في جزيرة العرب.

في الجزء الخاص بالدعوة السلفية، في هذا التقرير، يتعرض محمد كامل بن نعمان الحمصي، كاتب التقرير، إلى بدء ظهور دعوة الشيخ محمد بن

عبد الوهاب، ويذكر بعض صفاته، فيقول: (ضاعت ناقة بدوي، فبحث عنها، ولم يجدها، لجأ إلى قبر معروف في البادية. وأخذ يبكي ويصرخ ويصيح ثلاثة أيام متوالية، من الصباح حتى المساء، وهو يردد قائلاً: (يا سعد! يا سعد! هات لي ناقتي! وهكذا كان يطلب المدد من سعد. وكان هناك شخص عربي في عشيرة عربية تقيم بالقرب من هذا القبر، يتألم لما وصلت إليه حالة هذا البدوي الذي يندب حظه، ويطلب من الميت في القبر أن يوجد له ضالته. وفي اليوم الثالث، جاء هذا الشخص ـ وهو محمد بن عبد الوهاب ـ وسأل البدوي قائلاً: ما هي مشكلتك؟ فقال له البدوي: (لقد فقدت ناقتي!) فجئت إلى قبر شيخي، وأن الشيخ سعد لا بد وأن يجدها لي! فسأله محمد بن عبد الوهاب قائلاً: (ومن هو شيخك؟) فقال البدوي: (هذا الذي يرقد في هذا القبر). قال له محمد بن عبد الوهاب: (يا شيخ!! إنك أنت، وأنت حيّ، تعجز أن تجد ناقتك! فما بالك بشيخك وهو ميت؟! كيف يستطيع الخروج من قبره، ليجد لك ما تعجز أنت في العثور عليه. دعك من هذا الميت، واطلب العون والمدد من الله بدلاً من أن تطلب المدد من هذا المدفون تحت الحجارة، وقد أصبح مجموعة عظام. لا تطلب ناقتك من سعد بل اطلبها من رب سعد. لا تقل: (يا سعد!) بل قل: يا رب سعد، فإن القادر على أن يجد لك ناقتك، ليس سعداً وإنما رب سعد، ذلك لأن الله عز وجل هو القادر على كل شيء). (صفحة ٣١ من مخطوط التقرير).

إلى هنا ينتهي تسجيل التقرير الرسمي العثماني لبدء ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إلا أن كاتب التقرير يمضي بعد ذلك قائلاً: (أحدثت مواعظ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بين العشائر، قبولاً حسناً، وقوة تأثير، وانتشرت أقواله في كل جزيرة العرب، من أولها إلى آخرها، وشملت الحرمين الشريفين، والعراق، والحجاز، وسائر البلاد والأمصار). (التقرير صفحة ٣٢).

(٤)

أتاتورك وطربوش السفير المصري

● بموجب معاهدة لوزان (١٩٢٣م) تنازلت تركيا عن ادعاءاتها في مصر والسودان وبعد ذلك أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وتركيا على مستوى السفراء. ثم لما ألغيت الخلافة عام١٩٢٤م، وظهر من يقول بأن الملك فؤاد ملك مصر، يفتح أحضان بلاده أمام كل الهاربين من تركيا سواء من الأسرة المالكة العثمانية، أم من الذين سموا بالمائة والخمسين وهؤلاء طردهم أتاتورك أيضاً من تركيا، ومن ضمن هؤلاء الأخيرين شيخ الإسلام مصطفى صبري صاحب كتاب موقف العقل ●

وعندما ألغى أتاتورك ارتداء الطربوش وغيره من أغطية الرأس وفرض القبعة بديلاً، أصدر قانوناً بهذا سماه قانون القبعة وكان عام ١٩٢٥م.

وفي عام ١٩٣٠م، تم تعيين عبد الملك حمزة بك سفيراً لمصر في أنقرة، وظل يرتدي طربوشه في أنقرة مدة عامين كاملين منذ تقديمه لأوراق اعتماده لأتاتورك في نوفمبر من نفس عام تعيينه، حتى يوم الاحتفال بالعيد الوطني التركي في أكتوبر١٩٣٢م، وكان أتاتورك قد أقام مأدبة رسمية مساء في أنقرة بالاس أعقبها حفل راقص حضره أعضاء السلك الدبلوماسي الأجنبي في تركيا. وكان المدعوون كثيرين (٢٠٠ شخص). وكان أتاتورك يأكل قليلاً ويشرب بشراهة. انتهى الحفل عندما قام أتاتورك واقفاً، وشرب كأساً في «سبيل وحدة الإنسانية» ومر أثناء خروجه بجانب السفير المصري الذي كان يرتدي الطربوش، وكان الطربوش في ذلك الوقت رمز الوطنية والاستقلال في مصر.

يروي السفير الإنجليزي في أنقرة وقتها، وهو سير جورج كليرك المسألة كالآتي: (أتاتورك (للسفير المصري): قل لملكك، إنني أنا مصطفى كمال! وإنني أصدرت أوامري لك، بأن تخلع هذا الطربوش من على رأسك، من الآن).

ونادى مصطفى كمال أتاتورك، جرسوناً.. السفير المصري يخلع طربوشه.. يعطيه للجرسون.. الجرسون يأخذ الطربوش، ويختفي بين نظرات الدهشة في أعين المدعوين.. سفير مصر ينسحب حزيناً، من المكان فوراً.

ويقول السفير الفرنسي الذي كان حاضراً أيضاً الحفل وهو الكونت دي شاميرون: (كان أتاتورك ينظر بين الفينة والفينة بنظرات سخرية إلى السفير المصري..).

وفي اليوم التالي للحفل، اعتذر توفيق رشدي بك للسفير المصري بشأن ما حدث من أتاتورك. وعلل وزير الخارجية التركية الحادث تعليلاً أخوياً إذ قال: (إن ما حدث كان حديثاً ودياً بين أتاتورك وسفير مصر، وإن السفير خلع طربوشه بإرادته حتى يتحدث براحة مع أتاتورك).

لكن وزير الخارجية المصرية عبد الفتاح يحيى باشا، صرح بقوله: (إن أتاتورك قال بشكل قاطع لسفير مصر في أنقرة بأن يخلع طربوشه. ولما لم ينفذ السفير هذا، أصدر أتاتورك أمره إلى أحد الخدم ليخلع الطربوش من على رأس سفير مصر، فرأى السفير أن يخلع بنفسه الطربوش وأمام هذا الموقف غير المتوقع من أتاتورك وجد السفير المصري، أن يترك القاعة).

وفي ٢١ نوفمبر نشرت الديلي هيرالد الإنجليزية خبراً يقول: (تسبب الطربوش في قيام مشادة بين الديكتاتور التركي مصطفى كمال وبين السفير المصري في أنقرة حمزة بك أمر مصطفى كمال السفير، بأن يخلع طربوشه.. وغادر السفير القاعة فوراً.. واعتذر رئيس الجمهورية التركية بعد ذلك رسمياً للسفير، وقبل السفير اعتذار الغازي (مصطفى كمال). لكن الحادث انتشر في مصر وأحدث رد فعل عنيف). ولم تذكر الديلي هيرالد مصدرها..

وفي ١١ نوفمبر ١٩٣٢م أبرقت رويتر بـالخبر إلى مصر، فعـرفته مصر لأول مرة، ونشرته الأهرام. وكذبته وكالة أنباء الأناضول، ونشرت الصحف المصـرية هذا التكذيب.

لكن حزب الوفد ـ وكان في المعارضة ـ أراد استغلال الحادث، وضخمه فقالت جريدة البلاغ الناطقة باسمه: (إن هذا الحادث إهانة لمصر، وإنها لإهانة أن يقوم شخص لا يملك حق توجيـه الأمر لمصر، إصـدار الأمر إلى ممثـل مصر، وهو موضـع الاحترام حسب قواعد القانون الدولي).

قالت البلاغ الوفدية أيضاً: (هل كان من الواجب اعتذار مصطفى كمال أتاتورك، للسفير، أم لمصر؟! وهل من حق السفير قبول الاعتذار دون الرجـوع إلى مصر أولاً. إن قبـول عبد الملك حمـزة بك اعتـذار أتاتـورك معناه أنـه جـاوز حدود صلاحياته كسفير).

أراد الملك فؤاد تضخيم المسـألة. حتى وصلت إلى مـذكرة تهـديد بسحب البعثة المصرية الدبلوماسية من أنقرة.

وقالت اللطائف المصورة: (لقد تدخـل أتاتـورك فيما لا يعنيـه). وقالت: (المصـريون أحـرار يرتـدون فوق رؤوسهم مـا يريـدون) و (إن الشعب المصـري الحر، يريد أن يعرف ـ وهو محق في هذا ـ ماذا سيتم في مسـألة الطربوش).

واستخدمت روز اليوسف الكاريكاتير ضد أتاتورك، لكن جـريدة المقـطم المصرية كانت في صف أتاتورك، ووصفته برقة التعامل، وقـالت المقطم إن ليس هناك مشكلة أصلاً.

وتـرددت أسئلة في أنقرة عقب ذلـك لمـاذا خـرج هـذا الخبـر من لنـدن، ولم يخرج من مصر؟ وما هو هدف الصحافة المصرية من إذاعة الخبر وتضخيمـه، وما دور الأوساط السياسية الإنجليـزية في هـذه المسألـة؟! ولماذا لم تـذكر الـديلي هيرالد التي كانت أول من أذاع النبأ، مصدرها الذي استقت منه الخبر؟!.

وقال عاصم أوص: (إن الملك فؤاد يريد الإضرار بالاقتصاد التركي في مصر، لذلك اختلق هذه الحادثة، حتى يفسد ـ علينا ـ نحن الأتراك ـ الدخان التركي، والتفاح التركي).

وذهب بعض الأتراك إلى: (أن المعتمد البريطاني في مصر استخدم نفوذ بلاده في مصر، لكي يغير الجو ويكهربه بين مصر وتركيا) ونشرت الأهرام أن ليس بين البلدين مشكلة وانتهى الأمر بتقديم مذكرة مخففة من الخارجية المصرية إلى الخارجية التركية، تقبلها الأتراك بقبول حسن، وانتهت المشكلة.

في حوار بين أتاتورك والسفير المصري حمزة بك في حفل راقص أقامه الهلال الأحمر التركي بمناسبة عيد رأس السنة، استدعى أتاتورك، حمزة بك ـ وكان حاسر الرأس بغير طربوش ـ إلى جانبه، ودار الحوار بينهما على الوجه الآتي:

أتاتورك: (باستهزاء بالغ) لماذا لا تلبس الطربوش؟

حمزة بك: (مندهشاً)..

أتاتورك: لماذا كتبت عني تقريراً إلى حكومتك؟.

حمزة بك: ...

أتاتورك: إذا لم ترتد الطربوش في حفل ٢٩ أكتوبر القادم، فإني أنا الذي سأكتب عنك تقريراً وأرسله إلى حكومتك، أقول فيه إنك لا ترتدي الطربوش.

حمزة بك: ...

عبر أتاتورك في هذه اللحظة عن حبه لحمزة بك وللملك فؤاد، وقال للسفير أن المذكرة المصرية الثانية أحدثت في تركيا ارتياحاً، وبالتالي فإن المشكلة انتهت.

وصدر بيان الحكومة في البرلمان المصري ٢٣ يناير١٩٣٣م بأن لم تكن هناك مشكلة، وإن العلاقات طيبة بين البلدين.

وعندما مات الملك فؤاد في ٢٨ أبريل ١٩٣٦م أرسل أتاتورك برقية تعزية إلى الملك فاروق، وقدم سفير تركيا في مصر أكليل زهور باسم أتاتورك فاق كل ما قدمه السفراء الآخرون.

وبمقدم الملك فاروق، بدأت صفحة جديدة من العلاقات المصرية التركية، ففي السابع من أبريل عام ١٩٣٧م وقعت معاهدة الصداقة المصرية التركية.

(٥)

ادعاء أمير تركي عاش في مصر :

كدت أصبح ملكا على فلسطين عام ١٩٤٨م

١ ـ من هو الأمير؟

●إنه محمود شوكت (١٩٠٣ ـ ١٩٧٣م) حفيد السلطان عبد العزيز. تخرج ضابطاً بحرياً ثم عمل ياوراً لآخر سلاطين آل عثمان السلطان محمد وحيد الدين.

أصدر أتاتورك ـ عقب إلغائه الخلافة والسلطنة رسمياً ـ القانون رقم ٤٣١ الخاص بطرد كل أفراد الأسرة المالكة العثمانية، إلى خارج البلاد. وبمقتضى هذا القانون تم طرد الأمير محمود شوكت، فذهب إلى مصر وحيداً، واستقبلته هناك في مصر عمته، وعاملته معاملة الأم لابنها، ولم تكن ذات ولد، وإن كانت ذات ثروة وجاه. ولما ماتت ورثته مالها ●

ولم تكن الأسرة العلوية المالكية في مصر ـ لأسباب تاريخية ـ على وفاق مع آل عثمان. فلما استقر الأمير المطرود في القاهرة، كوّن صلات قوية مع مشايخ الأزهر وعلماء مصر والسياسيين ورجال الجيش ورجال السلك الدبلوماسي الأجنبي فيها. وكانت للأمير صلة خاصة وقوية بعزيز باشا المصري. كما وجد الأمير نفسه محاطاً بمضايقات رجال القلم السياسي المصري ويحساباتهم لحركاته وسكناته.

وانتهز الملك فؤاد فرصة وفاة عمة الأمير محمود شوكت وانتقال أموالها إلى الأمير، ليأمر بمصادرة هذه الثروة، وظل الأمير يطالب بحقه دون جدوى حتى

قامت ثورة ٢٣ يوليو فأصدر الرئيس جمال عبد الناصر أمراً برد الثروة إلى الأمير كما أصدر أوامره إلى المسؤولين في الحكومة المصرية وقتها بالعمل على رد ميراث ضخم من الأراضي في اليونان ــ آلت إلى الأمير ــ وقال عبد الناصر أنه إذا لم تحقق الحكومة اليونانية هذا المطلب، فإن على حكومة مصر، مصادرة ثروات اليونانيين بالإسكندرية.

ولولا صدور قوانين التأميم في مصر لكان لثروة الأمير محمود شوكت شأن آخر.

* * *

٢ ــ يقول الأمير:

كان الحلفاء قد احتلوا القدس في ١٩١٧/١٢/٩م وأكملوا احتلالهم البريطاني لفلسطين في سبتمبر١٩١٨م، وأعلنوا ــ فيما بعد ــ أنهم سينسحبون في عام ١٩٤٨م.

ورغب البريطانيون في تكوين حكومة فيدرالية تحل محل سلطة الانتداب، عقب خروج البريطانيين من فلسطين ثلثاها من العرب والثلث من اليهود.

قام وايزمان بإرسال ممثل له إلى مصر هو الكولونيل اليهوديَ البريطاني شيفري (Shivery) وأرسل معه آخرين لكي يختاروا رئيساً لدولة فلسطين الجديدة بشكلها البريطاني المقترح الذي يرغبه البريطانيون، ويكون هذا الرئيس من أفراد الأسرة المالكة في مصر تجنباً لوجود فلسطيني عربي على رأس الفلسطينية المقترحة.

قال الكولونيل شيفري أن اليهود يرحبون بالحكومة الفلسطينية المقترحة حسب البرنامج البريطاني. وإن شكل الدولة الجديدة لا يهم اليهود في شيء، من ناحية أن يكون ملكياً أو جمهورياً أو خلاف ذلك، المهم ألاّ يكون شخص الرئيس عربياً.

عرض الوفد اليهودي بالقاهرة فكرة رياسة فلسطين ما بعد الانتداب

البريطاني على الأمير عباس حليم، فرفض. ذلك لأن الحكومة المصرية، لم تكن ترى أنه من المناسب تولي أحد أفراد الأسرة الحاكمة في مصر، عرش فلسطين.

قابل الكولونيل شيفري في القاهرة، الأمير محمود شوكت، وحاول إقناعه بقبول عرش فلسطين. فاشترط الأمير موافقة الفلسطينيين وموافقة سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ـ التي كان الأمير مقيماً فيها.

وافقت السلطات العسكرية البريطانية في مصر وعلى رأسها الجنرال ويلسون، القائد العام للجيوش البريطانية في الشرق الأدنى، على ذلك، وقام عزيز باشا المصري بإقناع الزعماء الفلسطينيين في القاهرة بالمشروع في اجتماع عقده لهم لهذا الأمر في ڤيلته في عين شمس بالقاهرة. وقال عزيز باشا المصري أنه يرى مصلحة فلسطين في تنفيذ هذا المشروع، وأنه من شأنه ـ في حالة تنفيذه ـ إبعاد مشاكل ستحدث مستقبلاً وطلب هؤلاء الزعماء من عزيز باشا أن يمهلهم حتى يعرضوا المسألة على الحاج أمين الحسيني بوصفه رئيساً للجنة العربية الفلسطينية العليا.

وكان وايزمان ـ أثناء ذلك ـ يتابع تطورات الموقف، وانتقل إلى القاهرة خصيصاً لمتابعة تطورات الرد العربي، وقد كان ينتظره بقلق.

لكن أعضاء اللجنة العربية الفلسطينية العليا لم تتوصل إلى اتفاق، فقد كانوا بين معارض وبين مؤيد. ولما طال انتظار الأمير محمود شوكت، أرسل مندوباً عنه إلى الحاج أمين الحسيني وكان في لبنان، والتقى به مندوب الأمير. وقال الحاج أمين للمندوب أنه يتفق مع رأي عزيز باشا وأن دولة فلسطينية برياسة الأمير محمود شوكت معناها تجنيب الفلسطينيين لبلاء يمكن أن يعم البلاد. وكتب الحاج أمين خطاباً إلى الأمير يتضمن هذا الكلام. لكن الخطاب لم يكن كافياً لكي يتخذ الأمير قراره، فلم يكن خطاب رئيس اللجنة الفلسطينية العليا متضمناً قرار أغلبية اللجنة على هذا الرأي.

ونتيجة لاقتراب موعد انسحاب القوات البريطانية من فلسطين مع عدم

وصول رد يفيد باتفاق الفلسطينيين على رأي مشروع عرش فلسطين والحكومة الفيدرالية، سكت الأمير محمود شوكت، وغادر وايزمان القاهرة مع الكولونيل شيفري لإعداد شيء ما عند الانسحاب البريطاني.

عرض البريطانيون بعد ذلك على الأمير اقتراحاً آخر بأن يعلن نفسه ملكاً على فلسطين ويعلن قيام حكومة الثلثين والثلث في وجود القوات البريطانية وقبل انسحابها. فرفض الأمير.

وفي ١٤ مايو ١٩٤٨م انسحب البريطانيون من القدس وفي ١٥ مايو دخلت الجيوش العربية فلسطين ثم حدث ما حدث من مأساة ونكبة وكارثة.

٣ ـ مصدر ادعاء الأمير:

هذا هو ادعاء الأمير محمود شوكت وهو ادعاء مسجل بصوته على شريط موجود في المكتبة الخاصة لكاتب تركي كان صاحب ورئيس تحرير مجلة السبيل الإستانبولية. وهو قدير مصر أوغلو وقد أورد هذا الادعاء مع ذكر مسألة التسجيل هذه في كتابه مأساة آل عثمان الذي صدرت طبعته الأولى في إستانبول عام١٩٧٩م في صفحة ٣٠٠ إلى ٣١٨.

ولأن التاريخ جزء من ضمير الأمة ونشره واجب في كل أشكاله لذلك نرى لو استطاع الأحياء الذين عايشوا الأمير وعايشوا تفاصيل ادعائه من قريب أو من بعيد أن يدلو بدلوهم في هذه القضية.

ثانياً:

العثمانيون في الحضارة

(أ) الفنون.

(ب) الآداب.

(جـ) الفكر.

(د) الرحلات والجغرافيا والعلوم.

(أ)

الفُــنُون

(١) المعمار سنان .

(٢) الخطاط حامد .

(١)

المعمار سنان
أعظم البنائين في عالم الاسلام

● إذا كان متنزل يقول: «في دائرة المعارف الإسلامية» إن المعمار سنان هو واحد من أعظم المعمارين الذين ظهروا في التاريخ، فإن بارتولد يقول في كتابه «الحضارة الإسلامية» إن الأعمال التي قام بها المعمار سنان لم تكن أقلّ من الناحية الفنية من الأعمال المعمارية الأوروبية في عصر النهضة.

وإذا كان بابنجر يقول، إن سنان هو ميكائيل أنجلو الأتراك فان هـ. كلوك العالِم الألماني وأستاذ تاريخ العمارة في جامعة فيينا يقول: إن سنان يتفوق فنياً على ميكائيل أنجلو صاحب أكبر اسم فني في الحضارة الأوروبية.

من هو المعمار سنان؟.. وماذا فعل الرجل ليحتل تلك المكانة الرفيعة؟ ●

ظهرت في سماء الحضارة العثمانية، منذ فتح إستانبول على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م، وحتّى عهد السلطان سليمان القانوني، أسماء معماريين عثمانيين كثيرين مثل: المعمار خير الدين، والمعمار كمال الدين، والمعمار يعقوب شاه، والمعمار عجم علي. ثم ظهر المعمار سنان الذي يعتبر مس أعظم وأبرز الذين كونتهم الثقافة الإسلامية العثمانية، وواحد من الذين اعتزت بهم الأمّة العثمانية، ويقول المؤرّخ التركي أحمد رفيق: لقد بلغ من حب الأمّة العثمانية لسنان حداً جعلها تلقبه بلقب: «سر معماران جهان قوجه سنان»، بمعنى: «سنان الكبير رائد معماريي العالم».

ولد معمار سنان في قرية آغير ناص التابعة لولاية قيصرية في الأناضـول، وكان مولده عام ١٤٩٠ في عهد السلطان بايزيد الثاني ابن الفاتـح ووالد سليم الأوّل. في هـذه القـريـة نشأ سنـان فتى ولوعـاً بشق قنـوات للميـاه في الحـدائق شغوفاً ببناء الأكواخ وحظائر الحيوانات.

ورغـم الاختـلاف في أصل سنان، إلّا أن الاتفاق حاصل على أنه انضم للجيش الإنكشاري عندما كان السلطان سليم الأول العثماني يستعد لحملة تأديبية يشنهـا على الشـاه إسماعيـل الصفوي. وكـان هذا الأخـير يعمـل عـلى اقتـطاع ولايات الأناضول الشرقية لضمها إلى الدولة الصفوية في إيران.

وكـان سنـان ضمن هؤلاء الفتيـان المسيحيـين الـذين جنّـدوا في الجيش العثمـاني فيما يسمى بـالدوشيـرمه. أسلم سنـان، وكان عمـره ثـلاث وعشـرين عاماً، والتحق بمدرسة عسكرية ابتدائية تسمّى بمدرسة عجمي أوغلانلر، وفيها تعلّم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية، ثم كـان عليه أن يختـار فناً من الفنـون ليتخصص فيـه، فاختـار قسم النجارة. تلقى سنـان في هذه المـدرسة دراسـاتـه النظرية على يد المتخصصين العسكريين، وتحت إشراف هؤلاء أيضاً عمل سنان عاملاً معمارياً في بناء الجوامع والحمامات وسبل المياه والخانات. .

مع الحرب تنمو التجربة

اتيحت الفرصة لسنان أن يطلع عـلى الأعمال المعمـارية من تـراث الأمم الأخرى غير العثمانية، سـواء كان ذلـك أثناء وجـوده في الأناضـول وإستانبـول حيث شاهد آثار البيزنطيين في العاصمة العثمـانية وأثـار السلاجقـة وفنّ العمارة السلجوقي في الأناضول.

لكن الـذي أثرى وأنمى تجـربـة سنـان الفنيـة هـو اشتـراكـه في الحـروب العثمانية في الشرق وفي الغرب. فقد كان سنان ضمن الجيش العثماني في موقعة جـالديـران (١٥١٤م) بين العثمـانيين وبـين الصفويـين، والتي انتهت بـدخـول العثمانيين تبريز عاصمة الصفويين. شدت تبريز بمبانيها المعمارية الصفوية انتباه سنـان لخصـائص الفن الإيـراني. كـما رافق الجيش العثمـاني في دخـولـه حلب

ودمشق حيث جذبت الطرز المعمارية العربية اهتمام المعمار سنان. أمّا في القاهرة فقد وقف سنان متأملاً مستغرقاً فالحصاً الطرز المعمارية التركمانية والمملوكية. كما تجوّل سنان أياماً كثيرة بين أهرامات الفراعنة.

وعندما مات سليم، حزن عليه سنان حزناً ملك عليه زمام قلبه فسجل حزنة هذا في كتاب «تذكرة الأبنية». ثم ارتقى سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية. وفي عهده تخرّج سنان من مدرسة عجمي أوغلانلر، وأصبح إنكشارياً فنياً، واشترك في الحملات العثمانية على أوروبا، وشاهد الانتصارات العثمانية المتتالية على ملوك أوروبا وأمرائها، مما كان له أثره وإشعاعه على روح سنان الفنان، ومع توالي هذه الانتصارات كان المعمار سنان يواصل مشاهداته الفنية، فلقد اشترك في فتح رودس فشاهد روائع المعمار اليوناني، واشترك في فتح العثمانيين لبودابست، فشاهد فنون المجر المعمارية. وفي بودابست بالذات كان سنان يتجوّل في الكنائس التي حوّلها العثمانيون إلى جوامع، تجوّل الفنان المدقّق، وصحب في جولاته هذه، قمة زمانه في الفتوى الشيخ أبو السعود أفندي.

ثم اشترك سنان في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق (١٥٣٤م)، فأثرى سنان تجربته الفنية باطلاعه على الإبداع المعماري في بغداد، كما رافق سنان خير الدين برباروس باشا في حملاته البحرية عندما كان يجوب السواحل الإيطالية، حينما كان خير الدين برباروس يبحث عن أندريه دوريا القائد البحري الأوروبي الشهير لكي يؤدبه.

كانت البداية الأولى لظهور سنان، عام ١٥٣٤م، عندما اشترك في الحملة العثمانية على إيران ضمن قوات لطفي باشا الصدر الأعظم يريد اجتياز بحيرة وان، فصدر الأمر إلى سنان بالإشراف على بناء سفن للنقل العسكري فأنجز سنان هذا العمل بنجاح.

وعند العودة إلى إستانبول، كان «عجم علي»، هو كبير المعماريين الرسميين في الدولة العثمانية، فلما مات اقترح الصدر الأعظم لطفي باشا، تولي

سنان لأعظم منصب معماري في البلاد وهو. كبير معماريي الخاصة السلطانية بدلاً من «عجم علي»، وقد كان. وبالتالي أصبح سنان هو المسؤول عن إقامة الأعمال المعمارية من قصور ومدارس ومطاعم خيرية وسبل مياه وأضرحة وحمامات وبيوت قوافل وغيرها. كما كان مسؤولاً عن الأعمال المعمارية بالعاصمة إستانبول عن إصلاح وتعمير وترميم وشق شوارع وبناء أرصفة وقنوات للمياه. كما كان مكلفاً بمراقبة كل أعمال البناء في كل أرجاء الدولة العثمانية، وكذلك مراقبة المواد المستخدمة في البناء، كما أسندت إليه صلاحية هدم الأبنية المخالفة للنظام، والإشراف على أبنية القلاع.

كما أن الإشراف على المهندسين المعماريين في الخاصة السلطانية، كان من صميم عمل سنان وكانوا أهمّ شخصيات فنية في عصره، وأشهرهم: المعمار داود آغا (الذي بنى الجامع الجديد «يني جامع» في إستانبول وهو أثر معماري فخم). والمعمار محمد آغا الصدفكار (الذي بنى جامع السلطان أحمد المشهور بالجامع الأزرق في العاصمة العثمانية وأحد التحف المعمارية المعدودة في العالم) والمعمار قره شعبان آغا (الذي بنى قلعة نوارين) وكذلك كان تحت إمرة سنان جميع الصنّاع والنجارين والبنّائين واللغميين في الدولة.

وبناء على أمر السلطان سليمان القانوني بأن يتولى سنان مسؤولية إمداد الشعب في العاصمة بالمياه، بنقل الماء إلى إستانبول، عن طريق عيون الماء بدلاً من تحمل عناء حمل المياه إلى المدينة قام سنان بحل هذه المشكلة «بطريق علم الهندسة» وبناء عين ماء في كل حي، تستمد مياهها مباشرة من منابع الماء. فإذا علمنا أن أجر العامل عن يوم كامل في ذلك الوقت في عام ١٥٥٤م كان ستة أقجات، وأجر المعمار اثنا عشر أقجة. وثمن نقل حمل حصان الماء خمسة عشر أقجة، فإننا ندرك كم كانت أهمية حل سنان لهذه المشكلة (لاحظ أنه لم يكن للصنابير وجود وقتها).

في البلاد العربية

في مخطوطة تذكرة الأبنيـة ـ وهو كتـاب أملاه المعمـار سنان عـلى صديقـه النقّـاش ساعي مصـطفى جلبـي ـ بيـان لأعمـال سنـان، وتبلغ (٤٤١) عمـلاً موزعة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، منها جامع صقوللو محمد باشا، وجامع رستم باشا، وجامع شهزاده، وجامع السليمانية بإستانبول، وكذلك جامع محمد باشا البوسنوي في صوفيا (عاصمة بلغاريا الآن)، وجامع تاتار خان في كوزوا ـ القرم (تابعة للإتحاد السوفييتي الآن).

أما في البلدان العربية فقد بنى سنان الجوامع والمنشآت الخيرية وغيرها من أمثلتهـا، جامـع خسـرو بـاشا (جـامع الخسـروية) في حلب، وجـامـع السلطان سليمـان ومطعم السلطان سليمـان الخيـري في دمشق، وفي مكـة المكـرمـة قـام بترميم قباب الحـرم المكي وبنى مطعـماً خيريـاً باسم خـاصكي سلطان ومدرسـة السلطان سليمان وحماماً باسم السـلطان سليمـان أيضاً، وفي المـدينة المنـورة بنى سنان مطعماً خيرياً باسم خاصكي سلطان.

ولسنـان أعمال كثيـرة ومختلفة متنـوعة من الجـوامع والكليـات (الكلية في المعمار العثماني تعني مجموعة المنشـآت الخيريـة والمدارس المحيـطة بالجـامع) إلى المساجد وسدود المياه والحمامات، وبيـوت القوافـل والكباري والجسـور والطرق وسبل المياه والأضرحة. لكن هناك ثلاثة أعمال تتقدم في روعتها المعمـارية عـلى سـائر أعمـال سنان وهي ثـلاثة جوامـع بكلياتهـا: جـامـع شهـزاده، وجـامـع السليمانية بإستانبول، وجامع السليمية في أدرنه.

أعظم أعمال سنان

بنى المعمار سنان جامع شهزاده وكليته بين عامي ١٥٤٤ و ١٥٤٨م وعندما انتهى من بنائه كان قد بلغ من العمـر (٥٨) عامـاً. وهذا الجـامع يقـع في حي شهزاده باشي في إستانبول بناه سنان على أمر السـلطان سليمـان القانـوني، باسم ابنه شهزاده (= الأمير) محمد.

تتكون كلية شهـزاده من جامـع ومطعم خيـري ومطبـخ وكتّـاب للصبيان ومـدرسة وضـريـح، والجامـع مكـوّن من ثـلاثـة أجزاء: الصحن الخـارجي،

والصحن الداخلي، والحرم. الصحن الخارجي ذو خمسة مداخل واحد منها في الواجهة. يحيط بالصحن الداخلي أروقة مغطاة بست عشرة قبة، والأعمدة التي ترتكز عليها الأروقة من الرخام الصوماقي. وفي وسط هذا الصحن ميضأة ذات ثماني زوايا، والجامع مغطى بقبة مركزية يبلغ ارتفاعها حتى حجر العقدة ٣٧ متراً، وقطر هذه القبة المركزية ١٨,٤٢ متراً وهناك أربع من أنصاف قبة على كل جدار من القبة الأساسية مما أعطى الجامع حجماً أكبر، وتم توسيع هذه الأنصاف قباب بإضافة نصف قبة صغيرة إلى كل منها. كما يوجد أربعة أبراج ونصف برج موجودة في الزوايا التي تقترب فيها أصناف القباب بعضها إلى بعض، وهذه الأبراج وإن كانت شكلاً جمالياً هاماً إلّا أن من وظيفتها أن تمنع انفراج الأقواس. وفي المقبرة التي تقع خارج الجامع يوجد ضريح الأمير محمد ابن السلطان سليمان القانوني. وقد خفف سنان من حدة الكتلة الثقيلة التي تظهر في الجوامع التي بنيت قبله، خففها عن طريق استخدام الأروقة الجانبية.

أعمال المعمار سنان في البلاد العربية

البلد	العدد	النوع	البلد	العدد	النوع
مكة المكرمة	١	جامع	دمشق	١	مدرسة
مكة المكرمة	١	مدرسة	حلب	٢	جامع
مكة المكرمة	٢	دار القراء	طريق حلب	١	قصر
مكة المكرمة	١	رباط خيل بعين ماء	طريق حلب	١	ضريح
			طريق حلب	١	تكية
مكة المكرمة	١	مطعم خيري	باياس طريق حلب	١	جامع
المدينة المنورة	١	مطعم خيري			
القدس	١	جامع	باياس طريق حلب	١	مدرسة
القدس	١	مدرسة			
القدس	١	مطعم خيري	باياس طريق حلب	١	حمّام
البصرة	١	جامع			
دمشق	١	جامع			

وبهذا الجامع وصل المعمار سنان ـ لأوّل مرة ـ إلى نظام الجامع ذي القبة الضخمة أو «الجامع ذي التخطيط المركزي». وجامع شهزاده، هو أول جامع كبير يقوم سنان ببنائه أو كما يقول هو بنفسه أن جامع شهزاده هو أوّل عهده بالأعمال الكبيرة.

أما جامع السليمانية فهو من أشهر الأعمال المعمارية في عهد السلطان سليمان القانوني، بل وفي التاريخ العثماني كلّه، ويمثل أكثر مراحل المعمار العثماني تطوراً. بناه سنان في إستانبول عام ١٥٥٧م، بأمر السلطان. واختار لبنائه ربوة تتحكم في كل من الخليج الذهبي والبسفور. والجامع ـ بكليته من مدارس ومستشفى وغيرها ـ يعد ثاني كلية تبنى في إستانبول بعد الكلية التي ابتناها السلطان محمد الفاتح لجامعه.

الجامع في كلية السليمانية هو محورها. تقوم خطته على مربع قائم مكوّن من مساحتين، واحدة منها الصحن، والأخرى، الجامع نفسه. الصحن على اثنين. داخلي وخارجي. أمّا الداخلي فبثلاثة أبواب واحد في الواجهة الرئيسية في الوسط، والإثنان الآخران في الواجهتين الجانبيتين. والباب الأوسط تذكاري في أعلاه تاج، وهذا الباب يعد حد ذاته أثراً معمارياً مستقلاً بفنيته ونقوشه وتزيينه.

أرض الصحن الداخلي في جامع السليمانية مفروشة بالرخام. تحيط به أروقة ذات (٢٨) قبة و (٢٨) قوساً ترتكز على مجموعة من الأعمدة الجرانيتية والرخامية. وأهمّ التزيينات في قسم الصحن هو الحليات الخزفية الموجودة على عشر نوافذ من مكان الجماعة المتأخرة. كما يعد هذا الخزف أجمل نماذج الخزف في القرن السادس عشر.

وفيما يتعلق بخطوط جامع السليمانية، فقد عهد المعمار سنان بها إلى أشهر خطاطي عصره وهو الخطاط حسن أفندي جلبي القره حصاري. وهو تلميذ وعبد رقيق لأستاذه الخطاط العظيم أحمد بن قره حصاري وتسمى

باسم أستاذه بعد أن أعتقه هذا وتبناه: كما عهد سنان بصنع النوافذ الملونة البديعة بالجامع إلى الفنان إبراهيم المشهور بلقب سرخوش.

استخدم سنان في بناء جامع السليمانية نظام القبة الوسطى واثنين من أنصاف القباب. تبلغ هذه القبة الوسطى في ارتفاعها من الأرض ٥٣ متراً أي بزيادة ستة أمتار عن قبة أياصوفيا ارتفاعاً، ويبلغ قطرها خمسة وعشرين متراً ونصف متر «٢٥,٥م»، تغطي مساحة الجزء الداخلي من الجامع وهو مقام على ٦٣ × ٦٨ متراً، والجامع ــ ككل ــ مبني من الأحجار المنتظمة القطع.

ركز سنان في جامع السليمانية على كل أساليب عصره ليبرز تأثير المكان الداخلي قوياً بأكثر مما فعل من قبل في جامع شهزاده. كما وضح اهتمام سنان في السليمانية بإظهار عوامل التأثير الصوتي كما وجه سنان أهمية كبيرة في هذا الجامع ــ الذي يعتبره رمزاً لفنيته النضجة ــ إلى نظام التهوية بحيث جعل عملية التهوية فيه تتسم بسرعة وبسهولة.

أمّا عن مآذن الجامع فنقول أن في الجامع أربعة مآذن كل منها في زاوية من زواياه: اثنتان موجودتان في الزاويتين الكائنتين في الواجهة الأمامية من الصحن، وهما قصيرتان نسبياً، وفي كل واحدة منهما شرفتان. والمئذنتان الأخريان الموجودتان في جانب الجامع أكثر طولاً وفي كل منها ثلاث شرفات. وبذلك يكون في جامع السليمانية أربع مآذن ترمز، كما أراد لها سنان، إلى أن السلطان سليمان القانوني هو رابع السلاطين العثمانيين منذ فتْح إستانبول. وبهذه المآذن الأربع، عشر شرفات، ترمز ــ كما أراد لها سنان ــ إلى أن السلطان سليمان القانوني هو عاشر سلاطين آل عثمان منذ عثمان مؤسس الدولة العثمانية.

يلفت النظر في المآذن، أنها ليست في ارتفاع واحد، وأن المعمار سنان قد جعل المئذنتين القريبتين من القبة طويلتين، والآخرين أقصر منهما. يقصد سنان بذلك أن يعطي للجامع الشكل الهرمي بحيث تفرض الصورة الظلية للجامع

(السلويت) بشكلها الهرمي هذا نفسها على الخليج الذهبي في إستانبول، بل على إستانبول ذاتها.

والكلية السليمانية تحتوي على جامع السليمانية ـ دار الطب (وهي مدرسة عليا لتدريس الطب) ـ المدرسة الأولى ـ المدرسة الثانية ـ كتّاب الصبيان ـ المدرسة الثالثة ـ المدرسة الرابعة ـ مدرسة الملازمين ـ دار الحديث ـ حمام السليمانية ـ دار الشفا (مستشفى) ـ دار الضيافة ـ دار الطبخ ـ دار القرّاء (لتدريس القرآن الكريم: بقراءاته ورواياتها) ضريح السلطان سليمان ـ ضريح حرم السلطان (زوجة السلطان سليمان القانوني) ـ ضريح المعمار سنان ـ عين ماء (سبيل).

لماذا بنى جامع السليميه؟

أخيراً فإن جامع السليمية بأدرنة هو أعظم ما بنى سنان. وقد بناه بناء على أمر السلطان سليم الثاني الذي خلف والده بسليمان القانوني في حكم الدولة العثمانية. وقد اختار سنان أعلى ربوة في أدرنه ليقيم عليها الجامع بحيث يُمكن مشاهدته من كل أنحاء المدينة. بدأ سنان بناء الجامع عام ١٥٦٨م وكان عمره (٨٤) عاماً وانتهى من بنائه عام ١٥٧٤م.

وقد وصف أرنست دييز. العالِم المشهور في تاريخ العمارة هذا الجامع بقوله: «إن مزايا تأثير المكان والحجم والارتفاع والتجمع والضوء، يجعل من جامع السليمية في أدرنة، أروع الأثار المعمارية في العالم أجمع».

أمّا سنان نفسه فيقول عن حوافز إبداعه في جامع السليمية: «إن المعماريين الآخرين يقولون: إننا متفوقون على المسلمين لأن عالم الإسلام يخلو من قبة عظيمة مثل قبة أياصوفيا، وأن بناء مثل هذه القبة الضخمة في بلاد الإسلام أمر غاية في الصعوبة. وكان لكلامهم هذا تأثيره المؤلم في قلب هذا العبد العاجز، لذلك بذلت الهمة العالية في بناء هذا الجامع، وبعون الله، ثم بتشجيع السلطان سليم خان قمت بإظهار المقدرة، وأقمت قبة هذا الجامع أعلى من قبة أياصوفيا بستة أذرع وأعمق بأربعة أذرع».

غطى سنان المكان كله في الجامع بقبة واحدة قطرها ٣١,٥ متراً دون اللجوء إلى أنصاف القباب التي كان استخدمها من قبل في جامعي شهزاده والسليمانية.

مآذن السليمية ترتفع كل منها ٧٠,٨١ متراً وهي أربع دقيقة نحيلة، تقع كل منها في زاوية من زوايا الجامع الأربع، وكل منها ذات ثلاث شرفات. المئذنتان الواقعتان ناحية الباب الرئيسي.

يتم الصعود إلى شرفات كل منها ــ على حده ــ عن طريق ثلاثة سلالم مستقلة عن بعضها أمّا المئذنتان الأخريان فلكل منها سلّم واحد.

ولا يوجد في العالم مئذنة أعلى من مئذنة جامع السليمية، إلاّ مئذنة جامع قطب منار في دلهي. وهو الجامع الذي أقامه أتراك الهند في القرن الثالث عشر الذي يبلغ ارتفاع مئذنته (٧٢,٥٠) متراً، إلاّ أن مئذنة السليمية دقيقة الصنع في حين أن مئذنة قطب منار سميكة حتى أنها تشبه أبراج قلعة ارتكزت على قاعدة يبلغ ارتفاعها (١٤) متراً.

وجامع السليمية مبني على شكل كلية فهناك في داخل الصحن الواسع المحدّد بجدران حجرية عدة مبان هي: الكتاب (مدرسة الصبيان)، ودار القرّاء، ودار الحديث، ومدرسة.

منبر الجامع وميضآته من الرخام. وبالمنبر تصنيع فني رائع. وقد استخدم سنان الخزف في الجامع استخداماً فنياً باهراً، يشهد على ذلك محفل السلطان الواقع على شمال المحراب، داخل الجامع، فكل جدرانه ــ أي جدران المحفل ــ مغطاة، بالخزف حتى منتصفها.

وخطوط الجامع قام بها المولوي حسن بن قَره حصاري.

وفي جامع السليمية يقول أوقتاي أصلان أبا، استاذ الفنون بجامعة إستانبول: «لقد أوصل سنان سقف البناء المركزي المغطى بقبة واحدة ضخمة، إلى أعلى درجات التأثير، وذلك في العمارة العالمية عامة، وفي العمارة العثمانية خاصة».

تلامذته يواصلون المسيرة

كان لسنان تلامذة كثيرون انتشروا في العالم الإسلامي وشيدوا عدة أعمال هامة منهم على سبيل المثال، المعمار يوسف، الذي استدعاه بابور شاه إلى الهند، ليبني أعمالاً عظيمة في مدن الهند مثل دلهي واكرا. كما أثر في فنانين معماريين آخرين وفي هذا يقدم لنا الرحالة العثمانية أوليا جلبي مثالاً في رحلته إلى مصر في القرن السابع عشر، فيقول: «إن جامع اسكندر باشا في القاهرة جامع عثماني الطراز لطيف جداً، تمّ بناؤه تقليداً لخطة المعمار سنان في جامع رستم باشا بإستانبول، كما أن تلامذة سنان قلّدوه في بناء جامع السلطان أحمد بإستانبول والذي يطلق عليه الأوروبيون اسم الجامع الأزرق.

استمرت مدرسة سنان في العمارة العثمانية منذ أن بدأها في أوائل القرن السادس عشر وحتى الربع الأوّل من القرن الثامن الميلادي، وهو الوقت الذي وصلت فيه مؤثرات حركة النهضة الأوروبية إلى البلاد العثمانية وسيطرت على الحياة الفنية فيها.

والمعمار سنان عبقرية فنية قلّ وجود مثلها. فقد ترك أعمالاً كثيرة تشهد كل منها بالأصالة ويسود أعماله جمال وتنوّع مدهشان. ومعرفته العميقة بتكنيك الهندسة وفهمه العلي للفن ورقة ذوقه، قد مكنه كل ذلك من إضافة أشكال جديدة للفن المعماري، وجعله يتمكن من إيجاد نماذج تكنيكية لم يعرفها سابقوه. ويكفي تناول الميضأة أو المحراب أو حتى الباب أو غيره من الأعمال الجزئية الصغيرة في عمله الفني، وفحصها ودراستها، حتى يتبين لنا قدرة وعظمة المعمار سنان. ففي هذه الأعمال الصغيرة يستلفت الأنظار بل ويثير الدهشة، ذلك التناسب العام العظيم الذي يسيطر على العمل الفني. ونفس الكلام يقال على أعماله الفنية الكبيرة أيضاً.

عرف سنان كيفية التخلص في كل تكويناته من الابتذال والتكرار والتصنع والتقليد الشكلي وله أي لسنان ـ سيطرته الواضحة على تناسب

الأشكال والتكوينات. وكذلك له قدرته الرائعة على تناسب الخطوط العامة في أعماله الفنية.

كان سنان يستخدم كل العناصر المعمارية في شكل عضوي. فالقوس أو القبة أو العمود لا ينبغي ـ عنده ـ أن تقف عند دورها فقط كعضو في مبنى، بل يجب أن تكون في نفس الوقت أيضاً عنصراً جمالياً يخفي دور التكنيك، فكتل العواميد الضخمة في المبنى والمسماة في اللغة التركية أقدام الفيل، وكذلك الجدران الكبيرة، وأنصاف القباب المحيطة بالقبة الكبيرة، يؤدي كل منها دوراً جمالياً وتكنيكياً.

أمّا خططه، فإنها رغم بساطتها نتاج نظرة عبقرية، تنصهر في شكل تام مع المشكلات التكنيكية وجميع عناصر البناء يرتبط بعضها بالبعض في شكل مدهش، ولا تعطي أدنى فرصة للصدفة.

والقبة المركزية في فن المعمار سنان، تقدم اتساعاً كبيراً مريحاً. والكتل الحجرية كالعواميد أو القواعد الضخمة، لا تتعب النظر بثقلها، لأن سنان يتفاداها بفنية ذكية، وهو حريص على أن يستخدم فنه في إظهار كل شيء في عمله الفني رشيقاً ظريفاً أنيقاً، علماً بأن المعمار سنان كان عزوفاً في كل أعماله عن التكلّف في الزينة مخالفاً بذلك أصول الفن المعماري البيزنطي، بل والسلجوقي أيضاً.

وعن تفوق سنان على المعمار البيزنطي يقول أستاذ الفن التركي جلال أسعد: «اهتم سنان أيضاً بالأجزاء الخارجية للأبنية، على عكس الفن المعماري البيزنطي الذي تشكل فيه الأجزاء الخارجية منظراً ثقيلاً غير متسق بعضه مع البعض الآخر. وأن مقارنة بين أياصوفيا (كنيسة بيزنطية في إستانبول حولها السلطان محمد الفاتح إلى جامع. ثم حوّلت بناء على أمر أتاتورك عام ١٩٣٥م، إلى متحف) وهي مثال الفن البيزنطي، وبين جامع السليمانية للمعمار سنان، ليبيّن ويوضح ـ من الوهلة الأولى ـ مدى الفرق الكبير بين الفنين المعماريين البيزنطي والعثماني، إذ أن منظر أياصوفيا يفتقد الاتساق والظُرف والأناقة،

ويبدو فيه الثقل الفني، على عكس جامع السليمانية الذي يبدو متسقاً ظريفاً أنيقاً، وتشكل أنصاف القباب المتوالية فيه حتى القبة المركزية إلى قبة الجامع، منظراً يتسم بالسلامة، وتعكس منظراً ظلياً (سلويت) هرمياً متوازناً. كما أن المآذن الأربع في السليمانية تبدو وكأنها تجمع خطوط الهرم المائلة محتوية بينها مثلثاً أكبر من المثلث المحيط بالبناء.

موت سنان

مات عام ١٥٨٨م وعمره يقارب المائة، بعد أن عاصر خمسة سلاطين هم: بايزيد الثاني، وسليم الأوّل، وسليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث. وخلفه في منصبه تلميذه داود آغا. مات المعمار سنان فأرّخ لتاريخ وفاته، صديقه النقّاش ساعي مصطفى جلبي، بقوله:

كجدي بود مده جهاندن بير معماران سنان

روحي إيجون فاتحه إحسان إيده بيروجوان

ومعناها:

مات سنان أستاذ المعماريين في هذا الزمان فأحسنوا إلى روحه أيها الكهول والشبان بقراءة الفاتحة.

(٢)

الخطاط حامد

آخر الخطاطين العظام

● يقول الدكتور علي أرسلان ـ وهو خطاط وأستاذ بجامعة إستانبول ـ : «يُعتبر فن الخط، أصعب الفنون الإسلامية. ذلك لأن الفنان فيه لا يملك في يده غير القلم البسط، وهذا القلم مسطرة الخطاط وبرجله، وهو قسطاسه الذي يعين به أحجام الحروف. هذا القلم يقوم بأداء كل وظائف الآلات الأخرى التي يمتلكها الفنّانون في سائر الفنون الأخرى. لذا تلزم الخطاط خصلتان رئيسيتان هما: القابلية وبذل الجهد. هناك من جلسوا سنوات عديدة يتلقون فن الخط على أيدي أساتذة خطاطين، ومع ذلك لم يتمكنوا من تحصيل هذا الفن، وهناك أيضاً أصحاب الاستعداد الفريد في تاريخ الخط، تلقوا القليل من هذا الفن على يد أساتذة قلائل ولفترات زمنية قصيرة، واتخذوا ـ بجانب هذا ـ عدّة أسطر قليلة مما خطه سابقوهم، نموذجاً يحتذونه لتدريب أنفسهم وبهذا احتلوا المكانة العظيمة، في تاريخ فن الخط، وخلدت أسماؤهم أساتذة عظاماً في الخطوط. وحامد (١٨٩١ ـ ١٩٨٢م) واحد من هؤلاء الفنانين العباقرة، وهم قلائل في التاريخ الفني الإسلامي». ●

وحامد (اسمه الحقيقي موسى عزمي) ولد في آمد وهي ديار بكر في تركيا عام ١٨٩١م من أب كان يعمل قصّاباً، وكان جده لوالده خطّاطاً يدعى آدم الآمدي. بدأ حامد دراسته عندما التحق بكتّاب الصبيان الملاصق للجامع الكبير في ديار بكر، وفيه تعلّم القراءة والكتابة، ولفت الأنظار إليه بشغفه بالرسم وحب دروس الخط الذي أخذ يتعلمه على يد معلّم يدعى مصطفى عاكف.

يحكي حامد قصة طريفة عن معلمه هذا، فقد دفع الشوق حامداً إلى الخط وتقليده، فلم يجد إلاّ هامش المصحف ليخط عليه مقلداً خط المصحف نفسه وكان نسخاً، فقال له معلمه! «ألم تجد مكاناً آخر لتكتب فيه؟! ثم أمر المعلم بضرب حامد «بالفلقة».

راسب في العسكرية

انتقل حامد بعد انتهائه من الكتّاب، إلى المدرسة الرشدية العسكرية في ديار بكر، وفيها تعلّم خط الرقعة عن معلمه «واحد أفندي». وتعلّم خط الثلث عن أحمد حلمي بك معلم الرسم وضابط الجاندراما، وتعلّم حامد من هذين المعلمين خطوط اللغة اللاتينية، والخطوط الرومانية، والغوطية، كما تعلم الخط أيضاً في هذه المرحلة من قريب له يدعى عبد السلام أفندي، ومن معلّم يدعى سعيد أفندي، وهذا الأخير إمام مسجد، كان له أسلوب خاص في تعليم الخط، وهذا الأسلوب عبارة عن أمره لتلامذته بكتابة آيات قرآنية على السبورة بالطباشير، وبهذه الوسيلة تمكن حامد من كتابة القرآن الكريم بالطباشير عدة مرات.

ونتيجة لاهتمام حامد بالخط، رسب في عامه الأوّل من المدرسة الرشدية العسكرية وهي تقابل المرحلة الإعدادية في مدارسنا اليوم ـ فمنعه والده من مزاولة الخط. إلاّ أن حادثة جعلت والده يتراجع عن قراره هذا، وهي أن حامداً كان يعاون أحد معلميه الخطاطين في كتابة لوحة خطية على قطعة من القماش تحمل عبارة «يحيا السلطان» وذلك بمناسبة عيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني على العرش، في هذه الأثناء أخذ حامد يحاولّ كتابة طغراء السلطان مما دفع المسؤولين في ديار بكر إلى منح حامد ليرة ذهبية مكافأة له فطار بها فرحاً إلى والده ليخبره بالأمر الذي شرح صدر والده، فسامحه وأذن له في مزاولة فنه.

وعندما كان حامد في هذه المدرسة الرشدية، قلّد خريطة في أطلس مدرسي بدقة متناهية دفعت أستاذه في الجغرافيا إلى إيداع خريطة حامد بمتحف المدرسة.

أنهى حامد دراسته في الرشدية ليدخل بعدها المدرسة الإعدادية بديار بكر ـ وهي مرحلة في التعليم العثماني تعادل المرحلة الثانوية في المدارس العربية اليوم ـ وأثناء دراسته فيها داوم على تعلّم خط الثلث الجلي، من قريبه عبد السلام أفندي، وفي هذه المرحلة، ترك حامد الرسم، لكن خطه اتسم في المرحلة بتقليد خطوط مدرستي الخطاطين التركيين: حافظ عثمان (١٦٤٢ ـ ١٦٩٨م) ومصطفى راقم (١٧٨٧ ـ ١٨٢٥م).

وفي عام ١٩٠٦م أنهى حامد هذه المرحلة التي تؤهله لدخول الجامعة فأخذ طريقة إلى إستانبول، وكان هدفه الأوّل الإفادة بقدر الإمكان من الخطاطين في عاصمة الدولة العثمانية، انتقل حامد إلى إستانبول، والتحق بمدرسة الحقوق، إلّا أنه بعد سنة واحدة من الدراسة ترك حامد مدرسة الحقوق ليلتحق بمدرسة الصنايع النفيسة (. أكاديمية الفنون الجميلة بإستانبول الآن). وكان والده يرسل إليه ثلاث ليرات ذهبية كل شهر. لكن حامداً لم يستطعْ الاستمرار في دراسته نتيجة لوفاة والده بعد عام واحد من دخوله هذه المدرسة أي عام ١٩٠٨م.

ترك حامد دراسته الجامعية تماماً لأنه كان مضطراً للكسب، وظل يعمل بأشياء بسيطة إلى أن أعلنت وزارة المعارف العثمانية عن حاجتها إلى مدرّس للخط بالمدارس، دخل حامد الامتحان وتفوّق فيه لكنه لم يُعينً نظراً لصغر سنه (١٨ سنة في ذلك الوقت) عن سن التعيين القانوني بوزارة المعارف، وكانت عشرين سنة. لكن إعجاب مدير مدرسة تسمّى «كلشن معارف»، بحامد أدى إلى تعيين حامد معلماً للخط في تلك المدرسة، ونجح حامد فيها نجاحاً عظيماً، وكان طلّاب الفصول الأخرى يحضرون دروس حامد، ومن هؤلاء خطاط تركي تتلمذ في هذه الفترة على حامد، هو الخطاط المشهور حليم أوزيازيجي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٤م).

وبعد عام دراسي واحد بهذه المدرسة، انتقل حامد إلى العمل في مديرية مطبعة الرسومات حيث عمل فيها عاماً أيضاً، ثم تمّ تعيينه في مطبعة المدرسة

العسكرية ومنها انتقل ليعمل خطاطاً بمطبعة أركان الحرب العثمانيـة، في المكان الـذي شغـر بـوفـاة الخـطاط محمـد نـظيف (١٨٤٦ ـ ١٩١٣م)، وعمـل فيهـا سبـع سنوات.

وبينما كان حامد يزاول عمله في هذه المطبعة، قامت الحرب العالمية الأولى فسافر ضمن مجموعة جيوش الصاعقة إلى برلين، حيث تلقي دراسة اختصاصية لمدة عام في دائرة الخرائط التابعة للهيئة العامة لأركان الحرب الألمانية، عاد بعـده إلى إستانبول.

حامد: اسم مستعار

أثناء عمل حـامد في مـطبعة أركـان الحرب العثمـانية، رأى أن يفيـد من وقت فراغه بعد انتهاء عمله الرسمي فاستأجر دكاناً صغيراً للخط والزنكوغراف في حيّ جـاغال أوغلو في إستـانبول، ولمـا كان القـانون إذ ذاك ــ كـما هـو اليـوم أيضاً ــ يحرّم على الموظف العام الاشتغال بعمل آخر غير وظيفته الرسمية، فقـد اتخذ خطاطنـا اسماً مستعـاراً بدلاً من اسمـه الحقيقي موسى عـزمي. وكان هـذا الاسم المستعار هو (حامد) الذي اشتهر به خطاطنا فيما بعـد. ومن هذا الـدكان اكتسب حـامد شهـرة كبيرة، أدّت إلى محـاكمته واستقـالتـه من عمله، بعـد أن اكتشف أمره بأنه يعمل بعمل آخر غير وظيفته الحكـومية. ولأن اسم حـامد قـد جلب الشهرة له فقد توجـه إلى الجهات الـرسمية ليغـير اسمه رسميـاً من موسى عزمي إلى حامد. ثم انتقل من دكـانه هـذا حتى استأجـر دكانـاً للخط في شارع الباب العالي بإستانبول حيث ظلّ يعمل به إلى أن مات.

في حديث لحامد ــ قبيل وفاته ــ مع مجلة «كوبرو» روى حامد حكاية عن أعـظم خطوطـه الجوامعيـة، فيقـول: «إنها تلك التي كتبتهـا في جـامـع شيشـلي بإستانبول، قام بتصميم هذا الجامع وبنائه زميلي في الدراسة وصفي بك.

وقام الخطاط التركي العظيم نجم الـدين أوق يـاي بـاختيار بعض آيـات من القرآن الكريم وأتى بها إليّ فاخترت من بينها ما تيسر من الآية الثـامنة عشـرة من سورة التوبة لكي أقوم بعملية تجريبية بكتابتها بالقلم الرصاص. ولكن عنـد

الكتابة الأصلية لم أستطعْ أن أجعل لحرفي الألف واللام وضعاً مستقراً. وأخذت أفكر في مخرج لهذا حتى تعبت، فأطفأت الأضواء وأغلقت عيني فاستغرقت فترة قصيرة في النوم، وبينما أنا كذلك إذا بي أجد وأنا بين الحلم واليقظة حرفي الألف واللام يأتيان أمامي ثم يأخذان الشكل المناسب لهما، فقمت من نومي فوراً متحمساً مضطرباً، وأشعلت المصباح وأكملت ما أشكل عليَّ.

ولحامد أعمال فنية خطية كثيرة يصعب إحصاؤها. أهمّها كتابة خطوط القرآن الكريم مرتين: واحدة منهما طبعت في كل من تركيا وألمانيا. وكان حامد يعتبر نفسه محظوظاً إذ كتب خطوط القرآن الكريم كله. ومن بين الجوامع التي كتب حامد خطوطها جامع قوجه تبه بأنقرة، وجامع موضه في إستانبول حيث كتب فيه سورة الفتح، وجامع قارتال بإستانبول حيث كتب خطوط سورة النبأ.

وأشهر الطغراءات التي كتبها حامد، ثلاث: طغراء السلطان عبد الحميد الثاني سلطان الدولة العثمانية وطغراء الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية، وطغراء الإمبراطور رضا شاه بهلوي شاه إيران.

كما كتب حامد خطوط عناوين كتب كثيرة وشواهد قبور وأشعار مختلفة وبطاقات أفراد (كارت يحمل اسم شخص ووظيفته).

على أن أهم ما كان يعجب به حامد شخصياً من أعماله: لوحة خطوط سورة الفاتحة التي قلّد بها خطوط سورة الفاتحة للخطاط راقم، واستغرق حامد في خطها ستة أشهر كاملة.

ولحامد تلامذة منتشرون في أنحاء العالم تلقوا منه فن الخط، نسوق منهم الأمثلة الآتية في تركيا: حليم ـ حسن جلبي ـ خسرو صوباشي ـ أحمد فاتح ـ وفي البلاد العربية: الخطاط هاشم البغدادي ـ يوسف ذو النون ـ علي الراوي ـ مروان الحربي ـ السيدة جنات الموصلية. وفي اليابان: السيدة ميناكو.

توفي حامد بعد أن عولج فترة طويلة في مستشفى حيدر باشا النموذجي

في إستانبول. خرجت جنازته من جامع شيشلي الذي كان حامد يفخر دائماً بكتابته لخطوطه، ووُوريَ جسده التراب في يوم ٢٠ مايو ١٩٨٢م. وشارك في تشييع جنازته تلميذه الخطاط المشهور حسن جلبي وتلميذته الخطاطة إينجي بش أوغلو، وتلميذه رجل الأعمال والخطاط ضيا آيدين، والخطاط الصيدلي أوغور درمان، والمؤرخ إبراهيم القونوي ومفتي إستانبول صلاح الدين قايا، ومعمّر أولكر المدير العام للمكتبة السليمانية بإستانبول.

دفن حامد تحت قدمي شيخ الخطاطين حمد الله أفندي وكانت وفاة حامد عن واحدة وتسعين سنة.

(ب)

الآدَابُ

(١) السلاطين الشعراء.
(٢) محمد الفاتح أديباً شاعراً حامياً للحضارة.
(٣) صفات العرب في التراث الأدبي العثماني.

(١)

السلاطين الشعراء في الدولة العثمانية

● أعترف أنّ الذي وجّهني إلى كتابة هذا الموضوع أمران. الأول: الاهتمام المثير به الذي رأيته في المؤتمرات الأدبية الدولية التي كان لي حضورها. والثاني: الادعاء السائد في البلاد العربية والقائل بأن سلاطين آل عثمان، فيهم جهل وبداوة وابتعاد عن الأدب والحضارة. وسأحدّد موضوعي هذا بفترة واحدة من التاريخ الأدبي العثماني، فترته الأولى وتسمى بعهد القوة. كما سأحدّد التحدّث فيه بالسلاطين فقط دون الأمراء. وأستشهد في البداية بمقولة رائد الدراسات التركية في مصر والعالم العربي الدكتور حسين مجيب المصري في كتابه «تاريخ الأدب التركي» ـ القاهرة ١٩٥١م :

«لست تركياً فأتعصّب للترك وأكرمهم فوق مقدارهم لكني أخذت من أدبهم بطرف فوجدته جيداً يستحق منا أن نرويه ونتفاوضه، وساءني أن يكون منسياً مسكوتاً عنه.. وفي تاريخ الأدب التركي ما نعدمه في غيره من الآداب قديمها وحديثها، فقد كان من السلاطين والأمراء شعراء يبلغون العشرين عدّاً، ولبعضهم دواوين كبيرة، وللآخرين أشعار جياد، فقربوا العلماء والأدباء، ورفعوا منازلهم وأجروا عليهم رزقاً حسناً». ●

* * *

والسلاطين الشعراء من آل عثمان الذين كانوا في هذه الفترة التي حددتها، أربعة، تعاقبوا على العرش العثماني، هم: السلطان سليمان القانوني فاتح بغداد وبلغراد ووالده السلطان سليم الأول فاتح الشام ومصر، ووالده

السلطان بايزيد الثاني الملقّب بالولي لقلّة حروبه، ووالده السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية (إستانبول)، ووالده السلطان مراد الثاني.

* * *

لن نذكر مراد الثاني (١٤٠٢ ــ ١٤٥١م) هنا على أنه الرائد الذي لعب دوراً في تطور الدولة العثمانية، ولا على أنه صاحب النصر في واقعة وارنة، ولا على أنه قائد النصر في قوصوه، ولا عن عقله الحكيم في الحرب والسلم، ولا عن عدله وجهاده الذي تحدّث بهما مؤرخنا ابن تغري بردى، لكننا نذكره هنا على أنه أول سلطان في آل عثمان ينظم الشعر ويؤدي دوراً هاماً في تطوير الأدب التركي العثماني، فقد كان رأيه في اللغة الأدبية أن تكون بسيطة في مفهومها، يتقبّلها الناس بفهم. لذلك جاءت أشعار السلطان مراد الثاني سهلة بسيطة: (ومراد الثاني وإن كان مقلاً وكان ما لدينا من شعره قليلاً، لصاحب فضل على الأدب والشعر لا يجحد، لأن نعمه حلّت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين في كل أسبوع ليقولوا ما عندهم، ويأخذون بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح، وكثيراً ما كان يسدّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفة لهم تدرّ الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء.).

ويذكر تاريخ الأدب العثماني أنّ السلطان مراد الثاني كان يحمي حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة التركية، ويشجع هذه الحركة ويغذيها. ويقول البعض إنه حول القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية ووصل به الأمر أن كان الشعراء يصاحبونه في حروبه.

وترك مراد الثاني وصيته شعراً، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألاّ يبنى شيء على مكان دفنه، فكتبها شعراً ليقول: فليأتِ يوم يرى الناس فيه ترابي.

* * *

مات هذا السلطان الشاعر ليخلفه ابنه الشاعر السلطان محمد الفاتح، ووصف مؤرخو الأدب العثماني أنّ الفاتح (راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد، حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء وعرف بأبي الفتح لأنه غلب على إمبراطوريتين، وفَتَح سبع ممالك واستولى على مائتي مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة، فعرف كذلك بأبي الخيرات.).

كان الفاتح يجيد عدة لغات، وإجادته للغة العربية تفوق اللغات الأخرى، ويداوم على المطالعة في كتبها حتى قيل إن جمهرة الكتب في مكتبته الخاصة كانت عربية.

وكان الفاتح يعنى بالأدب عامة والشعر خاصة. وكان يصاحب الشعراء، ويصطفيهم وكذلك العلماء، واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا ومحمود باشا وقاسم الجزري باشا، وهؤلاء شعراء، ووظف الأرزاق لثلاثين شاعراً، وكان يرسل مالاً جزيلاً في كل عام إلى الشاعر الهندي خواجه جهان وإلى الشاعر الفارسي جامي.

يقول المؤرخ العثماني القديم لطيفي إن (كان الفاتح إذا سمع بعالم متبحر متفرّد في فن من الفنون في الهند كان أو في السند، استماله بالإكرام ونفحه بالمال، ومنّاه من المراتب والمناصب بكل عزيز المنال، فحبّب العلماء أن يزايلوا أوطانهم ويفدوا عليه. ومن المتعارف المشهور أنه استقدم العالم الكبير علي قوشجي السمرقندي وكانت له في الحكمة والفلك شهرة، استقدمه الفاتح من ديار العجم وقدّر له ألف آقجه على كل مرحلة من مراحل سفره، وأكرمه إكراماً ووقره توقيراً).

الشاعر السلطان محمد الفاتح شاعر ذو ثقافة عالية فقد ملك ناصية الثقافة العربية، وناصية الثقافة الفارسية، وناصية ثقافته التركية. كما كان على اطلاع منظم مدروس بالعلوم الإسلامية وبالفكر الإسلامي، وبالفكر اليوناني. وتقول كتب الأدب التركي إن الفاتح كان على موهبة ودراسة في العروض وفي القافية. في شعر الفاتح جمال لا يحتمل المراء لأن معناه يسبق لفظه. أما العلوم

العامة فقد كان فيها هذا الشاعر السلطان متضلعاً: في الفلك والطب والرياضيات والكيمياء. والمؤرخون العسكريون يعرفون أنه كان له دور المخطط لأول وأكبر عمل عظيم له، ألا وهو فتح القسطنطينية.

أجاد الشاعر الفاتح الاستفادة من مجموعة العلماء والمشايخ الذين ترك لهم والده رعايته. والفاتح أول سلطان عثماني يتخذ له اسماً شعرياً يستخدمه في أشعاره، وقد سمّى نفسه (عوني)، وفي أشعاره جمال، وأشعاره تعكس رقّة إحساسه ومشاعره كما تعكس تكوينه الديني. وفي أشعاره نجد التواضع والذكاء الحاد وجزالة الكلمة وبساطتها.

شكّك المستشرق الإنجليزي جب في وجود ديوان شعر للسلطان محمد الفاتح، إلّا أنّ المستشرق الألماني ج. جاكوب، نشر أشعار الفاتح في برلين عام ١٩٠٤م بعد أن استخرجها من مجموعة محفوظة في قصر الكتاب بجامعة أوبسا الملكية. وقام التركي كمال أديب بنشر أشعار الفاتح في أنقرة عام ١٩٤٦م مع تصويرها من مخطوط تركي بخط تعليق موجود في مكتبة ملّت بإستانبول.

كان الفاتح يركب دائماً على حصان أبيض اللون، ولعل هذا راجع إلى مزاجه الشعري، ويُردّ إلى هذا أيضاً تمثله عند فتحه القسطنطينية ببيت شعر فارسي، هو: (البوم تنعق على قباب الأكاسر، والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر). مع أنه في شعره المنظوم بلغته التركية يقدم شعراً راقياً رائقاً. ومشهور بيته:

نيّتي، الامتثال لمعنى «جاهدوا في سبيل الله»
وحماسي، ليس إلّا حماس لدين الله.

* * *

مات السلطان الشاعر الفاتح ليخلفه في الملك ابنه الشاعر السلطان بايزيد الثاني، وهو الابن الأكبر للفاتح. كان والياً على أماسيا في فترة حكم والده. وأماسيا مركز وقتذاك من مراكز العلم. وكان أميرها بايزيد يجمع من

حوله العلماء والشعراء إلّا أنه كان يميل مع هذا إلى فن تحسين الخطوط العربية. وعندما انتقل إلى العاصمة إستانبول سلطاناً على دولة آل عثمان، انتقل إليها ومعه خطّاط العصر الشيخ حمد الله وصاحبه أيضاً الشعراء من أصدقائه ومعارفه. وكان عهد بايزيد الثاني عامراً بالخيرات متصفاً بالإعمار. وأسّس هذا السلطان الشاعر حيّاً سكنياً في العاصمة إستانبول القسطنطينية ما زال يحمل اسمه حتى الآن.

كان السلطان بايزيد الثاني عالماً في العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالماً في الفلك، مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء. وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً. ويمتاز شعر السلطان بايزيد الثاني بعمق الإحساس الديني والتعبير بلغة تركية بسيطة وطبيعية، وله أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله. وفي ذلك يقول:

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة في الأشجار
انظر إلى قدرة الله الحق.. انظر إلى رونق الأزهار
وافتح عينيك لتشاهد حياة الأرض بعد الممات.

ويقول في قصيدة أخرى:

يليق الخلق بالخالق
ويليق الاستجداء بي أنا السلطان
ذلك لأنك أنت ملجأ الإنسان
فمن غيرك يجدر إليه الالتجاء.

* * *

وخلف هذا السلطان الشاعر، ابنه الشاعر السلطان سليم الأول المعروف بفاتح مصر والشام، وكان اسمه الشعري الذي استخدمه في قصائده هو (سليمى)، وكان سليم شغوفاً بالشعر والشعراء وبالعلم والعلماء. استصحب معه في حملته على فارس الشاعر جعفر جلبي؛ والشاعر ابن كمال باشا معه في

حملته على الشام ومصر، وجعل ولاية كردستان للمؤرخ الشاعر إدريس البدليسي. وكان من عادته استصحاب العلماء والشعراء معه في حملاته.

والشاعر السلطان سليم الأول في رأي الأستاذ الدكتور حسين مجيب المصري شاعر رقيق، غير أنه نظم شعره بالفارسية لغة الثقافة والأدب الرفيع في عهده، وقيل: لم يكن في زمانه من شعراء الفارسية من يجيد مثل إجادته. وهو في شعره باللغة الفارسية يتلو تلو حافظ الشيرازي أشعر شعراء الفرس.

كان الشاعر السلطان سليم الأول يجيد إجادة تامة اللغة العربية ويشتغل بآدابها، كما كان شاعراً في الفارسية ويشتغل بآدابها أيضاً. واهتم أيضاً بآداب آسيا الوسطى حتى أنه نظم نظيرة لشاعر تركستان الكبير الوزير مير علي شيرنوائي. وفي قول أن الفكر يغلب على شعر سليم الأول أكثر من النظم، وهذا القول ذهب إليه الأستاذ نهاد سامي مؤرخ الأدب التركي المعروف وصاحب كتاب تاريخ الأدب التركي المصور.

وقام المستشرق الألماني باول هورن بطبع ديوان السلطان سليم الأول الذي يضم القصائد التي نظمها سليم باللغة الفارسية في طبعة أنيقة بأمر من الإمبراطور الألماني غليوم، لإهدائه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٤م رمزاً للصداقة العثمانية الألمانية ثم قام المؤرّخ الأدبي التركي الدكتور علي نهاد طارلان بترجمة الديوان الفارسي هذا للشاعر السلطان سليم الأوّل، إلى اللغة التركية عام ١٩٤٦م وقام بنشره في إستانبول.

كان الشاعر سليم الأوّل جندياً قوياً كما كان شاعراً مجيداً وقد عبّر هو عن طبيعته في بيت شعر باللغة الفارسية قال فيه: إن الأسود لترعدها سطوتي، فما لعيون الظبي تضويني وتصميني».

* * *

تولى الشاعر السلطان سليمان بن سليم الأوّل خليفة لوالده، ولُقِّب بالقانوني وعاش حياته في السلطة وهي ستة وأربعين سنة في جهاد مستمر حتى أنه مات أثناء حصاره لقلعة سيكتوار في المجر، وقد قال عنه ضيا باشا: (أدبه

والده فأحسن تأديبه. وهل يخرج من جوهر إلاّ جوهر، فأرسى من الدولة أساس البنيان، كما نهض بالأدب والبيان، ودان الناس في السلطنة، كما دان العظماء له في كلامه. ولئن فتح البلاد بحسامه، لقد أسر النفوس بفضله وإحسانه).

وقد أسمى السلطان سليمان القانوني نفسه في أشعاره باسم (محبّي) ويغلب على أشعاره رقة الأحاسيس ووضوح الفكر. وديوانه باللغة التركية مطبوع باسم (ديوان محبّي). ومع ذلك فله نظم باللغة الفارسية. وشعره فيه ميزة وضوح المعنى وقلّة العناية بزخارف اللفظ، ومن ثم فهو صورة صادقة لنفسه وهو في شعره، يبدو هادئاً رقيقاً.

لقد أحبّ السلطان سليمان القانوني زوجته حباً ملك عليه فؤاده، واستعير من الدكتور مجيب المضري ـ وهو شاعر أيضاً ـ ترجمته لشعر القانوني في زوجته (لما صوّرك مصوّر القدرة فأبدع تصويرك، حار فيك كل وهم وهام فيك كل خيال. وإذا خطرت في البستان، فلا قدّ للسرو بجانب قدّك. وإن حمر الورود لتنشق حسداً إذا تحركت شفتاك بكلمة. لقد خلبت لبّي، فبالله كيف أصيب جميل صفاتك).

ومع هذا فللقانوني أشعار يغلب عليها الزهد والتفكر، وأشعار يغلب عليها خضوع العبد لربه. من ذلك:

ليس على وجه الأرض إلاّ طالب للثراء والهناء
ولا هناء إلاّ في برهة من عافية
مهما كثرت أعوامك وامتد بك عمرك
فلن يبلغ ساعة من عمر هذا الفلك الدّوار
وإذا ما شئت الحياة من رغد ودعه
فاقطع الرغبة عن دنياك. ولن تجد السلام
كما تجده في ركن عزلتك.

وقال أيضاً:

فلننشر الراية العظمى ونردد اسم الله

ولنسيّر الجيوش نحو الشرق.
فرض الله علينا حماية الإسلام
فلماذانخلد للراحة فنحمل الذنوب
إني آمل أن يحسن تمثلنا لقيادة أبـي بكر وعمر
أيها الشاعر محبّـي: سر، وسيّر الجيوش
نحو الشرق من الحدود.

وبوفاة الشاعر السلطان سليمان القانوني ١٥٥٦م على ظهـر جواده، أثنـاء حصاره قلعة سيكتوار بالمجر، ينتهي ما نعرفه بعهد القوة في الدولة العثمـانية وهي الصفحة التي أشرنا فيها إلى سلاطينها الشعراء.

(٢)

محمد الفاتح

أديبا شاعرا حاميا للحضارة

● هو السلطان الشاعر محمد الثاني (١٤٣١ ـ ١٤٨١م)، السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان. يُلقب بالفاتح وبأبي الخيرات. حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزةً للمسلمين. اشتهر بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م. وهو عبقري في الإدارة وفي السياسة وفي الحرب، عالي الثقافة مُتسع الحصيلة العلمية. شاعر وأديب وحامٍ للحركة الأدبية في عهده، ليس فقط في دولة آل عثمان المترامية الأطراف، بل في العالم الإسلامي كلّه، وحامٍ للحضارة الإسلامية. ●

والحديث عن الفاتح في اللغة العربية كثير، كقائد إسلامي مبشّر بالحديث النبوي الشريف: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش». لكن بعض الكتّاب العرب قالوا عن الفاتح أن لم يكن لديه نصيب من أدب ولا علم له بحضارة. وأقدم هذاالموضوع بغية إبراز الجانب الأدبي والحضاري للسلطان الفاتح وهو جانب يحسن معرفته.

تقول موسوعة اللغة التركية وآدابها في معرفة الفاتح بلغات عصره وثقافاته: (إنه كان على معرفة واسعة بالآداب والرياضيات والفلك والكيمياء. كان عالماً بالفلسفة الإسلامية محيطاً بالفلسفة اليونانية. أمّا اللغات التي كان الفاتح ضليعاً فيها فكانت لغته العثمانية، واللغة العربية، واللغة الفارسية من لغات المسلمين. أمّا من لغات أعدائه فكان يجيد اللاتينية واليونانية والسلافية والعبرية). (موسوعة اللغة التركية وآدابها، إستانبول ١٩٧٧م).

أمّا في الآداب، فقد كان الفاتح عالماً بآداب اللغة العربية والآداب الفارسية. درس ذلك دراسة منتظمة، كما استفاد في هذا الجانب من مجالس الأدب التي كان يعقدها ويديرها هو بنفسه في قصره، ويحضرها أساطين شعراء عصره في الدولة العثمانية مثل أحمد باشا، وسنان باشا، ونجاتي، ممن أسهموا في رقي شعر اللغة العثمانية ونثرها.

الفاتح الشاعر

يقول عاشق جلبي في كتابه: «مشاهير الشعراء»: «إن السلطان محمد الفاتح كان أوّل من رتّب ــ من بين السلاطين العثمانيين ــ ديواناً فيه أجمل الغزليات والقصائد والقطع الشعرية» ومعنى هذا أن الفاتح كان أوّل شاعر في البيت العثماني، والشعراء في هذا البيت كثيرون ما بين سلطان وأمير.

لغة الفاتح الشاعر تعتمد على اللغة العثمانية الكتابية التي أخذت تكاملها في القرن الخامس عشر الميلادي. وكان حريصاً في شعره على الجمال الخارجي للمصراع ــ وهو وحدة القصيدة العثمانية ــ وسلامته. وامتاز الفاتح الشاعر باستخدام المضمون والمفهوم استخداماً ناجحاً. ويكثر في أسلوبه استخدام المحسنات اللفظية وكان هذا من سمات الشعر العثماني في عصر الفاتح. إلاّ أن خصوصيات الفاتح الشاعر تتجلى فيما يقوله الناقد الأدبي التركي وصفي ماهر: «يمكننا اعتبار الفاتح الشاعر واحداً من أهم الشعراء في عصره، فلغته وتعبيراته قوية بالدرجة اللازمة للقوة، وإن كان ديوان الفاتح صغيراً، إلاّ أن ما فيه من أشعار يُكسب الفاتح صفة الشاعرية ومضموناته كلاسيكية قوية تعلو على التقليد والاتباع».

ويضيف وصفي ماهر قائلاً: «إن الإحساسات المادية هي الحاكمة أكثر في شعر الفاتح، وهو وإن كان شاعراً ليس غنائياً بدرجة كبيرة، إلاّ أنّه يجيد نظم أبيات جزلة مصنعة بفنون اللفظ والمعنى. والفاتح كثيراً ما يكون مثل أي شاعر من شعراء عصره، يفكر مثله ويتحسّس مثله، ومع هذا فيمكننا ملاحظة الروح

السامية ذات الحيوية البالغة في أشعاره. وفي أسلوب الفاتح الشعري وفي أدائه. نجد النضج الوقور، ذلك النضج الذي يجعله قريباً من الشاعر العظيم شيخي. وإني أجد أن أشعاره القليلة التي يحتويها ديوانه لدليل آخر على ناحية عبقرية من نواحي الفاتح العبقرية المتعددة الميادين.. (وصفي ماهر، تاريخ الأدب التركي الكبير، أنقرة ١٩٧٠م).

إلّا أن نهاد سامي صاحب كتاب تاريخ الأدب التركي (إستانبول ١٩٧١م) يحاول أن يجد عذراً للفاتح في قلة ما نظم من أشعار فيقول: «لو كان الفاتح استطاع أن يخصص وقتاً لفن الشعر لكان من الممكن أن يكون شاعراً يتصدر قائمة أحسن الشعراء في عصره. ذلك لأنه لم يكن من السهل نظم الحكام للشعر في عصر حفل باسماء قادرة على دفع الأدب وفن الشعر مثل أحمد باشا وسنان باشا ونجاتي.

وهنا ينبغي القول بأنه لم يكن من السهل أن يكون الإنسان شاعراً في الأدب العثماني في ذلك العهد إلّا إذا كان له ـ بجانب الموهبة ـ قدرة ثقافية عالية. فمن ناحية كان لا بدّ للشاعر العثماني ـ أي شاعر ـ أن يكون مطلعاً على الآداب التركية والأدب العربي والأدب الفارسي معاً، اطلاعاً واسعاً. بالإضافة إلى ضرورة معرفته للعلوم الإسلامية والفلسفة والأساطير الشرقية، وبالطبع المعرفة التامة بالعروض والوقوف على دقائق الفصاحة والبلاغة. كان على الشاعر العثماني ـ أي شاعر ـ أن يكون على درجة إلمام بعلوم عصره من الفلك إلى الطب والرياضيات والكيمياء، إلماماً يجعله قادراً على ملاحظة انعكاسات هذه العلوم في الشعر، وأن يغذي بها شعره. إن نظرة إلى الشعر العثماني تؤيد مقولتنا هذه.

إن غزليات الفاتح تفصح عن رقة روحه الكامنة في مزاجه الحاد وقت الحرب والضرب، كما تفصح في نفس الوقت عن الجمال الكامن في تكوين الفاتح، كإنسان محبّ، وأشعار حب الفاتح فيها تواضع عظيم ورقة تعلي قيمة الحب والمحبوب فوق كل سلطنة وعرش وهو حب رمزي.

وفي أشعار الفاتح نستطيع معرفة ثقافته التاريخية الواسعة وثقافته العامة أيضاً. كما نلمس في أشعاره حُسن فهمه للقرآن الكريم، وسيرة رسول الله ﷺ، وقصص الأنبياء.

وكانت النظائر الشعرية شائعة في عصره، وكان له بدوره نظائر قيِّمة يناظر بها أحمد باشا ومليحي.

ديوان الفاتح

وديوان الفاتح يُسمى ديوان عوني، وعوني هو الاسم الشعري الذي اتخذه الفاتح في نظمه لأشعاره، هذا الاسم الشعري يُسمى «المخلَصْ» عند العثمانيين. وديوان عوني، أي ديوان السلطان محمد الفاتح، كان مجهولاً حتى اشتغل به المستشرق الألماني جورج جاكوب، فقد جمع هذا المستشرق إحدى وعشرين قصيدة للفاتح من قصائده التي كانت متناثرة في تذاكر الشعراء العثمانيين، ووجد جورج جاكوب مجموعة خطية لأشعار للفاتح ضمن مجموعة في مكتبة أوبسالا الملكية، وكوّن منها ديواناً للفاتح نشره في برلين عام ١٩٠٤م.

بعد ذلك عثر علي أميري على نسخة مخطوطة وحيدة عليها عبارة «ديوان سلطان محمد رحمه الله» فنشرها عام ١٩١٨م. ثم ظهر ديوان الفاتح بالحروف اللاتينية التركية عدّة مرات، أشهرها ما نشره أحمد آي موطلو بعنوان الفاتح وأشعاره (إستانبول ١٩٥٩م).

من شعر الفاتح

والغريب أن الفاتح ـ وهو شاعر له مكانته في الأدب العثماني ـ لم يقل شعراً بلغته هو عند دخوله القسطنطينية مظفراً، بل استشهد وتمثل ببيت شعر فارسي، ترجمه الدكتور حسين مجيب المصري في كتابه تاريخ الأدب التركي (القاهرة ١٩٥١م) كما يلي: «البوم تنعق على قباب الأكاسر، والعنكبوت تضرب نسيجها على قصور القياصر».

والدكتور مجيب يترجم بأسلوب بليغ بعض أشعار الفاتح، منها:

«أنا عبد لسلطان من عبيده
سلاطين هذه الدنيا،
ونور شمسه يُبهر الضحا،
وإذا ما قتلني بالسهم أو أهداب العيون،
فسواء على القتيل فتكه الحسام أم قتله السهام».

ويقدّم الدكتور مجيب نموذجاً ثانياً من شعر الفاتح فيترجمه كما يلي:
«هذا البستان إلى ذوي وذبول،
وإذا ما وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض
أنا إن شاهدت هذا الجميل ضاع الزمام من يدي فغلبت عليّ تقواي وزهدي
ألَا لا يغرنك هذا الحسن يَا مَنْ تتيه علينا بالحسن
ومتى دام للجميل جمال؟ فالوفاء لنا الوفاء».

لكن الدكتور مجيب يستدرك بقوله: «أما الغزل الثاني فنغمة سوف تطرق سمعنا طرقاً خفيفاً رتيباً عند الجمع الغفير من الشعراء».

ويقدم عبد الوهاب عزام في «طرف من شعر السلاطين» (مجلة الرسالة مارس ١٩٣٣م) بعض أبيات لبعض شعراء من سلاطين آل عثمان ترجمها إلى العربية بمقدمة من فقرتين قال في الثانية: «وقد يشوّق القارىء أن يسمع إلى السلاطين يتحدثون عن سرائرهم ليرى أن الدولة والسلطان لا يرفعانهم عن مستوى الآلام والآمال» ثم يترجم للفاتح تسع مصاريع:
«سيذهب البستان من اليد
سيأتي الخريف وتذهب الحديقة والربيع من اليد
أيها الحبيب! أوف بالعهد، ولا يغرنك الجمال والنضرة
يا ملكي، قد جعلتني أسيراً في سلسلة طرّتك
ويا رب لا تحررني من هذه العبودية، جور
الحبيب، وطعان العدو، وحرقة الفراق،

وضعف القلب.
لهذه الألوان من الآلام خلقتني يا رب!
قد اجتمع على إحراقي وهدمي
حرقة القلب، ونار الآهات، ودمع العين».

وهذه الأشعار من ديوان الفاتح استهوت عزاماً ومجيباً فقاما بترجمتها إلى اللغة العربية، وقد يكون مرَدّ ذلك أن كليهما شاعر. لكن الناقد التركي وصفي ماهر يعجب بأبيات أخرى يوردها في كتابه السابق الذكر، ومن هذه: «ضفيرتك السوداء يا حبيبتي تحوّل دون تمتعي برؤية خدّكِ، وشعرك الأسود هذا ليلة ديجورية، بل الشمس التي لا يراها عوني. قلبي الدامي يملأه الشوق لرؤية وجهك الوردي الذي هو ماء جار يسير ورق الورد من فوقه».

والأديب التركي أحمد قاباقلي، تعجبه أبيات من شعر الفاتح يوردها في كتابه تاريخ الأدب التركي (الطبعة الخامسة، إستانبول ١٩٨٠م)، منها: «رأيت ملكاً شمسي الوجه، والعالم كله، قمرٌ، له. وآه من شعرك الأسود هذا آه، إنه آهة العاشقين. لن أكون عبداً عندما يكون ذلك السلطان مالكاً تاجي».

وإذا كان هؤلاء الكُتّاب من عرب ومن ترك، قد أعجبوا بأبيات يبدو الفاتح فيها بعيداً عن ميدان الحرب وميدان الإدارة، لا يبدو فيها محارباً شديداً، بل محباً رقيقاً، وإنساناً شاعراً، فيطيب لي أن أقدّم لقراء العربية ترجمة نثرية لبعض شعر الفاتح في الدعوة الإسلامية، ومن ذلك:

نيّتي: امتثالي لأمر الله «وجاهدوا في سبيل الله».
وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله
عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي: جند الله
وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله
جهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله
وأشواقي: الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله
رجائي: في نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله

إكرامه للشعراء

يقول لطفي في تذكرته، عن الفاتح: «كان «الفاتح» إذا سمع بعالم متبحّر متفرد في فن من الفنون، في الهند كان أو في السند، استماله بالإكرام، ونفحه بالمال، ومناه من المراتب والمناصب بكل عزيز المنال».

ويقول قينالي زاده حسن جلبي في تذكرته المخطوطة بمكتبة مِلّتْ في إستانبول عن الفاتح: «كان يصاحب شعراء زمانه، ويظهر الميل والرغبة الكلية نحوهم».

وكان الفاتح يرسل مالاً جزيلاً في كل عام إلى الشاعر الهندي خواجه جهان وإلى الشاعر الفارسي جامي. كما وظف الأرزاق ـ كما يقول الدكتور مجيب ـ لثلاثين شاعراً. وكان يصطفي بعض وزرائه من الشعراء. وكان يتحمّل مضايقات الشعراء، ودلالهم.

وقال الأديب التركي المعروف نامق كمال، عن الفاتح: «كان يميل إلى الشعر ميلاً جارفاً، ولم يكن شعراء المسلمين فقط مظهراً لعظيم إحساناته، بل كان شعراء الغرب أيضاً كذلك. حتى إن شاعراً لاتينياً قدم للفاتح قصيدة، فما كان من الفاتح إلاّ أن كافأه بإطلاق عدّة أسرى من لحمة هذا الشاعر».

(٣)

صفات العرب في التراث الأدبي العثماني

● (ولقد أتتنا مذمة الترك من قديم، لأن الأوروبيين ظلوا حيناً من الدهر كارهين لهم مشفقين من فتوحهم التي وصلت بهم إلى أبواب فيينا، فوصفوهم بالهمجية والبربرية وضربوا الأمثال بغلظتهم وصعوبة مراسهم). (.. ومقت الأتراك والتعصب عليهم، ندركه في يُسر ووضوح من قول نولدكه أن ظهورهم في الحضارة الإسلامية يعتبر نكبة قل نظيرها في التاريخ).

(ولا حاجة بنا إلى تبيان ما في كل هذا الكلام من باطل وتخرص، ولكننا نريد لنقول أن قوماً يتحاملون على الترك مثل هذا التحامل لا يمكن إلّا أن يجحدوا حسناتهم وينكروا عليهم أن يكونوا أهل علم وأدب وحضارة). ●

* * *

هذه عبارات الدكتور حسين مجيب المصري، رائد الدراسات التركية في مصر والعالم العربي في كلمة وجهها إلى المهتمين بالدراسات التركية. (القاهرة ١٩٥١م). بعد أن وجد أن من يكتب عن الأتراك من العرب يعتمد على ما يكتبه الأولأوبيون، فينسى حب الترك للعرب، وتخرج كتاباته حقداً وضيقاً شعر بذلك أو لم يشعر.

* * *

ويهدف هذا المقال إلى وضع خطوة في طريق معرفة العرب بالأتراك، ليعود الحقد المصطنع حُباً، والضيق الخاطىء مودةً، بين شعبين صنوين في منطقة واحدة وتاريخ واحد وحضارة واحدة.

الأمثال التركية التي تضرب طويلاً في التراث التركي وتمدح العرب، كثيرة، وصفات العرب مثبتة في الآداب التركية فهم أي العرب «قوم نجيب عرب» بمعنى أن العرب قوم نجباء «وصفات العرب من كرم وشهامة ومحافظة على العرض والجوار واتسامهم بالفروسية والنجابة والأخلاق الكريمة موجودة هنا وهناك في الأعمال الأدبية التركية والعثمانية مثل حُسن وعشق للشاعر العثماني الكبير (غالب). إلاّ أنني رأيت أن أحدد إطار مقالتي هذه على ما وصف به الشاعر عبد الحق حامد، العرب، في ثنائيته المسرحية الشعرية فتح الأندلس. وأضيف هنا أن اختياري لعبد الحق حامد، مرده إلى موقعه الخاص في الأدب التركي ومكانته في قلوب الأتراك وهو عندهم (الشاعر الأعظم).

* * *

عبد الحق حامد هو «الشاعر الأعظم» عند الأتراك، وألمع أدبائهم، شاعر غنائي رقيق، وقصاص ومؤلّف مسرحي، حمل القلم ستين سنة أو تزيد. وصفه النّقاد الأتراك بأنه هوميروس وفرجيل». وبأنه شاعر موهوب يمتاز بحرية الفكر. له من المؤلفات ٣٦ عنواناً بين شعر ومسرح وغيره.

ومن مؤلفات عبد الحق حامد مسرحية مكوّنة من جزئين، كل منهما منفصلة عن الأخرى، لكنهما تكملان بعضهما البعض. الأولى نثرية وعنوانها طارق أو فتح الأندلس كتبها عام ١٨٧٩م والثانية بعنوان ابن موسى أو ذات الجمال، وهي مسرحية يمتزج فيها الشعر بالنثر وكتبها عام ١٩١٧م. وهذه الثنائية من أجود مسرحيات عبد الحق حامد التاريخية. ويقول إسماعيل حبيب ـ مؤرّخ الأدب التركي ـ في وصفها، (إنها تمثل فتح الأندلس، وانتهز بها عبد الحق حامد الفرصة فوصف الفضائل السامية التي سادت غزوات المسلمين في أوائل أدوار الدولة الإسلامية العربية). ويعقب بعد ذلك بقوله (أن حامد قد أظهر براعته في حبك خيوط مسرحيته حينما صوّر أبطالها أناساً، كسائر الناس. على الرغم من قيامهم بأعمال إنسانية تفوق القدرة البشرية). أمّا أحمد حمدي فيقول: (إن هذه المسرحية قصيدة شعر في مدح القيَم الأخلاقية التي يمثلها طارق وإخوانه العرب).

وقد اعتمدت في استخراج صفات العرب من ثنائية فتح الأندلس، من ترجمة الأستاذ إبراهيم صبري عليه رحمة الله للثنائية الأولى بعنوان: «طارق أو فتح الأندلس» والثانية بعنوان «ابن موسى أو ذات الجمال» وقد صدرت في القاهرة في مشروع الألف كتاب برقمي ١٣٧ و ٤٠٥.

الأخلاق العربية كما يراها الأتراك

يرى الشاعر الأعظم في الأدب التركي عبد الحق حامد أن من صفات العرب الصدق والثبات، والنشاط والمهابة في الحرب، والهدوء في السلم، والسمو عن النهب والسلب في الغزوات، واللا أنانية في التعامل، وتفضيلهم بعضهم البعض على أنفسهم، وتكريم عزيز قوم ذل.

من صفات العرب هنا أيضاً أنهم يعمّرون ولا يخرّبون، يشيّدون ولا يهدمون. إجماع الأمة عندهم أساس في الحكم. وأنهم قوم لا يأخذون بالظنة، يفضلون المصلحة العامة على المصلحة الشخصية حتى لو كانت عاطفة.

من صفات العرب أيضاً أن المرء منهم لا يخطب على خطبة أخيه. وأن الحكمة دوماً على لسان العربي. والعربي في رؤية الأتراك له: عفيف، عادل في حكمه على أعدائه.

تقول الرؤية التركية أن تربية العربي لابنه قوامها البكور، والصلاة، وتلاوة القرآن الكريم، والفروسية، وركوب الصعاب، والصيام، وحفظ الشعر، والاعتياد على مشاق السفر وضرورة ممارستها في الحضر.

العرب والحرب في فهم الترك

تقول الرؤية التركية للعرب في الحرب أنهم يهدفون من الفتح إلى إظهار قوة الحق وهي من صفات العرب المسلمين، ويهدفون في ذلك أيضاً إلى نشر التسامح وهو أخصّ طباعهم، ونشر حقيقة فيض الإسلام، ومآثر أكابر الإسلام وما يجب على الإنسان أن يقوم به من فرائض العبودية الحقة.

والحرب عند العرب تعني ـ في المفهوم التركي ـ إعلان العدل والإحسان وإقامة العدل والمساواة بين الأمم، وأن مهمة الفاتحين ضمان السلم والصلاح ونشر الفوز والفلاح.

العربي في الحرب ـ كما يراه الأتراك وكما يصوره شاعرهم الأعظم، مثال في الثبات، هائل في الزحف. وأن القضاء على ملوك الكفار ـ لمجرد كونهم ملوكاً معادين ـ أمر مجافٍ للإنسانية والعربي في الحرب لا يتعقّب عدوه المنهزم الهارب.

والعربي إنسان متحضّر ـ كما يصوره الأدب التركي ـ يسلك تجاه الأسرى سلوكاً خلقياً إسلامياً. والعرب المنتصرون يحترمون جثث أعدائهم، والعربي ـ في انتصاره ـ يتجنّب النهب والغضب والظلم والتخريب والقتل. لا يقتل من غير المسلمين من لم يقاتله. يعامل من يقع في أسره أو يطلب الاستسلام معاملة كريمة تليق بالمسلم. والعربي في الرؤية التركية ـ كما في ثنائية طارق أو فتح الأندلس ـ لا يتسلط على أموال أحد ولا يعتدي على حقوق أحد ولا يعتدي على عرض أحد.

والشجاعة النادرة تكون مرادفة للعرب، في الأدب التركي. وفيه أن العربي يحارب حتى لو كان مقطوع اليد أو فاقد الساق. والعرب يعاملون عدوّهم المستسلم معاملة عسكرية سامية ويكون عندهم آمناً سالماً ولا يعتبروه أسيراً قط.

العدالة العربية في التصور التركي

وللعدالة عند العرب مكانة متميزة في التصور التركي. يعبّر عنها عبد الحق حامد في مواضع كثيرة في ثنائيته المسرحية فتح الأندلس. فالخليفة مسؤول عن العدالة في الأقاليم المفتوحة أيضاً ويرسل للمنتصرين أن الأساس في الدولة العربية هو نشر العدل امتثالاً لمفاهيم الإسلام. ويرى الشاعر التركي أن زعماء العرب يمثلون أمام القضاء وأن أعاظم الأمة يرون أنفسهم على قدم

المساواة مع عجزة الناس. ويقول حامد في حوار عبد العزيز بن موسى مع نفسه أنه يشرفه أنه لم يظلم أحد عباد الله الذين حكمهم. ويرى حامد العدالة العربية وقد تمثلت في الأندلس بين أهالي طليطلة عندما استسلموا ولم يعاملهم العرب معاملة الأسرى وأبقوا الكنائس على حالتها الراهنة. وكل يعمل على أصول ديانتهوالناس أحرار في إقامة طقوس دينهم.

المرأة العربية في الرؤية الأدبية التركية

حظت المرأة العربية بمكانة سامية في وجدان الأتراك عامة وفي أدبهم خاصة، فالرؤية التركية للمرأة العربية رؤية إكبار وإجلال واحترام. فالرؤية التركية تعتبرها مجاهدة وأديبة، مخلصة ومتسامية، دينها أهمّ لديها من كل اعتبار آخر، شجاعة، مقاتلة إذا لزم الأمر، تنال احترام العربي وحبّه، ثابتة على الحق والعدل، كريمة أبيّه، مؤمنة بالله راضية بقضائه وقدره، لا تخشى الموت، يخافها الأعداء.

مع هذه الصفات التي عبّر عنها الشاعر الأعظم عبد الحق حامد، والتي تتحلى بها المرأة العربية، لم يغفلت أمير الشعراء التركي أن يعقد في ثنائيته طارق، مقارنات بين المرأة العربية وبين المرأة الأوروبية قبيل الفتح، فتح الأندلس. فرأى حامد أن المرأة العربية لا تقع إلّا إذا ماتت ولا يقهرها إلّا الموت، وأنها امرأة تتردد على المدارس للعلم وتظهر في المعارك للحرب وتجول بين الأعداء في شدة وقوة.

المرأة العربية في الرؤية الأدبية التركية لا يعجبها اللهو والطرب، بل تطرب لأصوات الطبول ونداءات الانتصارات. لا تلبس الأحزمة المرصعة بالأحجار الكريمة بل تتقلد الخناجر والسيوف. والمرأة العربية في الرؤية الأدبية التركية لا تعرف الهوى، بل الجهاد والعمل. لا تستطيع تحمّل منّة من أحد، وهي امرأة لا تفرح وحدها. لا تفرح إلّا مع قومها.

(ج)

الفِكْرُ

(١) شيخ الإسلام مصطفى صبري:

١ ــ حياته وفكره.

٢ ــ موقفه من المؤرخ العربي محمد عبد الله عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان.

٣ ــ بيانه في عدم جواز فصل الدين عن السياسة.

(٢) الشيخ عاطف الاسكيليبي:

١ ــ حياته وفكره.

٢ ــ معاناته واستشهاده.

(٣) أحمد نعيم بابان زاده:

١ ــ حياته وأعماله.

٢ ــ رأيه في الإسلام والعصبية القومية.

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي:

١ ــ حياته وأعماله.

٢ ــ مواقفه الفكرية.

(١)

شيخ الاسلام مصطفى صبري

١ ـ حياته وفكره:

● ظهر هذا العالم الجليل في أواخر عهد الدولة العثمانية والدولة مقبلة على الانهيار ودعاة التغريب في أوج قوّتهم. درس في مسقط رأسه (توقاد) الدراسة الابتدائية، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم، ومن ثم رحل إلى بلدة قيصرية، وكانت مركزاً للعلوم الدينية. وتلقّى دراسة العلوم العقلية والنقلية عن مدرِّسه الشيخ خوجة أمين أفندي. بعد ذلك انتقل إلى إستانبول حاضرة الخلافة الإسلامية.

وفي إستانبول شدّ الشيخ مصطفى صبري انتباه مشايخه بحدّة ذكائه وبقوّة حافظته وعمق تحصيله، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح مدرّساً بجامع السلطان محمد الفاتح، وهو منصب مرموق يحتاج إلى جدّ واجتهاد وتحصيل طويل. ثم أصبح أميناً لمكتبة السلطان عبد الحميد الثاني، وقد لفت انتباه السلطان عبد الحميد إليه بسعة اطّلاعه وبتميّزه وهو في سنّ شابّة بين رجال العلم الدينيين في إستانبول، عاصمة الخلافة ومقرّها ●

رحلة كفاح:

وفي عام ١٩٠٨م، مثل منطقته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني للجهر بآرائه في هذا المجلس النيابي وكان في هذه الفترة رئيساً لتحرير مجلة «بيان الحق» وهي مجلة إسلامية كانت تصدرها «الجمعية العلمية» ثم اصبح عضواً في دار الحكمة الاسلامية.

ودار الحكمة الاسلامية مؤسسة علمية إسلامية أُسست عام ١٩١٨م بأمر من السلطان محمد رشاد: «بغية إيجاد حلول للمسائل الدينية التي تظهر في الدولة العثمانية أو أيّ مكان في العالم، كما تهدف إلى التّصدي بالإجابة على الهجوم الّذي يتعرض له الإسلام، إجابة تنبع من أحكام الإسلام» .

ثم عمل الشيخ مصطفى صبري أيضاً بالسياسة، ولم يكن للسياسة عنده إلّا معنى واحد وهو جعل الشريعة الإسلامية أساساً لإدارة الدولة.

وعندما أتت حكومة حزب الحرّية والائتلاف إلى الحكم عام ١٩١٩م، وتشكلت الحكومة برياسة الداماد فريد باشا أصبح الشيخ مصطفى صبري أفندي شيخاً للإسلام (يلاحظ القارىء أن لقب أفندي لدى الأتراك يطلق على العلميين الدينيين) . .

وعندما سافر رئيس الوزارة إلى مؤتمر باريس تولّى الشيخ النيابة عنه رئيساً لمجلس الوزراء العثماني.

وفي العهد الثاني لهذه الوزارة (عام ١٩٢٠م) جاء الشيخ مصطفى صبري شيخاً للإسلام لكنه اختلف مع الوزراء في الرأي فترك مشيخة الإسلام. ثم سعى إلى تأليف حزب جديد هو حزب الحرّية والائتلاف المعتدل.

إن استقالته هذه كانت بدء مرحلة كفاح أوسع من حياته المليئة بالكفاح، فقد كان الشيخ مصطفى صبري كما يقول صادق آل بايراق: « كان ينادي بالشريعة ويريد إحلال كلام الله محل الحكم في المجتمع » وكان يدافع عن هذا طوال حياته في بلاده وفي مهجره. كان يناضل بمفهومه ضد كل مختلف التيارات الفكرية.

التحدي والتصدي:

ولم يكن بجوار الشيخ مصطفى صبري كادر من الإسلاميين كاف ليتحمل الدفاع عن المفهوم الإسلامي في الحكم وينادي به ويعممه مع الشيخ.

تصدّى الشيخ مصطفى صبري لكل هؤلاء المفكرين والمسؤولين الذين أنجبتهم «حركة التنظيمات العثمانية ومن ثم حركة حزب الاتحاد والترقي التي كانت ترى في الإسلام عقبة كؤوداً ضد التطور وضدّ حركة التغريب الشاملة للدولة العثمانية. لذلك عاداه أنصار التغريب وهم كثرة في موقع السلطة. كان السبب في هذا العداء السافر الذي أظهره المتغربون ضد الشيخ، «أن الشيخ مصطفى صبري أفندي كان يجاهر بآرائه داعياً لفكره عملياً، ينادي به بكل فرصة وفي كل وقت، أمّا الآخرون من الإسلاميين فلم يكونوا قادرين على التصدّي والجهر بالدعوة - بكل هذا الوضوح الذي فعله الشيخ - لفكرتهم الإسلامية». ولأن «الفكر الذي طرحه شيخ الإسلام مصطفى صبري والنضال السياسي الذي قام به لم يكن قد شوهد بين المسلمين لسنوات طوال سبقته» .

تصدّى شيخ الإسلام مصطفى صبري لدعاة الوقيعة بين العرب وبين الأتراك، وتصدّى للدفاع عن مفهوم الإسلام في الحكم. وفي الحياة، كما وقف وقفة رجل ووقفة عالم لمن أرادوا تشوية التاريخ الإسلامي. وتصدّى أيضاً لحملة واسعة شنّها دعاة الفكر الغربي عندما نادوا بخروج المرأة وسفورها. ولم يسلمْ من حملاته هؤلاء الذين تسموا باسم (المسلمون الجدد) وأجاب في كتابه (المجددون الدينيون) على كل آرائهم.

كان يؤدي كل حركة (ما لم تمسّ بالإسلام الصحيح) وكان يتحول إلى مهاجم صعب إذا ما تصرف أحد من معاصريه ضد هذا الذي يؤمن به، يقول الشيخ:

«مع رغبتي المخلصة في أن يصعد المسلمون إلى وجه عالم سعيد، ومع ذلك فإني ألعن الذين يضغطون على ديننا صاعدين إلى عالم عالٍ يمكننا الوصول إليه.

عندما نصعد إلى هذا العالم يجب علينا وفي نفس الوقت أن نمسك الإسلام في أيدينا نلصقه بها ونضعه على رؤوسنا» .

الرحيل والدعوة في اليونان

وفي عام ١٩٢٢م أجبر الشيخ مصطفى صبري على مغادرة بلاده، فهاجر إلى اليونان، حيث جمع المسلمين الأتراك في منطقة (تراقيا) الغربية ووحّدهم، وأصدر هناك جريدة تركية بالحروف العربية سمّاها «يارين» أي الغد تفاؤلاً بغد إسلامي مشرق. وأخذ الشيخ من خلال هذه الجريدة في نقد حركة التغريب في العالم الإسلامي، ونقد المجتمع التركي ونقد النظام الكمالي في تركيا الذي عُرف باسم الحركة الكمالية نسبة إلى مصطفى أتاتورك. وأخذ يحلل المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي وعلى رأسه الدولة العثمانية من جراء أتباع حركة التغريب.

إن في جريدة «يارين» مادة خصبة لدراسة وجهة النظر المعارضة للكمالية من مقالات وتحليلات ودراسات وفكر وأدب.

ثم سافر الشيخ إلى مصر ثم الحجاز ثم مصر مرّة أخرى حيث استقر في القاهرة. وفي العاصمة المصرية أخذ الشيخ ينادي بأفكاره، بالعودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية ويفصل القول في مضار العلمانية، لذلك لم يترك له دعاة الفكر الغربي في مصر وقتاً للراحة. وعندما كان العلمانيون في مصر يصفقون لأتاتورك ولانقلاباته في تركيا قال الشيخ مصطفى صبري:

«إن الفصل بين الحكومة وبين الخلافة، يجرّد الحكومة من كونها حكومة إسلامية. وهذا معناه أيضاً أنّ الحكومة التركية قد خرجت على دينها. إن الاتحاديين ومن أعقبهم قد عملوا كثيراً على نشر الإلحاد بين الأتراك. وقد كان هذا الطريق، هو أقصر الطرق إلى الوصول إلى غاياتهم».

كان الشيخ مصطفى صبري في نظر الكماليين مجرماً أوردوه ضمن قائمة الـ ١٥٠ شخصاً الغير مرغوب فيهم، لكنه في نظر الإسلاميين الأتراك بطلاً، ورغم أن قرارا بالعفو عن قرار الـ ١٥٠ شخصاً قد صدر من بعد، إلا أن الشيخ لم يحب العودة وبقي في مصر إلى أن توفي في القاهرة عام

١٩٥٤م. توفي شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي بعد حياة حافلة بالدفاع عن الفكرة الإسلامية في الحكم والحياة، ولم يعرف المؤرخون عنه أن خشى إنساناً وقد قال كل آرائه رغم كل الظروف الصعبة التي مرّ بها هو وأسرته في وطنه أو في مهجره. مات بعد أن قال لا لكل المسؤولين والكتاب والرأي العام الذي كان مخالفاً له وقتها.

فكر إيجابي:

يمكن إيجاز فكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ثلاث نقاط:

١ ـ استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتغريب الحضاري والخلقي.

٢ ـ التمسك بطريق أهل السنّة والجماعة.

٣ ـ إعادة الخلافة الإسلامية.

أما أعماله فعشرة مؤلفات باللغتين العربية والتركية، أشهرها: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، باللغة العربية، وصدر في القاهرة في أربعة أجزاء عام ١٩٥٠، نشرتها دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة. و«المجدّدون في الإسلام»، باللغة التركية. وصدرت منه طبعة بالحروف اللاتينية أخيراً بعنوان «ديني مجددلر»، عن دار سبيل للنشر، بإستانبول.

٢ ـ موقفه من المؤرخ العربي محمد عبد الله عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان:

قال شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«كان ظني عند مغادرتي تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب التي جاء نور الإسلام إلينا منهم، إني أستريح من مجاهدة الملاحدة (يقصد الاتحاديين والكماليين). لكني وجدت الجو الثقافي بمصر أيضاً مسموماً من تيار الغرب، فشقّ هذا على نفسي أكثر مما شقّ عليّ موقف تركيا الجديدة (يقصد تركيا عقب

الانقلاب الكمالي) من ذلك التيار. كما شقّ وقوفي على أنّ إخواني العرب يفضّلون تركيا هذه (أي الكمالية) على تركيا القديمة المسلمة (أي الدولة العثمانية)، فرأيتهم (يقصد المصريين المتغربين) توغّلوا في تقليد الغرب وسابقوا الترك في الامتنان به. والانقلاب الثائر في تركيا (أي انقلاب أتاتورك) حصل عندهم (أي المصريين) في شكل هادىء، وعن طريق التأثير والتجديد في الأزهر. . .» (موقف العقل ــ صدر عام ١٩٥٠م ــ ج ١ ص ٢٣).

لم يستطع الشيخ سكوتاً على معارضي فكره الإسلامي، لذلك أخذ يفصح بالكتابة في الصحف والمجلات المصرية وكذلك في كتبه عن موقفه تجاه المثقفين المصريين والعرب المتشبّعين بروح الغرب وثقافته، وتجاه الإلحاديين من العرب.

•

ومن هذه المواقف، موقفه من محمد عبد الله عنان. ومحمد عبد الله عنان من أبرز المؤرخين العرب إن لم يكن أبرزهم وأوسعهم شهرة. وهو عالم عُرف بتخصّصه في التاريخ الأندلسي، لكن موقفه من التاريخ العثماني موقف غريب من مؤرّخ. ولا أقول من مؤرخ شرقي ومسلم. إن موقفه من التاريخ العثماني لا يعتمد على مصادر موثوقة. ونُقُوله فيه تعتمد على مصادر تنقصها الثقة، مثال عن ذلك محاضرته في ندوة ابن إياس، إنه مؤرخ لم يتعمّق تاريخ العثمانيين ولم يتقصّ المصادر الأولى في هذا التاريخ. معلوماته مغلوطة. رد كاتب هذه السطور على معلومات وادعاءات محمد عبد الله عنان عن السلطان سليم الأول وكلها مغلوطة، فكاتب هذه السطور، فضلاً عن أنه متخصص في التاريخ العثماني في البلاد العربية قد درس عهد سليم الأول من مصادرها الأولى، ويقول إنها تناقض محمد عبد الله عنان في هذا الصدد.

وفي مجلة «سدير» التركية (عدد أبريل ١٩٨٠م)، لقاء أجرته المجلة مع كاتب هذه السطور حول مشاكل فهم التاريخ العثماني، نقد كاتب هذه السطور في هذا اللقاء مشاكل فهم عنان لتاريخ العثمانيين. في فهم عنان الخاطىء الذي لا يعتمد على مصادر أولية موثوقة، كتب أيضاً الدكتور مصطفى

فايدة، الأستاذ بكلية الإلهيات في إستانبول مقالات علمية في حولية كلية الإلهيات حول ادعاءات محمد عبد الله عنان على التاريخ العثماني.

* * *

نشر المؤرخ العربي محمد عبد الله عنان في مجلة الرسالة عام (١٩٤٠م) مقالة عنوانها: حرب منظمة يشنّها الكماليون على الإسلام، قال فيها: «وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزّ بهذه البقيّة الضئيلة من تركيا القديمة؟».

آذت هذه الجملة شيخ الإسلام، فقال: إن عنان ليس مخلصاً في عدائه للكماليين وإنما «الأستاذ عنان ينضم بعدوانه لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد جديدها (أي تركيا الكمالية) الذي تظاهر (أي صارح) بمعاداته مع قديمها كما يؤيده الغرب الحاشد، وليس الأستاذ (يقصد بذلك عناناً) صميمياً في هذه المعاداة، إنما هو جادّ في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة التي لا بدّ أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام». (موقف العقل، ص ٧٢ ـ ٧٣).

لا بدّ هنا من ملاحظة أنّ محمد عبد الله عنان «يرى في الخطوات الأولى للثورة الكمالية مثل إلغاء الخلافة وحلّ الجماعات الدينية والطرق الصوفية وفرض الثياب المدنية وفرض لبس القبّعة، ما يثير الأذهان المستنيرة.. التي كانت تتبع جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي والاجتماعي بمنتهى الإعجاب والعطف».

فزع شيخ الإسلام عندما وجد عناناً العربي المسلم يعلي من شأن خطوات الانقلاب الكمالي تجاه الثقافة الإسلامية والدين، فأخذ الشيخ يجهز مقالة في الردّ على عنان مدافعاً فيه عن الدولة العثمانية ودور الأتراك في موكب الحضارة الإسلامية وفي مجاهدة أعداء المسلمين، فإذا بمقالة الشيخ تطول حتى أصبحت كتاباً نصفه الأول دفاع عن الدولة العثمانية ونصفه الثاني دفاع عن

الإسلام نفسه. ثم شغل الشيخ نفسه بالنصف الثاني من الكتاب، فإذا بهذا يكبر حتى صار كتاباً في أربعة أجزاء أسماه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين».

ولا شك أنّ هذا الكتاب كسب وإثراء للفكر الإسلامي المعاصر.

* * *

ينقل شيخ الإسلام مصطفى صبري أمثلة أُخرى لعداوة محمد عبد الله عنان للأتراك المسلمين: ـ «إن مصر الإسلامية لم تعرف، رغم ما توالى عليها من عصور الاضطراب والفتنة، من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثماني، ولم تعرف حكماً أقسى وأمرّ من حكم الدولة العثمانية (عنان، مصر الإسلامية، ص ١٤٩)... و«لبث سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده، المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة...» (نفس المصدر، ص ١٦١).

يردّ شيخ الإسلام على محمد عبد الله عنان ردوداً مختلفة، منها:

* إن محمد عبد الله عنان: «في قلبه مرض عدم التفريق بين المسلمين العرب واليهود، وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان... فلم يكن مقصود سليم من الفتح إلّا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية» (موقف العقل، ص ٨٥).

* إن عبد الرحمن عزام بك، وهو مصري وأمين الجامعة العربية (سابقاً)، قال عن العثمانيين في مقال بعنوان (آخر الخلفاء)، في الأهرام بتاريخ ١٩٤٤/١/٢٢م:

«لمّا وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، فكسروا (أي العثمانيون) أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم (أي العثمانيون) هم الذين قضوا على نظام الإقطاع

والارستقراطية ليحل محلّه نظام المواطن الحر والرغبة المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقّ الشركسي والصقلبي وغيره إلى أكبر مقام في الدولة كما وصل النابه من عامّة الناس حتى المجهول الأصل إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلّمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل. فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة. وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس، الأمن والرخاء والسلام الروحي، ولم يكن فوز آل عثمان كما يظنّ بعض الناس، مستمدّاً من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع، ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلّا سيف مبتور. لقد رويت لي (أي لعبد الرحمن عزام، أمين الجامعة العربية سابقاً) في رحلاتي بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية في لغة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمره وتنوّعت رعاياه، وقد ثقلت كفّته بالخير والرحمة والمروءة والشرف».

* إن الأمير شكيب أرسلان امتدح العثمانيين في ديوانه، بقوله:

أحبّكم حبّ مَنْ يسعى لطيّته ... في طاعة العقل لا في طاعة الغضب

أحبّكم حبّ من يدري مواقفكم ... في خدمة الدين والإسلام من حقب

ومنذ تقلدتمو أمر الخلافة قد ... آويتمو بينها كل مغترب

* إن سليم الأول قد حارب مماليك مصر لأنهم انحازوا إلى إيران الصفوية الشيعية، العدوّ الأول لسليم الأول، والتي كان هدفها إسقاط حكم آل عثمان وتعميم الفكر الشيعي بالقوّة في الدولة العثمانية، وسليم الأول قد عرف بانحياز مماليك مصر إلى الشاه إسماعيل الصفوي ضدّه. وإن الباحث يجد

في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصاً تفرض عليهم أن يكفّوا عن شتم سيدنا أبي بكر وعمر وسيدتنا عائشة (موقف العقل، ج ١، ص ٨٥ ــ ٨٦).

* إن دجوفارا، وهو وزير روماني خضعت بلاده للسيادة العثمانية ومؤلّف كتاب «مائة مشروع لتقسيم تركيا»، وكان ألّفه عقب الحرب العالمية الأولى، يقول:

«إنّ احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليها التاريخ كله»، و«كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضاً مستندة على شرع سماوي»، و«العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية».

* قول ريتشارد لوج، صاحب كتاب تاريخ أوروبا الحديث وتعريب محمد عبد الله عنان (الجزء الأول ص ٤٧): «إن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم وهي عاطفة الجهاد غرسها الإسلام في قلوبهم، وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية» (موقف، ص ٩٠).

* * *

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري في حاشية صفحة ١٠١ من (موقف العقل) ما نصّه: « وإني أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبد الله عنان وغيره، قول الحطيئة (الذي كان الأستاذ علي عبد الرزاق بك (باشا) قرأه في غير محله على المسلمين الذين لا يعجبهم أفعال مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وذلك في مقالة له منشورة في الزمان الماضي):

أقلّوا عليهم لا أباً لأبيكم ‏‏ ‏ من اللوم أو سدوا الفراغ الذي سدوا

* * *

يختتم شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً، الشيخ مصطفى

صبري، والذي هاجر إلى مصر فصدمه فيها ميل العالم العربي إلى التغريب والبعد عن الأصالة، يختتم موقفه من المؤرخ العربيَ محمد عبد الله عنان، بقوله:

«أنا لا أقول أن آل عثمان، حتى الأعاظم المشهورين منهم في تاريخ العالم، برآء من كل ما ينتقدونهم به، وإنما أردّ على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم» (موقف العقل، صفحة ٩٠).

٣ ـ بيانٌ في عدم جواز فصل الدين عن السياسة:

كانت قضية عدم جواز فصل الدين عن السياسة من أهمّ الأسس التي خصص لها مصطفى صبري أفندي، مكاناً كبيراً في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، (طبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٠م).

بدأ شيخ الإسلام مصطفى صبري في تبيان موقفه من هذه القضية، عندما كتب الدكتور هيكل باشا كتابه «حياة محمد»، و«أسقط (الدكتور هيكل باشا في مقدمته) جميع ما في كتب الحديث فضلاً عن السيرة مثل صحيح البخاري ومسلم ومسند أبي داود والنسائي وابن ماجة وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا صلى الله عليه وسلّم، من حيز الاعتداد والاعتماد».

ثم إن الدكتور هيكل باشا قد أتى في مقدمة كتاب «حياة محمد» على المبدأ الغربي المتعلّق بفصل الدين عن الدولة فصلاً واضحاً صريحاً. يقول الشيخ: «والدين في مصر وإن كان مفصولاً عن الدولة والحكومة إلى حدّ ما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية، ولعدم دخول شيخ الأزهر في هيئة الوزارة... لكن معاليه (يقصد هيكل باشا) يتمنى فصلاً أوضح وأصرح، بأن يحذف بتاتاً من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام، كما وقع في تركيا

الحديثة، أو يجرّد لفظه من كل معنى حقيقي كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يبتدأ خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه. . . وهذا الفصل الواضح الصريح الذي هو آمال المتعلمين العصريين، وآخر منال لهم من ديننا. . . (موقف العقل، ص ١٦٢).

يعقّب شيخ الإسلام بعد ذلك بقوله: «وهنا أقول سلفاً وباختصار أن [هذا] معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها، وخروج الأمة أيضاً من ربقته اختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها، لا سيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة، فمثل الفصل في تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة وأمّة.

شيخ الإسلام

والمجدّدون الديمقراطيون:

«وقد يقول المجددون الأكياس (يقصد العصريين): لا حاكم هناك ولا محكوم عليه (أي في الديمقراطية الحديثة) وإنما يرد بالفعل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أي منهما في شأن الآخر. لكني أعرف جيداً ويعرف الإسلام الذي هـ و أكيس منهم إن الجانب الذي يتولى السياسة والسلطة، لا بدّ أن يحكم على الذي تنازل عنهما (أي أن هناك حاكم ومحكوم). (موقف العقل، ص ١٦٣).

«وبالنظر إلى أنّ بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم فيها قوانين الإسلام وأن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يخرج تلك البلاد من عداد بلاد الإسلام».

«وإن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه (يقصد الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب حياة محمد)، فأنا أجمد الجامدين وأحمد الحامدين لله تعالى على جمودي هنا». (موقف العقل، ص ١٦٣).

مفهوم الخلافة في فكر الشيخ:

الخلافة، كما يعرفها شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، هي «الخلافة التي هي بمعنى الخلافة عن رسول الله ﷺ عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين، لأنه إنما يكون بهذه الطريق خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة الذي هو إلغاء هذا الالتزام، لا بدّ ويترتب عليه فصل الدين عن الحكومة وعزله [أي الدين] عن أن يكون ذا سلطة عليها، وقد حصل هذا الحال فعلاً في تركيا بعد إلغاء الخلافة، فخلفها حكومة لا دينية». (موقف العقل، ج ٤، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

تعريف الشيخ للجنسية الإسلامية:

«إن الإسلام جنسية... إن جنسيته فوق الجنسيات، ذلك أنّ أفضل الجنسيات ما يكون سبباً لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس. إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري. ومن هذا لم يفضل عليه الاتحاد القومي، لعدم كفايته في تأسيس الوجدان المشترك ولعدم قابليته للتوسع السريع، فكان الاتحاد في المذهب السياسي أو الاجتماعي أقوى منه ويؤيده أن الرجل تراه ينحاز إلى جانب زملائه في الحزب السياسي والاجتماعي أكثر من انحيازه إلى إخوانه القوميين». (موقف العقل، ج ٤، ص ٣٣٢).

المفهوم الوطني والجنسية الدينية وسنّ القانون:

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«الجنسية المعتنى بها اليوم من الأمم المتمدنة هي الجنسية الوطنية المفسّرة بالاجتماع تحت قوانين مشتركة والاستفادة من حقوق متساوية، ولو كان المجتمعون تركبوا من أقوام مختلفة. فلا عبرة بالاختلاف القومي أمام الاشتراك في القانون الذي هو معنى الوطنية. وهذا القانون وإن كان المعتاد بل الملتزم عند

الأمم المتمدنة العصرية أن يسنّها المواطنون أنفسهم في برلمانهم، لكن الحصول على توحيد القلوب بهذا القانون غير مضمون كالحصول عليه بالقانون المأخوذ من الدين. بل الحصول على العدالة أيضاً غير مضمون بالقوانين الموضوعة عند البشر، وإن كان واضعها نفس الأمة التي تطبق عليها، لأن تلك القوانين لا تسنّ مطلقاً بإجماع آراء الأمة وإنما تسنّ بأكثر الآراء النسبي، فيكفيه أن يكون زائداً على النصف ولو بواحد. وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأي هذا الأكثر حقاً، بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل كما هو المعروف في الأسلوب البرلماني، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها وأصالتها. وليس بمضمون أيضاً أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقياً فهو صنعي على الأكثر، لأن النواب المجتمعين في البرلمان تدخل الشبهة في صحة نيابتهم عن الأمة بدخول أنواع الحيل في انتخاباتهم وكل شيء في الأساليب المأخوذة من الغرب شكلي واعتباري لا حقيقي. فيقال مثلاً إن في البلاد حرية لا سيما حرية القول والنقد وهي محترمة غاية الاحترام، ثم يقال لكنها حرّية مقيّدة بالقانون والقانون تضعه الحكومة مع الحزب الذي تستند إليه في البرلمان، فتكون حرّية على حساب أهوائهما وتكون مضايقة للذين تحاولان مضايقتهم». (موقف، ج ٤، ص ٣٣٣).

أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب والشريعة:

«... لا تخلو البرلمانات من الميمنة والميسرة، ويكون الحكم لمن غلب... فظهر أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب لا يكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها، ولا يخلو من محاباة بعض وضرار بعض. وقد أخذ به الغربيون لعدم وجود القانون الإلهي عندهم بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من كتابهم وسنة نبيّهم، ولا أصول فقه، ولو وجد لأخذوا به وآثروه طبعاً على القوانين البشرية أو من ذا الذي لا يؤثر القانون الموضوع من قبل الله على ما هو صنع الإنسان الظلوم الجهول إلاّ أن يكون غير معتقد لدينه ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك

هم الكافرون﴾، ولم يقل كتاب الله هذا القول لمجرد التشديد فيمن لم يحكم بما أنزل الله، وإنما قاله تبياناً قد تخفى على بعض الناس». (موقف، ج ٤، ص ٣٣٤).

الفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي:

«... والقانون البشري نفسه، فضلاً عن تفسيره، لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضاً ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم، عدالة تقسم إلى طبقتين حاكمة: وضعت القانون... فهي عدالة مخلّة بالمساواة، أما القانون الإلهي فالحاكم فيه هو الله، والناس حتى السلطان سواء أمامه، غير محسين بثقل الحكم لكونه على السوية ولكونه من الله الذي خلقهم». (موقف، ج ٤، ص ٣٤٥).

من الذي يضغط لفصل الدين عن الدولة؟

«... إن الضغط على الدولة الإسلامية لكفها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامي كان يأتي في الزمن القديم من الدول الصليبية وكان يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمي وكان لهم عذر في ذلك أو على الأقل عذر في الظاهر، والآن ينوب عن الدول الأجنبية الضاغطة فريق من المسلمين المتعلمين في مدارس تلك الدول نيابة تعدّت حدود الأصالة غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة، فهؤلاء النواب عن الأعداء [أي المثقفين من المسلمين بثقافة أجنبية خاضعين لها] أشدّ من الأعداء». (موقف العقل، ج ٤، ص ٣٤٦).

مدى صحة تخويل حكومات
المسلمين حرية وضع القوانين:

«إن من الناس... [من] يخول حكومات المسلمين حرية تامة في وضع القوانين ويدّعي أنه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلّا ويسعه الإسلام، لأنه دين عام خالد وهو مذهب الأستاذ فريد وجدي بك الذي لا يرى حتى في أعمال مصطفى كمال [أتاتورك] منافاة لدين الإسلام. وهذا الرأي أسوأ من

فصل الدين عن السياسة لكونه فصلاً وإنكاراً للفصل معاً. ففيه فصل ومكر وفيه القضاء على الإسلام باسم الإسلام. وقد قال انكلهارد، من سفراء فرانسا في تركيا، في مقدمة كتابه «تركيا والتنظيمات» [نُشر عام ١٨٨٢م]: كان الغرض العام من التنظيمات [حركة تغريب الدولة العثمانية] [هو] تقريب الهيأة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون، بعيدة عنها معنى وسياسة. وكان السبب الحقيقي [في هذا البعد عن الهيئة الدولية الأوروبية] في هذا الانفراد هو الدين.

وفي الحقيقة [ما زال الكلام لانكلهارد] إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية، بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة... ولكون تشكيلات [أي منظمات ومؤسسات] الأمة [العثمانية] اشتبكت بالعقائد الدينية، بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة [أي مؤسسات الأمة العثمانية إدارياً واجتماعياً واقتصادياً وغير ذلك] لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية، فوجب... أما إزالة الحائل [أي الإسلام] أو تخفيف وطأته، ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية [يقصد الدينية التشريعية] إلى الدنيوية [أي العلمانية] بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي. وإما أن تخلص بالتدريج من الحدود والقيود الدينية عن طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً.

وللاحتراز [ما زال الكلام لانكلهارد] من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب [أي خوفاً من حدوث رد فعل لدى الشعب العثماني المسلم]... كانت الحكومة العثمانية [عندما سيطر على أمورها دعاة التغريب من الماسون الأتراك... ممثلي الثقافة الغربية في البلاد العثمانية] كانت الحكومة العثمانية قد اختارت الشقّ الثاني [أي التخلص التدريجي من الأحكام الشرعية الإسلامية]. [انتهى كلام انكلهارد].

وهذه الكلمة [الكلام هنا لشيخ الإسلام مصطفى صبري] المنقولة من كتاب انكلهارد... تعلن ما كان يضمره المتفرنجون الأتراك أن يفعلوه في الأونة

الأخيرة بدين المسلمين ثم ظهر مع الانقلاب الكمالي اللاديني، وما يضمره المتفرنجون العرب في مصر وغيرها ولم يظهر تمامه بعد [طبع الكتاب، أي موقف العقل، بالقاهرة عام ١٩٥٠م] (موقف العقل، ج ٤، ص ٣٤٨).

فصل الدين عن السياسة والمثقف العربي:

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«إن فصل الدين عن السياسة كان أول من أثاره مبدئياً وجاهد بالدعوة إليه الأستاذ علي عبد الرزاق بك (باشا)، حيث ألّف فيه كتاباً سمّاه: «الإسلام وأصول الحكم» ونشره، وكان يومئذ قاضي المنصورة الشرعي فأدّى نشر هذا الكتاب إلى قطع صلته بالأزهر وإن كان مبدأ الفصل قد عمل به في مصر وقطع شأواً من العمل مبتدئاً من يوم تجريد الوزارة المصرية من العضو الشرعي المسمّى شيخ الإسلام والذي يكون جميع الحل والعقد الصادر عن مجلس الوزراء موقوفاً على موافقته، ويلي كرسيه في المجلس مقعد الرئيس متعيناً للنيابة عنه عند غيابه، ومقامه مرجع المحاكم الشرعية فضلاً عن المفتين، بل محاكم البلاد كلها، غير محكمة الجزاء والتجارة حيث يكون القاضي الشرعي رئيس محكمة الحقوق أيضاً العاملة بقوانين الشريعة الإسلامية. اطّلعت [الكلام لشيخ الإسلام] على كتاب الأستاذ [علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم]. . . على ترجمته إلى التركية من المسرعين الترك إلى استغلاله في أغراضهم اللادينية قبل مجيىء إلى مصر من تركيا الغربية [في اليونان]، وكنا نصدر فيه مع ولدي إبراهيم [صبري، أستاذ اللغتين التركية والفارسية في جامعة الإسكندرية، شاعر وأديب وعالم جليل، تلقّى كاتب المقال العلم على يديه بكليّة الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٧٢م، ثم درّس في جامعات ليبيا ولبنان] جريدة باللغة التركية سمّيناها يارين [الغد]، نشرتُ فيها كتاباً عن الإمامة الكبرى مجزّءاً على أعداد الجريدة، ضمّنته الرد على كتاب الأستاذ [علي عبد الرزاق]. . . نقداً [حيث إن] أريد بنشره بمصر تبرير ما فعله مصطفى كمال في تركيا من إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة حكومة أنقرة اللادينية: تبأ لحكومة

مبتدعة لا يكمن الدفاع عنها إلّا بالطعن في خلافة أبي بكر وإنكار ما في حكومته من الصبغة الدينية كما فعله الأستاذ قاضي المنصورة [علي عبد الرزاق]، (موقف، ج ٤، ص ٣٧٥).

فصل الدين عن الدولة، والأزهر:

هاجم شيخ الإسلام مصطفى صبري الأزهرْ بعنف وشدّة، أما السبب في هذا، فإنه ـ أي الشيخ ـ كان يظن أن الأزهر سيسانده كأحد دعاة الفكرة الإسلامية أمام محاولات الشيخ في شرح علمانية النظام الكمالي، واستنهاض الشيخ لهمم المسلمين بعد إلغاء الخلافة، فإذا بالأزهر يعلن تأييده لانقلابات مصطفى كمال [أتاتورك].

في العدد ٣٩٦ من مجلة الرسالة ظهرت مقالة بعنوان أسبوع في تاريخ الأزهر، فيها يقول عن الشيخ الأكبر إمام الأزهر الشيخ المراغي، يقول المقال: «كان من المبادىء الجليلة التي سمعناها من فضيلة الإمام المراغي من أنّ الدين في كتاب الله غير الفقه. وأن من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها واختلفوا فيها، وتمسّكوا بها حيناً ورجعوا عنها حيناً أنها أحكام الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى الله بها الأنبياء جميعاً، أمّا القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهي آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية تختلف باختلاف العصور والاستعدادات وتبعاً لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها وتبعاً لاختلاف البيانات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضها مع بعض وتنفيذ كل آراء مخالفيه وعدّها باطلة لحقت علينا كلمة الله: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾».

يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ردّه على هذا: «لادين في الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه، بمعنى لا علم يدرس فيه وفي كلياته يصح أن يسمّى علم الدين، ولا صحة لما اشتهر عند الناس من كون الأزهر معهداً دينياً ـ بل كونه أكبر معاهد العالم الإسلامي الدينية ـ ولا لما

تواطأ عليه المسلمون من اعتبار ما في كتب الفقه من الأحكام والقوانين أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها فتكون ما يسمونه الشريعة الإسلامية شريعة عندية لأناس يسمّون الفقهاء. . أن ما قاله شيخ الأزهر (الاستاذ الأكبر الإمام المراغي) إعتداء عظيم. . على أئمة الإسلام أصحاب المذاهب المشهورة في الفقه مثل الإمام أبو حنيفة ومالك الشافعي وابن حنبل رضي الله عنهم. . (ج٤ ص٢٠٩ لا بدّ وأن تكون ٣٠٩) «أن لقول» الأستاذ الإمام «المراغي» مغزى لم يبح به قائله وقد خفى على محبذيه ومنكريه، وسأبديه أنا. . يحاول الاستاذ الأكبر المراغي بقوله المنقول من قبل ترويج آخر آمال لهم (دعاة الفكرة الغربية) وتمزيق آخر أوصال للإسلام وهو فصل الدين عن الحكومة فقد رام أن يتوصل إليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به. فكأنه يقول إن الفقه ينطوي على قوانين سنّها الأئمة والمجتهدون وهي قوانين زمنية لادينية. وخلاصة أدعاء فصل الدين عن السياسة قد وقع من زمان قديم في الإسلام منذ اتخاذ الحكومات الإسلامية آراء أئمة الفقه التي لا صلة لهم بالدين، قوانين معمول بها في بلاد الإسلام، فلهذا يجوز لنا أن نهملها ونسن بدلاً منها قوانين أخرى أوفق لزماننا وسياستنا، ولا نكون أن فعلنا ذلك بدلنا ديننا إلى دين غير الإسلام، أو فصلنا الدين عن السياسة أوّل مرّة. . وكان الأولى بالأستاذ الأكبر أن لايتوسل إلى ترويج مبدئه بالاعتداء على الفقه وإخراج أقوال الفقهاء أئمة الإسلام من الدين، بل يبقيهم في مقاماتهم المسلمة دينياً ويقول ونحن نجتهد ونضع القوانين الجديدة مستمدين (ذلك) من الأصول الشرعية، فتكون آراؤنا أيضاً فقهاً وديناً كما كانت آراؤهم. لكنه لم يفعل.

(إن) مقصود الإمام المراغي. . هو فصل الدين عن السياسة وتخليص الحكومات في سن القوانين عن التقييد بقيود الشرع الإسلامي (موقف العقل، ج٤ ، ص ٢٠٨ / ٢١٥ ، يلاحظ حدوث خطأ في ترقيم الصفحات ص ٢٠٨ مفروض أن تأخذ رقم ٣٠٨ هنا وكذلك ٢١٥ ، تصبح ٣١٥).

«. . . ثم إن هذه الفكرة من الأستاذ الإمام فكرة تنزيل الفقهاء أئمة

الدين الواضعين للقوانين الشرعية، منزلة واضعي القوانين الزمنية غير المتقيدين في وضعها بالقيود الدينية، تشبه ما فعله الكتاب العصريون بمصر من تنزيل الأنبياء إلى منازل العباقرة منكرين لهم النبوة الميتافيزيقيه والمعجزات الخارقة لسنن الكون» موقف العقل ج ٤، ص ٢١٨، «٣١٨») .

حكومة الشيخين وعلى عبد الرزاق:

«واليوم أقول (الكلام لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي) في كتابي هذا: ليس لأحد من عقلاء الشرق والغرب شك في كون حكومة أبي بكر وعمر مثلاً أعلى للحاكم الصالح العادل الذي يراعي حقوق الأمة ويسعى في مصالحها أكمل مراعاة مسعاة.. وكنا نحن المسلمين نحمل كمال حكومة الشيخين في الصلاح والفلاح على اهتمامها بأحكام الإسلام، وعلى كمال اقتفائها بآثار النبي ﷺ وحتى أن أبا بكر حارب لتنفيذ قانون إسلامي يجعل في مال الغني حقاً معلوماً للفقير. وبالاختصار كنا نعرف سر أفضلية حكومتي الشيخين من فضل الدين.. لكن الأستاذ(على عبد الرزاق مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم) يحاول في قطع صلة فضائلها الظاهرة الباهرة بالإسلام. أن لا يعترف بفضل الدين الإسلامي في سمو حكم هذين الرجلين العظيمين الذي يشهد العالم بكونها مقال الحكم السامي الإنساني» (موقف، ج٤، ص٣٧٥) .

فالأستاذ (علي عبد الرزاق) إذن كاتب دعاية وبطل رواية لا يمثل أمثالها إلّا المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخره.. فالأولى بسعادة الأستاذ (على عبد الرزاق) «على كلا المعنيين للسعادة » أن يتعجل في التأهب لذلك الموقف (أي عند الاحتكام إلى الله في المحشر) بتوبة علنية يسمعها قراء كتابه الإسلام ونظام الحكم معترفة (أي التوبة) بكونه مخطئاً في تأليفه، وإني (أي شيخ الإسلام مصطفى صبري) مخطئه الصائل عليه وصديقه الحقيقي، يسرني أن أنفعه بخطيئتي لتعمير آخرته».. (موقف العقل، ج ٤، ص ٣٧٦).

(٢)
الشيخ عاطف الاسكيليبي

١ ـ حياته وفكره:

حيـاتـه:

اسمه محمد عاطف، ويطلقون عليه عاطف أفندي، أو عاطف خوجه وكلاهما يعني عالم الدين.

ولد الشيخ عاطف الاسكيليبي عام ١٨٧٦ في قرية طوبخانه التابعة لاسكيليب (في الأناضول) من أسرة عريقة في العلم، عريقة في النسب. كان تحصيله الأولي في قريته. أما في عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٢م فقد تلقّى بداية علومه الدينية في اسكيليب نفسها. ومن ثم انتقل إلى إستانبول حيث كان وصوله إليها في أبريل عام ١٨٩٣م. أنهى دراسته الدينية وقد بلغ من العمر ٢٦ عاماً، وفي عام ١٩٠٢م حصل على إجازته العلمية. وفي نفس هذا العام دخل امتحان التقدم لكلية الإلهيات التي كانت تابعة لجامعة إستانبول، فكان ترتيبه الثاني على المتقدمين. وفي عام ١٩٠٥م تخرّج في هذه الكلية وعيّن معلماً بدرجة (درس عام) في جامع الفاتح، وبذلك أُتيح له التصدي لإلقاء الدروس الدينية من فوق كرسي الوعاظ هناك، وبالتالي بدأ الشيخ عاطف أفندي في التدريس.

كما كان يكتب المقالات الدينية والشرعية في مجلتي (بيان الحق) و (صراط مستقيم) أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية.

وعندما أجبرت جمعية الاتحاد والترقّي عام ١٩٠٨م السلطان عبد الحميد

الثاني على إعلان المشروطية على أسس النظم الغربية، بدأ عهد الاتحاد والترقي وبدأت معه آلام الشيخ عاطف أفندي، فأبعدته الجمعية عن إستانبول، إلى سينوب، ثم إلى جوروم، ثم إلى بوغازليان وإلى سنقرلو (من بلاد الأناضول) ثم أطلق سراحه بعد نفي أربع سنوات.

وعندما حدثت الانتخابات في عهد الاتحاد والترقي اختاره أهل جوروم نائباً عنهم، فانتهز الفرصة لينتقد حكم الاتحاد والترقي. وكان أن أصبح مديراً عاماً للمدرسة الإبتدائية الداخلية بإستانبول، فلم يسكت وظلّ مداوماً على نشر المقالات الدينية لتوعية المسلمين بأوضاعهم، فأكثر من الكتابة في مجلة (محفل) وركّز على التوعية بأُسس الفقه الإسلامي باعتبار أنها روح الشريعة الإسلامية.

* * *

كان الشيخ عاطف أفندي، مقصد المسلمين الذين كانوا يفِدون من كل جهات العالم إلى إستانبول باعتبارها مركز الخلافة الإسلامية، من اليابان، من العراق ومن القرم وغيرها، يستفتون الشيخ عاطف أفندي في أمور دينهم، ولم يكن يردّ قاصداً إلّا بعد أن يكرمه، فزاد هذا العلم الغزير والكرم، احترام الشيخ في قلوب المسلمين.

وعندما احتلّ اليونانيون إزمير في الحرب العالمية الثانية، كانت جمعية تعالي إسلام [أي رفعة الإسلام] التي أسّسها الشيخ عاطف أفندي، أول من احتجّ لدفع المعتدي.

* * *

قام الشيخ عاطف أفندي بتدريس مادّة التفسير في القسم العالي في مدرسة دار الخلافة، ومادة حكمة التشريع في مدرسة القضاة بإستانبول. كما اشترك في دروس مجلس السلطان [حضور درسلري] وهي مناظرات علمية يقوم بها العلماء في حضور السلطان العثماني.

واستمرّ الشيخ في وظيفته مديراً للمدرسة الابتدائية ومدرّساً حتى عام

١٩٢٤م، أما بعد هذا التاريخ فقد اقتصرت مهامّه على التدريس فقط في جامع الفاتح مدرّساً واعظاً.

كانت الثورة التي قادها مصطفى كمال [أتاتورك] قد ألغت التعليم الديني في ١٥ فبراير عام ١٩٢٤م، وقد اتخذ مصطفى كمال هذا القرار في مجلس من قادة الجيش والأركان، ومعه قرارين آخرين. والقرارات الثلاثة كانت كالآتي:

١ ــ إلغاء الخلافة.

٢ ــ إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية.

٣ ــ توحيد التعليم.

وفي ٣ مارس عام ١٩٢٤م تمّ تنفيذ قرار مجلس الأمة التركي إلغاء الخلافة وطرد كل أفراد آل عثمان خارج البلاد، ونفّذ هذا القرار في ليلة الموافقة عليه (انظر: مضبطة خمسين عاماً من الجمهورية، إستانبول ١٩٧٣م).

أما في عام ١٩٢٥م فقد صدر قانون الملابس في تركيا، والذي أبدل الطربوش بالقبّعة.

قبل صدور هذا القانون بعام وأربعة أشهر كان الشيخ عاطف أفندي قد أصدر رسالة في (تقليد الفرنجة والقبعة).

في اليوم التالي صدرت الصحف التركية بالعنوان التالي:

«تنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عاطف الاسكيليبي، مؤلف الكتب الرجعية»، ولما أرادت زوجته التأكّد من خبر إعدامه، أرسلت برقية إلى مدير سجن أنقرة، فجاءها الجواب كالتالي: «مات الشيخ عاطف أفندي».

يعقب على هذا الردّ المقتضب، الكاتب الإسلامي الشاب المؤرخ صادق آل بايراق بقوله: «لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه... ذلك أنهم كانوا يخافون... كانوا يخافون حتى من جثته بعد موته».

* * *

فكر الشيخ عاطف أفندي

يمكن استقراء فكر عاطف أفندي من خلال مقالاته ورسالاته وكتبه وخطبه. ويمكن وضع خطوط فكره العريضة على النحو التالي:

إتّباع أهل السنّة والجماعة

يقول عاطف أفندي في مرآة الإسلام:

«مذهب أهل السنّة والجماعة هو الحق. وكا ما عدا هذا باطل. واعتقاد أهل السنّة والجماعة هو الطريق الحق المستقيم والذي بيّنه جناب الله في القرآن الكريم والذي ذكره الرسول ﷺ بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هذا، أيّ اعوجاج...».

تعريف الخليفة

يقول عاطف أفندي:

«الخليفة، هو خلف لسيّدنا الرسول، مهمّته النظر في أعمال الناس الدينية والدنيوية، وهو الرئيس العام الذي يدير هذه الأعمال. واختيار الخليفة واجب على كل المسلمين، ويشترط أن يتوفر في الخليفة أن يكون مسلماً، حراً، ذكراً، بالغاً، عاقلاً، قادراً على إدارة أمور الأمة، وعلى الحفاظ على البلاد، وعلى تنفيذ أحكام الدين.. ويصبح الشخص الذي تتوفّر فيه هذه الشروط خليفة، بقبول علماء الأمة وعقلائها له خليفة للرسول وحاكماً على الناس. وواجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنوداً وأن يدفعوا الضرائب وأن لا يعصونه ولا يقومون ضدّه. أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنوداً ولا يدفعون الضرائب، يكونون عصاة مذنبين، ولكن تنفيذ أوامره التي تخالف الشريعة فحرام». (طريق الإسلام، ص ٧٧ ــ ٧٩، عن صادق آل بايراق، معركة الدين في تركيا، إستانبول ١٩٧٥م، ص ٥١٦).

واجبات الشعب تجاه الخلافة:

يذكر عاطف أفندي واجبات الناس تجاه الخلافة في عشر واجبات، كالآتي:

١ ــ إطاعة أوامر الخليفة وعمّاله إذا وافقت الشريعة.

٢ ــ دفع الضرائب الواجب دفعها للحكومة شرعاً مثل العشر والخراج وزكاة الأموال الظاهرة في حينها.

٣ ــ أداء الخدمة العسكرية.

٤ ــ معاونة الحكومة في كل ما هو حق، مالاً وبدناً وفكراً ولساناً وقلماً.

٥ ــ بجانب عدم القيام ضد الخليفة، فالواجب صيانة الخليفة وحمايته من أصحاب الفساد ومن فتن أصحاب الفتنة، وكذلك من مؤامرات أعدائه.

٦ ــ تحويل قلوب عموم التبعة [الشعب] خاصة هؤلاء الذين ينفرون من الخليفة، من العداء له إلى واجبه وطاعته.

٧ ــ إخبار الخليفة بظلم موظفيه وعامليه وبمعاملاتهم السيّئة.

٨ ــ إيقاظ الخليفة إذا أغفل، ومنعه من الظلم، وإرشاده إلى طريق الحق والعدل بتصحيح خطئه، ومنعه من ارتكاب المعصية.

٩ ــ إظهار الاحترام اللائق للخليفة والدعاء له بصلاح أمره.

١٠ ــ تقديم النصح للخليفة سراً أو علانية.

(عاطف أفندي؛ طريق الإسلام، إستانبول ١٩٢٢م، عن صادق آل بايراق، معركة الدين، ص ٢١٦).

وجوب البيعة للخليفة:

يقول عاطف أفندي في ذلك: «إن بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع. والدليل الشرعي في هذا، هو إجماع الصحابة والتابعين واتفاقهم عليه، ففي يوم وفاة سيّدنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه،

اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم، قبل دفنه ﷺ، في المكان الذي أُطلق عليه سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر بيعه الخليفة وبايعوا سيدنا الصدّيق رضي الله عنه، بعد أن اتفقت كل آراء الأمة على أنه أحقّ وأليق الجميع لمقام الخلافة، وقد استمرّ الوضع على هذه الشاكلة أيضاً في عهد الصحابة وعهد التابعين من بعد. وبناء على ذلك، فإن وجوب تعيين الخليفة ثابت بإجماع الأمة بطريق الأدلّة الشرعية. (شريعة الحضارة، نقلاً عن صادق آل بايراق، السائرون والمنفيون في سبيل الشريعة، ص ٣٩، إستانبول ١٩٧٩م).

ضرورة وجود الخلافة القوية:

في هذا يقول عاطف أفندي: «... وحيث أن الغاية الأساسية في الخلافة، هي تنفيذ أحكام الشريعة وتنظيم شؤون الأمة، ولأن هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة، فإن الأصل في شروط الخلافة والذي يتقدم على كل الشروط، هو: القدرة والقوة». (المرجع السابق، ص ٤٠).

مسؤولية الأمة تجاه الشرع:

حثّ عاطف أفندي الأمة على التحرّر من أنواع الأسر، بقوله: «أيتها الأمة! إذا كنتم تريدون التخلّص من الظلم، إذا كنتم تريدون التحرر كلية من الأسر، فاكسبوا أنفسكم القدرة على الإيفاء بواجباتكم الشرعية. ثوروا ضدّ ظلم الظالم، بأي شكل كان، ثوروا ضد كل عمل مخالف للدين يقوم به فرد أو تقوم به حكومة». (نفس المرجع، ص ٤١).

مسؤولية الأمة تجاه العدو الغاصب:

في مقالة له بعنوان (الجهاد)، نشرها في (بيان الحق)، قال عاطف أفندي موجّهاً حديثه للأمة المسلمة: «إن الأمة المسلمة سواء كانت في منطقة الروملي [أوروبا الشرقية وكانت تابعة للدولة العثمانية]، أو في الولايات الأخرى، أو حتى في الشرق أو الغرب، إذا أظهرت هذه الأمة التكاسل في الحرب ضدّ العدو الغاصب، سواء كان هذا التكاسل بدنياً أو مالياً، وإذا ما تسببت هذه الأمة [في أي مكان هي فيه] في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها

كلية، فإن أفراد هذه الأمة المسلمة جميعاً آثمون قد ارتكبوا بذلك الذنب الكبير مثل ذلك مثل قتل النفس وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب الزنا، وتكون الأمة كلها قد عصت شريعة الله». (المرجع السابق، ص ٣٨).

مثل المتبرّع بثمن مسمار في مدمرة حرب إسلامية:

يقول الشيخ عاطف أفندي في مقالة له بعنوان (القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة)، نشرها في جريدة (صراط مستقيم) في ١٠ سبتمبر عام ١٩١٠م ما نصّه: «لو أن شخصاً دفع عشر عملات [بارة] من النقود مساعدة للأسطول ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها [الدولة الإسلامية أو صنعتها لحسابها] وتم دفع هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار [موضوع الحديث] فيها، فإن للشخص المتبرع بالمبلغ المذكور أجره وثوابه دائماً سواء في حياته أو بعد موته، وكما لو كان اشترك بالفعل في الحرب».

(عاطف أفندي، القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة، مجلة صراط مستقيم، ج ٥ ص ٢٣٧٧، سبتمبر (١٣٢٦هـ) ١٩١٠م، نقلاً عن صادق بايراق، المرجع السابق، ص ٣٦).

الحجاب والمرأة المسلمة:

للشيخ عاطف أفندي رسالة في تستر المرأة المسلمة وحجابها بعنوان (التستر الشرعي)، يقول فيها:

١ ــ المرأة مجبرة على الاشتغال بالأعمال المنزلية وبتربية الأطفال، فهذا من وظائفها الأساسية.

٢ ــ ضرورة منع ما يفسد سعادة العائلة من أسباب الكدر والوهم والوقوع في الشبهات، ذلك الذي يحدث عند رؤية رجل عفيف وشريف لعائلته وهي تختلط برجال أجانب عنها، فيأخذ منه الشك مأخذاً، ويتولّد من هذا السبب حدوث النفور بين الرجل وأهله.

٣ ــ ضمان سعادة الأسرة في إطار العفّة والشرف بمنع زيادة سوء الخلق ومنع الفواحش وظهورها.

لـذلك، يجب منـع الذين يعملون لـلإخـلال بهـذا قـولاً وكتـابـة وفعـلاً ومعـاقبتهم، كذلـك الأمر للذين لا يـرعون الحجـاب من النـاس. إن هـذا من الواجبات الدينية للإداريين [المسؤولين] الذين تكون مهمتهم حكم الناس.

أما الذين يبدون ـ من هؤلاء ـ تسامحاً أو إهمالاً فـإنهم يكونـون مسؤولين أمام الله لأنهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية وهم بذلك يستحقون العـذاب الإلهي والجزاء السيِّىء. وإنه لفرض على كل مسلم، كل حسب قـدرته، تنفيـذ أوامر الدين ونواهيـه، بدفـاعه وبمـواجهة الـذين يعملون على إزالـة شعار من شعـائر الإسـلام أو أركـانــه أو لغـوهــا». (محمـد عــاطف أفنـدي، تســتر شـرعي، ص ١ ـ ١٦، إستانبول ١٩٢٣م، نقـلاً عن معركـة الدين في تـركيا، لصـادق آل بايراق، إستانبول ١٩٧٥م).

أعمال عاطف أفندي:

يورد نجيب فاضل في كتابه (المظلومون من الإسلاميين في العهـد الأخير، إستانبول ١٩٧٧م) أثناء حديثه عن عاطف أفندي، قائمة بأعماله أوردها بالتالي كالآتي: (ملاحظة أن عاطف أفندي لم يكتب إلاّ بالتركية):

١ ـ مرآة الإسلام.
٢ ـ طريق الإسلام.
٣ ـ دعوة الإسلام.
٤ ـ المسكرات في دين الإسلام.
٥ ـ القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة.
٦ ـ الحجاب الشرعي.
٧ ـ حضارة الشريعة.
٨ ـ تقليد الفرنجة والقبعة (وهو الكتاب الذي شُنق بسببه).

٢ ـ معاناته واستشهـاده:

بدأت معاناة عاطف أفنـدي مع تسلّط حـزب الاتحاد والتـرقّي على أمـور الحكم في الدولة العثمـانية، كـان الاتحاد والتـرقي مقدمـة لنتيجة أسفـرت عنها

عملية تغريب الدولة العثمانية، ففكر الاتحاد والترقي فكر منافٍ للفكر الإسلامي. كان الاتحاد والترقي بحكم سيطرة خلايا الحركة الماسونية عليه، والتدعيم اليهودي العالمي له، شيئاً مخالفاً تماماً لما ألفه سير حركة الفكر الإسلامي والجامعة الإسلامية.

في عام ١٩٠٨م فرض الاتحاديون الحكم المشروطي على عبد الحميد، وفي عام ١٩٠٩م خلعوه. ثم أرادت قيادات حزب الاتحاد والترقي تصفية قائد جيش الحركة الذي أتى بالحزب إلى السلطة، وهو محمود شوكت باشا، فدبّرت له وهو قائد من قوادها العسكريين، مؤامرة أودت بحياته.

ولأنّ الشيخ عاطف أفندي كان من أبرز علماء الدولة العثمانية، ولأنّ القيادة الحزبية للاتحاد والترقي كانت مصابة بداء «حساسية الدين» (وهذا التعبير لنجيب فاضل)، فقد تمّ القبض على عاطف أفندي بحجة الاشتباه بعلاقته بالمؤامرة.

نفى الاتحاديون عاطف أفندي إلى قلعة سينوب ثمّ جوروم ثم بوغازليان، ثم سنقورلو. وعند الإفراج عنه عاد إلى إستانبول.

عينّ ــ كما سبق القول ــ مديراً للمدرسة الابتدائية الداخلية، فأخذ اسم المدرسة يبرز ويرتفع في وقت قصير. وأصبحت المدرسة بفضل فعالية مديرها نموذجاً يحتذي وطالت شهرة الشيخ عاطف وأخذ اسماً عالمياً طيباً كعالم ورع.

أخلاق الشيخ:

وبجانب هذه الشهرة الطائلة، كان خلق الشيخ عاطف أفندي مرآة لإسلامه. كان دؤوباً على مداومة تحصيل العلم. وكان متواضعاً، ولم يكن يقبل هديّة.

ذات مرة دعاه السلطان وحيد الدين سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين إلى طعام الإفطار في رمضان، في قصر الحكم. قَبِلَ الشيخ دعوة أمير المؤمنين، وأُعجب السلطان وحيد الدين بعلم الشيخ عاطف أفندي، مما لاحظه

المجتمعون على مائدة الإفطار. وعندما أراد السلطان وحيد الدين أن يظهر تقديره لعاطف أفندي بتقديم هديّة راجياً منه أن يتقبّلها. قال الشيخ عاطف بأدب جمّ:

ـ أستسمحكم ألاّ تعوّدوني على تلقّي الإحسان.

وكما كان السلطان يحبّ عاطف أفندي، فكذلك كان عامة الناس. ذات يوم أراد فراش متقاعد أن يعبّر عن حبّه تجاه عاطف أفندي فقدّم له هدية عبارة عن صينية بقلاوة عملها خصيصاً هذا الفراش العجوز المتقاعد. لم يستطع الشيخ قبول هدية الرجل، ولكن كان على الشيخ أن يطيّب خاطره، فقال له:

ـ سامحني، لأنني لم أستطع قبول هديتك. سامحني، فإن مهنتي والقضية التي أعمل لها حساسة للدرجة التي لا أستطيع معها تحمّل مثقال وطأة المنفعة المادية.

رسالة: تقليد الفرنجة والقبعة:

كتب الشيخ عاطف أفندي رسالته المشهورة (تقليد الفرنجة والقبعة)، أوضح فيها أنّ على الأمة الإسلامية ألاّ تقلّد الغرب تقليداً أعمى يأخذ بالسطحيات، وأنّ على المسلمين الأخذ بما ينفعهم فقط في المدنية الغربية، وأنّ على المسلمين أن يطوّروا أنفسهم دون التنازل عن أخلاقهم ومقدساتهم، ولا تفريط في الأخلاق الإسلامية. لا تنازُل عن الدين في سبيل التطور المادي، لا تقليد للغرب.

والرسالة تنتقد المسلمين الذين يجارون الغرب على عمى ودون تبصّر. وتأخذ عدم لبس القبعة مثالاً لقولة (لا) الاعتراضية على التغريب.

ولأنّ الشيخ عاطف أفندي كان معروفاً بعلمه وتقواه، فقد استمع له الناس.

بعد ذلك بعام وأربعة أشهر، وبالضبط في ١٩٢٥/١/٢٥م، وافق مجلس الأمة التركي على قانون ارتداء القبعة تمثُّلاً بالغرب.

قانون ارتداء القبّعة في مصدرين:

أعتمد هنا في الفقرة على نقلين من مصدرين كماليين، أولهما «تاريخ الانقلاب التركي»، وهو كتاب مقرّر على طلاّب المدارس العسكرية بالجيش التركي، وأصدرته مطبعة هيئة أركان حرب الجيش التركي بأنقرة عام ١٩٧٣م.

يقول الكتاب: « . . . بتطور الزمن أصبح الطربوش زياً إسلامياً، بل صار رمزاً للرابطة العثمانية. . . وكان لا بدّ أن يحصل المجتمع التركي على شكل حضاري. . . كان تحوّل المواطنين الذين يعيشون في دولة علمانية ويرتدون زياً دينياً يتضادّ مع (واقع الحركة الحضارية للمجتمع التركي الحديث). . كان الطربوش رمز الدولة الإسلامية. فكان من الضروري الإطاحة بالطربوش من على رأس الشعب التركي، وبهذا يتحقّق أمران: الأول: علمنة الزي؛ والثاني: ارتداء المواطن التركي زياً يشبه فيه شعوب العالم المتحضّر. كما كان من الضروري على رجال الدين الذين يرتدون زيّهم أن يرتدوه في أماكن العبادة فقط. كانت المشكلة تتمثّل في أن يخضع الشعب زيّه للحياة العلمانية، وفي إبعاد رموز الحياة الدينية عن الحياة اليومية. وكانت هذه هي فكرة أتاتورك. . . (ص ١٦٣).

المصدر الثاني: كتاب الذئب الأغبر مصطفى كمال، لمؤلفه هـ. س. أرمسترونج، والمؤلف كان ضابطاً إنجليزياً عمل ملحقاً حربياً لبريطانيا في تركيا، وكان على اتصال مباشر بالأتراك عامة وبمصطفى كمال (أتاتورك) خاصة. (القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٢م).

يقول أرمسترونج:

«صار عليه الآن (أي على مصطفى كمال أتاتورك) أن يغيّر عقول الشعب بأسره، بأفكارهم القديمة، وعاداتهم، وأزيائهم، وأساليب حياتهم، وأدقّ الدقائق التي تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم. . كانت هذه المهمة أصعب

بكثير من إعادة بناء الكيان السياسي للدولة أو على حدّ تعبيره (أي تعبير أتاتورك):

«لقد قهرت العدوّ، وقهرت الدولة، فهل أستطيع أن أقهر الشعب؟».

ورأى (أي أتاتورك) أن يتخلّص من الطربوش، رمز الدولة العثمانية.. وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب، الذي سيشعر أنه قد طعن في شعاره القومي، فآثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج.. بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبّعة، فلمّا لم يعترض أحد، عمّم القبعة في الجيش كلّه، وبثّ في صفوفه من يشرح للجنود أفضليتها على الطربوش في حماية الرأس من الشمس والمطر.. فلمّا لم يحتجّ الجيش ظهر هو (أي أتاتورك) مرتدياً قبّعة من القش! وبدأ يبشر بنظريته قائلاً: «إذا أردنا أن نكون شعباً متمديناً فينبغي أن نرتدي ثياب المتمدينين الدولية، أما الطربوش فهو رمز الجهل! ولكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلّده في «بدعته» وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه عادوا فنكصوا أمام ازدراء الناس وتهكّمهم! وعندئذ أحسّ الغازي أنه فشل في إقناع الأتراك برأيه، فلم يجد بدأً من أن يفرضه عليهم بالقوة! وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» (أي مجلس الأمة التركي)، بناء على طلبه (أي أتاتورك)، قانوناً يحرّم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه. وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس في الشوارع الرئيسية في جميع المدن والقرى وأخذوا «يصادرون» الطرابيش من فوق رؤوس المارّة. وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره الحبس!.. وسَرَت في البلاد موجة من الغضب والسخط، ورجمت الجماهير في كثير من البلاد ممثلي الحكومة بالأحجار، مدفوعة بتحريض من رجال الدين الموتورين الذين ألقوا في روع الناس أن هذه «البدعة» مخالفة لتعاليم الإسلام، وأن القرآن والسنّة يحرّمان ارتداء القبّعة!.. وفي الجمعية الوطنية (أي مجلس الأمة التركي) نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتجّ على هذه البدعة الجديدة!..

عندئذ انقلب (أتاتورك) إلى مستبد غاشم، لسان حاله «أن الثورات يجب

أن تبنى على الدم، وإلاّ انهارت ولم تـدم ! » وبدأ فـأقصى نور الـدين باشـا من الجمعيـة وأرسـل «محـاكم الاستقـلال» إلى الأقـاليم لتحكم عـلى مئـات من «المتمردين» بالشنق والرمي بالرصاص والسجن! . . ولكـي يوطد مصطفى كمال هـذا التقليد فـي أذهـان العالم الخـارجـي أرسل منـدوباً إلى المؤتمـر الإسلامـي المنعقـد فـي مكة، مـرتديـاً قبّعة! وكـان المؤتمـر يضم ممثلين لجميـع دول العـالم الإسلامية. ولم يجد المؤتمرون بدأ «من احترام المنـدوب وقبّعته تقـديراً لمصـطفى كمال» (الذئب الأغبر، ص ٢١٢ ــ ٢١٤ القاهرة يوليو ١٩٥٢م).

المقبوض عليهم فـي سبيل القبّعة:

تم القبض عـلى كثـير من علماء الـدين الأتـراك منهم: سليمـان خـوجـة العشاقـي وصالح أفندي الغيتـانـي مديـر مدرسـة الأئمة والخـطباء فـي عشـاق وأحمد أفندي البوزقيرلـي ودورمش خوجة السلطنيوي والشيـخ المتصوف شرف الدين الدّاغستانـي وغيرهم. أتـى بهم رجال الحكومـة من جميـع أنحاء تـركيا: من «ريـزه» (إسم مـدينـة فـي بـلاد الـلاز بشمـال تـركيـا) ومن «أرضـروم» و «كيراسون» و «وسيواس» وغيرها من مدن الأناضول إلى أنقره العاصمة التركية.

كما قبضت السلطات على الشيـخ عاطف أفندي أيضاً.

وفـي ٢٦ ينـاير ١٩٢٦م ، قـدم عاطف أفنـدي لأول مرّة أمـام «محكمـة الاستقلال» : فهو الـذي كتب ضد القبّعـة قبل أن يُصـدر قانـون تغيير الأزيـاء ولبس القبّعة، بسنة وأربعة أشهر.

عاطف أفندي وأحداث القبّعة:

كان لا بد من القول أنه فـي يوم الخميس ٢١ يناير عام ١٩٢٦م حـدثت ثورة فـي مدينة كيراسون التركية وسميت باسم (ثورة القبّعة) . لأنها كانت ضد قانون القبعّـة الذي أصـدره مجلس الأمة التـركـي. والمفهوم أن لكتـاب عاطف أفندي عن تقليد الفرنجة والقبّعة أثراً فـي هذا الحادث.

وفـي كيراسون أيضاً وقعت حادثة سميت (حادثة كيراسـون) . فيها قـام

شخص غريب مختل العقل وقف في وسط الشارع وأعلن بصوت عال أنه لن يمتثل لقانون لبس القبّعة ولن يلبسها. قبضت الشرطة عليه وسألوه.

ـ لماذا لم تلبس القبّعة؟ فأجاب بقوله:

ـ لأني أرسلت إلى عاطف أفندي خطاباً بشأن ارتداء القبّعة فأجابني بأن الشريعة لا تسمح بارتدائها وأن في ارتدائها الكفر. لذلك قررت أن لا أرتديها.

هنا يقول الكاتب التركي نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» ـ عند تعرضه لهذه الحادثة ـ أن لم يسأل أحد من رجال الشرطة هذا الرجل إذا كان أخذ بكلام عاطف أفندي فلماذا يصيح بهذا الشكل المفتعل وسط الشارع ويقول أنه لن يلبس القبّعة، لم يسأله أحد هل أحسّ بحاجة إلى هذا الصياح المبالغ فيه وهل قال له الشيخ أن يصيح هكذا، ولما سألت الشرطة الرجل عن خطاب عاطف أفندي الخاص بهذا فقال أنّه فقده!

تقوم السلطات بالقبض على عاطف أفندي وترسله إلى محكمة كيراسون أولاً ثم إلى محكمة الاستقلال بأنقره.

يقول نجيب فاضل في كتابه المذكور عن حادثة كيراسون هذه: إن هذا الحادث مدبّر... أسوأ وأحقر أنواع التدبير».

سألوا عاطف أفندي عن صحة إرساله خطاب إلى هذا الرجل، فأوضح الشيخ إلى محكمة كيراسون أنّ هذا كذب، فلم يكتب لهذا الرجل شيئاً بل لم يتلق منه أيّ خطاب.

مثل أمام محكمة الاستقلال في مسألة قضية القبعة ـ ضمن الكثير من الماثلين ـ النائب البرلماني السابق لمدينة مرعش واسمه حبيب الذي ذكر للمحكمة أن أهل مرعش متمسكون بدينهم والقبّعة تجرح شعورهم الديني، وأنه نفسه لم يجد وقت صدور قانون القبّعة، قبّعة في أي مكان في مرعش ليرتديها.

في فورة مدينة عرش ضد قانون القبّعة، حكمت المحكمة على سبعة أشخاص بالاعدام وعلى عديد من الأحكام الأخرى على بعض المواطنين بلغت ما بين السجن خمسة عشر عاماً إلى ثلاث سنوات سجناً.

الإعدام للشيخ بدلاً من ٣ سنوات سجن

في ٢٦ يناير ١٩٢٦م : عاطف أفندي أمام محكمة الاستقلال. المدّعي العام يطلب للشيخ السجن ثلاث سنوات على الأقل.

القاضي يطلب من الشيخ إعداد دفاعه ليقرأه على المحكمة في الغد. الشيخ يبدأ في كتابة دفاعه. يغفو أثناء الكتابة. يستيقظ بعد هذه الإغفاءة، وعلى وجهه حضور، وفي أساريره سكون. يمزق الورقة التي كان يكتب فيها دفاعه ولم يكن أتمه بعد. ويقول للقاضي في اليوم التالي رداً على سؤال من المحكمة:

ـ لا حاجة لي يا سيدي (إلى الدفاع) فمن الواضح تماماً أنني لم أرتكب ذنباً يوجب الدفاع.

وكان القرار بعد ساعة واحدة. كان القرار: الإعدام.

رؤيا صادقة:

أمّا لماذا مزق الشيخ عاطف أفندي ورقة دفاعه. ولماذا كان موقناً من أنّ الحكم عليه سيكون الإعدام وليس ثلاث سنوات كما كان يطلب المدعي العام. فيقصها نجيب فاضل في كتابه المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير

« حدثني بهذا» الشيخ طاهر المولوي بنفسه(الذي كان يحاكم أمام نفس المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام على عاطف أفندي. كان ذلك في عام ١٩٣٢م عندما التقيت بطاهر المولوي في مكتبة رائف قرادنيز في سوق الكتب(في حي بايزيد بإستانبول).

« جلس عاطف أفندي(في السجن) بعد صلاة العشاء وأخذ يكتب دفاعه عن نفسه(والذي طلبه منه القاضي) . . أغفى الشيخ عاطف أفندي

قليلاً بعد أيام طويلة لم يـذق فيها طعـم النـوم. . أغفى وفـي يده ورقـة دفاعـه الـذي لم يكمله. . نوم عـاطف أفندي لم يستمـر طويـلاً. وفجأة. فتـح عاطف أفندي عينيه وارتسمت على وجهه ابتسامة عميقة رقيقة عجيبة.

الشيـخ طاهر المولوي يسأل:

ماذا حدث يا فضيلة الشيـخ؟ لماذا استيقظت سريعاً!

قال الشيخ: حصل المراد من النوم.

ـ يعنـي؟!

ـ يعنـي رأيت الرؤيا التـي كنت انتظرها.

ـ ماذا رأيت؟

ـاعتدل الشيـخ عاطف أفندي، لاك ورقة دفاعه بيده، وقال:

ـ رأيت فـي رؤيـاي، فخر الكـائنات (سيـدنا محمـد ﷺ) يقول لي: يا عاطف أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟!

قال طاهر المولوي للشيخ: «وماذا تفسر هذا»؟

قال عاطف أفندي: سيعدموننـي، وسألتحق بحبيب الله.

طـاهر المـولوي: لا شـك قط فـي صدق هـذه الرؤيـا. . إلاّ أن المدعـي العمومي لم يطلب لك إلاّ السجن ثلاث سنوات.

سترى إنهم سيعدمونني، ولا أفهم إلاّ أن الأمر يأتـي من أكبر الأبواب.

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ صحيـح! ولم يعـد للكلام جـدوى! وها هي ذي الـورقة التـي كتبت فيها دفاعي ولم أكملها بعد. . . أمزقها!

وفـي اليوم التالـي حكمت المحكمة بالإعدام على عاطف أفندي عـلى أن ينفذ هذا الحكم فوراً فنفذ فـي فجر اليوم التالـي.

(٣)
أحمد نعيم بابان زاده

١ ـ حياته وأعماله:

حيـاتـه:

منذ عهد التنظيمات العثمانية، أي فـي بدايـات النصف الثاني من القرن التاسـع عشر، أصيب العالم الإسلامي بمقدمات غزوة الفكرة الأوروبية المتمثلة في القومية. تطور هذا الفكر بواسطة منظمات مدسوسة على الدولـة العثمانيـة، وجـودها في بـلاد المسلمين، وجـذورهـا في أوروبـا. نمت هـذه الفكـرة وازداد اتباعها وعلى رأسهم هؤلاء الذين تعلموا في الغرب فأخذهم بريقة.

وقد تمثل انتصار الفكرة الغربية في الدولة العثمانية بقيـام الدولـة القوميـة التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك الذي اتخذ مثالـه الأعلى في الغـرب رافضاً إسلامية البلاد الشرقية.

لابد من القول هنـا أن سبق هذه المرحلة، مرحلة إعـلان الأيديـولوجيـة الـطورانية سيـاسة للدولـة العثمانيـة بعد أن استـولت عليها ـ عنـوة ـ جمعيـة الاتحـاد والتـرقـي، إلّا أن الـوعي الإسـلامي العـام بجـانب نفـور القـوميـات الأخرى الموجودة فـي الدولة العثمانية مثل القوميتين العربية والكـردية من مبـدأ الاتحاديين وهو الجامعة الطورانية (وحدة أتراك العالم) بجانب عوامل أخرى أدّت إلى فشـل الجامعـة الطورانيـة ٠ بل وقـد تسببت هذه الفكـرة في تدمـير الـدولـة العثمانية.

وفي أثناء اقتحام الغرب الفكري لفكـرة المسلمين، ولـد أحمد نعيم بـابان زاده فـي بغداد. وأحمد نعيم ينتمـي إلى أسرة بابان زادة البغداديـة. وأحمد نعيم هذا هو الـذي عُرف فيـها بعد كـواحد من رجـال العلم المسلمين النـابهين ذوي

السمعة الإسلامية الطيبة، عُرف بعمق الفكر وقوة الحجة وسلامة المنطق يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، لكن شهرته طبقت الآفاق عندما دافع عن الفكرة الإسلامية في مواجهة القوميين (الجدد والقدامى) في الدولة العثمانية ثم في تركيا بعد انهيار الدولة، وهو الذي أخطر القوميين حتى لا يستغلّوا الإسلام في الدعاية للقومية وكسب مزيد من الأنصار.

أمضى أحمد نعيم فترة دراسته الإبتدائية في بغداد، ثم انتقل إلى مدارس إستانبول حيث استمر في بقية مراحله الدراسية التي . تُوِّجت بأستاذيته في الجامعة.

منذ شبابه كان يجيد اللغة العربية، وكانت معرفة العربية ميزة تفتح أمام المثقفين العثمانيين الطريق إلى الوظائف المحترمة، فقد التحق أحمد نعيم في البدء بوزارة الخارجية العثمانية بوظيفة مترجم وقد كانت وظيفة مرموقة، ثم عمل أستاذ اللغة العربية في نفس المدرسة التي تخرّج فيها وهي غالاطه سراي.

وبين عامي ١٩١١-١٩١٣م، عمل أحمد نعيم مديراً للتدريس العالي في وزارة المعارف. وأثناء تأديته لهذه الوظيفة عمل عضواً في غرفة التأليف والترجمة التابعة لوزارة المعارف أيضاً.

كما بدأ أحمد نعيم بك في عام ١٩١١ في إلقاء دروسه في كلية الآداب (شعبة الالهيات) في دار الفنون (الجامعة) بإستانبول، وأخذ يلقي في هذه الكلية دروس الفلسفة والمنطق والأخلاق. واستمر في ذلك حتى عام ١٩٢٣، كان في أثنائها أيضاً مديراً للجامعة.

وأثناء ذلك كان يكتب في الصحف والمجلات داعياً إلى الفكرة الإسلامية مدافعاً عنها، وكان هذا أثناء اشتداد المعارك بين أنصار الفكرة الإسلامية وأنصار الفكرة القومية، وكان طبيعياً أن تنتقل هذه المعارك إلى الجامعة بين الأساتذة الإسلاميين وبين الأساتذة القوميين.

يجدر الملاحظة هنا أن أحمد نعيم بك وجد في العمل السياسي ما يلائم دعوته، فنجده عام ١٩١٩م وقد أصبح عضواً بمجلس الأعيان واستمر في عضويته هذه لمدة ثلاث سنوات. وعندما انتهى مجلس «المبعوثان العثماني». عاد أحمد نعيم بك (عام١٩٢٢م)إلى الجامعة مرة أخرى واستمر في وظيفة الأستاذية والكتابة أيضاً، إلى أن (أطاح) به (القوميون الخلص) بعد أن كسبوا المعركة السياسية وسيطروا على البلاد وأعلنوا مبادىء الأيديولوجية الكمالية. وقد اتخذ الكماليون عدّة قرارات منها عدم السماح للمطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية، لا بالكتابة ولا بالكلام. وكان فصل أحمد نعيم بك من الجامعة في أول يوليو ١٩٣٢م.

أحمد نعيم بك أجاد اللغة العربيّة إجادته للغة العثمانية وعرف الفارسية، كما أنه لكي يعرف تطوّر الفكر الغربي درس اللغة الفرنسية حتى يجد الفرصة ليدرس الغرب مصدر الفكرة القومية.

لذلك اتسمت كتابات أحمد نعيم بك بالجدية وحازت الاحترام، وقد كان يعقد المقارنة دائماً في كتاباته بين مفكري الشرق الإسلامي وبين مفكري الغرب مبيناً في دراسات جادة مدى أهمية الفكر الإسلامي في الحفاظ على وحدة المسلمين، وخطورة استمرار الفكر الغربي في الشرق في تفتيت وحدة المسلمين.

وقد كانت خطورة الفكر الغربي متمثلة في الفكر القومي الذي أسماه المسلمون العثمانيون في ذلك الوقت (داء الفرنجة) أو (علة الغرب).

اشتهر من عائلة بابان زاده في ذلك الوقت إثنان: أحمد نعيم بك، وكان إسلامي النزعة إسلامي الاتجاه. وإسماعيل حقي بابان زاده، وهذا ارتقى إلى درجة وزير للمعارف وكان فكرياً مضاداً لأخيه أحمد نعيم، فقد كان إسماعيل حقي من دعاة الفكر القومي، كان كردياً يدعو للفكرة القومية الكردية، وكان صاحب مكانة كبيرة بين رجال الاتحاد والترقي. أمّا أحمد نعيم بك فقد وجد

أن: (من الذل الدعـوة إلى القوميـة أي إلى عصبية قـومية في الـوقت الذي ننعم فيه بالإسلام).

تخرج على يد أحمد نعيم بك عدّة آلاف من الطلاب طوال ثـلاثين عـاماً. كـان قريبـاً من تلامـذته. لم يكن يبخـل عليهم لا بالـوقت ولا بالجهـد في سبيل إعدادهم (فكرياً) و (علمياً).

وعندما ظهرت الحركة الكمالية في تركيا كان معنى ذلك أن تطورت فكـرة الطورانية (فكرة تجمـع أتراك العالم فـي دولة واحـدة) إلى فكرة الـدولة القـومية المحـدودة التـي أعلن مصطفى كمـال أتاتـورك حدودهـا بالـدولـة (التـي دافـع الأتـراك عنها وحملوا السـلاح دفاعـاً عن حدودهـا وأراقوا دماءهم فـي سبيلهـا) وهـي دولة تركيا الحالية.

هؤلاء الكماليون تمكنوا من الانتصار بفكرتهم القومية العلمانيـة. انتصروا وكـان لا بد بـالضرورة من وجهـة مصالحهم الأيـديـولـوجيـة تصفيـة المفكـرين الداعين للإسلام مفهومـاً للدولـة. وشملت التصفية فيـها شملت الأستاذ أحمـد نعيم بك إذ أنه كان فـي كل محاضـراته وكتاباته يفضل الفكرة الإسلاميـة، على الفكرة القومية الواردة.

تم إبعاد أحمد نعيم بك عن الجامعة وعن كل وسائل الاتصال الجماهيري فأصابه الحزن والكمد، أنّ ما كان يزعـج أحمد نعيم بك هـو انحسار القـوة عن الفكر الإسلامـي الذي وهب نفسه للدفاع عنه. حزّ في نفسه استيلاء المعارضين للفكرة الإسلامية على إدارة البلاد إذ أن النتيجة كانت تقول أن الإسـلاميين قـد خسروا المعركة.

فصلوا أحمد نعيم بك عن الجامعة فـي منتصف عـام ١٩٣٣م ومات فـي منتصف عام ١٩٣٤م .

كان أحمد نعيم بك يكره حب الظهور، ولم يعط أحداً الفرصة لمدحـه فقد كان يكره هذا. قال عنـه معاصـروه إنه لم يـداخله الغرور ولا الـرياء. كـما كان

سمحاً. قال عنه مدحت جمال إينانج ألب في كتابه المسمّى (أحمد نعيم: المدرّس) [المدرس في اللغة العثمانية بمعنى أستاذ الجامعة أي بروفيسور]، أن (كان لأحمد نعيم بك قلباً محمدياً).

كان لوفاة أحمد نعيم بك أثر كبير في نفوس الذين تلقوا عنه «الفكرة الإسلامية» وفي نفوس الذين قرأوا له، بل بلغ الأمر في ذلك أنه عندما سمع شاعر الإسلام محمد عاكف بوفاة أحمد نعيم [داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام الفكرة القومية] أن قال:

«حسبت ساعتها أن بيتي قد خرب وأنني واقع تحت أنقاضه».

كان شاعر الإسلام محمد عاكف على حق عندما قال: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة». ذلك لأن أحمد نعيم بك كان من أشدّ الناس تأثيراً في المثقفين الذين تكتلوا أمام قوى الفكر القومي المتعصب الذي غرقت فيه البلاد العثمانية في أوائل القرن العشرين. رثاه الشاعر التركي علي رضا قوش آضالي بقوله:

آه! لقد رحل عنا أحمد نعيم بك:

وهو منبع العلم والعرفان

كما رثاه العالم المسلم المشهور محمد حمدي المالي بقوله:

ذهب نعيم إلى ربه؛

عبر السجود.

أعمـــاله

أولاً ــ المقالات:

لأحمد نعيم بك مقالات كثيرة نشرها في مجلة (ثروت فنون) وهي مجلة ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد، تهتم بالأدب والأدباء، بها ترجمات من اللغات الغربية وخاصة الفرنسية، أمّا أحمد نعيم بك فقد كان له سلسلة مقالات في هذه المجلة تحت عنوان (بدائع العرب)، قدم فيها للقارىء العثماني

هذه المترجمات والشروح.

كما كتب أحمد نعيم بك المقالات في جريدة طنين وفي مجلة كلية الآداب بجامعة إستانبول.

٢ ــ ثم كتب في مجلة (صراط مستقيم) التي كانت تصدر في إستانبول. مجلة الصراط المستقيم التي أخذت في الظهور منذ عام ١٩٠٨، وهي مجلة أقامها المسلمون العثمانيون يردون من خلالها غائلة الفكر القومي الذي كان استولى على عقول الشباب العثماني، خاصة صغار ضباط الجيش قبيل انهيار دولة آل عثمان، وكتب في مجلة (سبيل الرشاد) وهي امتداد طبيعي للصراط المستقيم.

وقد عرض أحمد نعيم بك على المجلة رسالة أرسلها لها، عرض أن يكتب فيها، وقال فيها قال: «سلام عليكم، إنني أطالع في أوقات فراغي بحب وشوق ولذّة مجلتكم الغراء. . .»، وبعد أن أبان أحمد نعيم بك في رسالته إلى المجلة أنه يقدّر خدمات المجلة في وقت تمرّ فيه (أمة محمد) بالظلم والجهل، « وإني أُقدّر مدى توفيق المجلة في تلقين حقائق الإسلام للأذهان الفاسدة، وتبعث من جديد الأحاسيس الدينية في القلوب الميتة، وأن المجلة لها السبق في نفخ شعور الإحياء الإسلامي من جديد في البلاد».

ثم أفصح أحمد نعيم بك عن تصوّره لخدماته في مجال الإحياء الديني عن طريق المجلة، في قوله: «إن رأيي المتواضع أن أهمّ خطوة يمكن أن تخطوها في هذا المجال هو التفسير والحديث. وإني أعتبر أنّ على الرغم من خدماتكم الجليلة في المجلة، إلّا أننا لم نرَ فيها شيئاً خاصاً بالحديث الشريف، فالكتاب والسنّة هما أهمّ منبعين في ديننا. وأنه ينبغي عليكم أن تفتحوا قسماً لكلّ منها بين أعمدة (الصراط المستقيم)»، «ومن هذا المنطلق أقول لكم إنه برغم عدم حيازتي لقدرة عميقة في مجال التفسير ولا في مجال الحديث النبوي، ومع رغبتي في

خدمة المسلمين، فعلى الأقل يمكنني تقديم خدماتي في هذين المجالين عن طريق الترجمة من العربية».

«وإني لأثق أنني عندما أجد الفرصة لترجمة الكتاب المبارك المسمى بالتجريد الصريح وهو الذي رتبه الزبيدي عن البخاري باختصار، أثق أنني إذا ترجمت هذا الكتاب المبارك على حلقات وأرسلت ذلك إليكم فلن ترفضوه».

وقد كان هذا العرض من داعية إسلامي عميق الفكر عظيم التواضع، مسارع للخدمة الإسلامية، كسب وأي كسب لمجلة (الصراط المستقيم)، التي كانت صاحبة نفوذ عظيم في قلوب المسلمين.

بدأ أحمد نعيم بك في نشر «التجريد» في الصراط المستقيم، ثم أخذ بعد ذلك في شرح حديث نبوي في كل عدد من أعداد المجلة.

وقالت مجلة (الصراط المستقيم) في عرفانها بفضل أحمد نعيم بك:

«إننا نشكر باسم جميع العالم الإسلامي، الأخ أحمد نعيم بك، فقد أخذ على عاتقه هذه الخدمة السامية المقدّسة المفيدة».

ثانياً ــ المؤلّفات:

١ ــ تمرينات: وهو كتاب مدرسي في صرف اللغة العربية، عبارة عن تطبيقات على رسالة كتبها جميل الناظر بمدرسة غالاطه سراي.

٢ ــ دروس في الفلسفة.

٣ ــ علم النفس: وهو ترجمة كتاب «بيسيكولوجي»، لجورج فونس جريف، (إلى التركية).

٤ ــ ما هو علم الفلسفة؟ وهو ترجمة عن بول جانيت (إلى التركية).

٥ ــ ترجمة الأربعين حديثاً (من العربية إلى التركية).

٦ ــ قضية القومية: وهو كتاب في دحض الفكرة القومية، حتى أن

بعضهم نشره بعد ذلك بالحروف اللاتينية التركية تحت عنوان (الإسلام يمنع العرقية).

٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية.

٨ ـ ترجمة التجريد الصريح مختصر البخاري: لم يكمل، إذلم يصدر منه إلّا جزءان. الجزء الأول عبارة عن تأليفه، ويختص بدراسة علم الحديث والأصول، وهذا الجزء هو (الكتاب الوحيد الذي يمكن اعتباره ووصفه بأنه أكثر الكتب المنشورة حتى الآن في علم الحديث تكاملاً وعلمية)، كما وصفه ناشر كتاب بعنوان «الإسلام بخطوطه العريضة، لأحمد نعيم بابان زاده». نشر دار جيغيز بإستانبول عام ١٩٧٥م. وقد طبعت إدارة الشؤون الدينية بأنقره هذا الكتاب عام ١٩٢٨م.

٢ ـ رأيه في الإسلام والعصبية القومية:

نترجم هنا عن أحمد نعيم بك بعض كتاباته في موضوعين، هما: «بعض الأمور التي يسّرت انتشار الإسلام، وقضية القومية في الإسلام».

بعض الأمور التي يسّرت انتشار الإسلام:

سنتحدّث هنا عن بعض الوسائل التي يسّرت انتشار الإسلام، وهي:

١ ـ الاتحاد والإيمان الخالص:

كان العرب ـ وهم أول من دخلوا في دين الله أفواجاً ونشروه ـ كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة. كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضاً وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم، فجمعهم فيض الإسلام حول كلمة واحدة، كما أنّ هذا الفيض الإسلامي قد حوّل هذه القبائل المتفرقة إلى قوّة مجتمعة. ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء. فلم يعد ينسحب أو يفكّر في التقهقر عن مكانه بين المجاهدين أيّ فرد منهم حتى في أحرج مواقف القتال وأدقّها. لقد كان يعلم حتى أجهل الجاهلين منهم أنّ كل ميت في سبيل الدين شهيد، وكل من يحيا فهو غازٍ، وأنّ أيّ إنسان يلقي بنفسه في المخاطر لن يموت إذا لم يكن ذلك مكتوباً، وأنّ الأجل إذا حان وقته فلا يمكن أن يوقفه

شيء. ولأن هـذه الفكرة العلويّـة لم يكن لها وجـود عند هؤلاء الـذين يحـاربـون المسلمين، فقد كان شرف النصر في كل معركة من نصيب المجاهدين المسلمين.

٢ ـ تحمّل الشدائد، والبساطة:

كان العرب قوم بدو. نشأوا وكانت لهم القدرة على تحمّل الصعاب نتيجة التربية التي تمنحهـا الصحراء. قليـلًا يأكلون وقليـلًا يشربـون وقليلًا يلبسـون، ورغم هذا فقد كانوا يسيرون كثيراً. كانت لهم المقدرة الفائقة على السهر وتحمُّل التعب والمشـاقّ. ولهذا السبب كـانت جيوشهم بسيـطة فيها خفـة الحـركـة وقلّة الحمل والأثقال. وكانوا يستطيعون بيسر وسهولة تغيير المكان.

٣ ـ العسكرية والفروسية والإقدام:

كان العرب يجيدون ركوب الخيل بمهارة فائقة. كما كانوا يجيدون استخدام السلاح استخداماً يفضلون فيه العجم والـروم. كما أنهم بـالفطرة قـوم شجعان يفخـرون بالشجـاعة ويستقبلون المـوت ـ إذا لزم الأمـر ـ بشجـاعـة وإقـدام، ويعتبرون الفرار من العدوّ عيباً، وأيّ عيب.

٤ ـ العبقريات النادرة:

ظهر عباقرة عديدون، خاصة في الفترات الأولى من الإسلام، حيث كان وجودهم مصاحباً للجيوش الإسلامية، وعن طريقهم أحرز الإسلام تقدّمه.

ظهر أصحاب العزم والنيّة الصادقة والصلاح والتقوى مثل سيّدنا أبو بكـر وسيّدنا عمر، وظهر أيضاً أرباب الشجاعة والبـطولة مثـل سيّدنـا علي، وسيّـدنا حمزة، وظهر القادة مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبـي وقّاص، وأبـو عبيدة بن الجرّاح، ويزيد بن أبـي سفيان.. وظهـر السياسيـون أمثال عمـرو بن العاص، ومعـاوية بن أبـي سفيـان، والمغيرة بن شعبـة، وزياد بن أبيـه. أسهم كل هؤلاء من العـظماء في إعداد هـذه الفتـرة من فتـرات التـاريـخ الإسـلامي، وبعـدهم ظهرت شخصيات إسلامية تعقّبت خطى هؤلاء وساروا على منوالهم.

٥ ـ السياسة في الفتوح:

دخل المجاهدون المسلمون ـ عندما كانوا يعملون على نشر الإسلام ـ في

الأراضي التي يشكّل العرب فيها الأغلبية الكبيرة من شعوبها، مثل مناطق الشام والعراق.

وبعد أن ضمن الفاتحون ولاء هذه الشعوب، استمرّوا في التقدّم واهتموا أيّما اهتمام بوجود رابط دائم بينهم وبين مركز الخلافة.

٦ ـ انتشار العدالة:

في الوقت الذي كانت الشعوب الخاضعة لكل من إيران وروما تئنّ تحت وطأة ظلم وضغط هاتين الحكومتين، كان العرب ينشرون العدل في الأراضي التي دخلوها. كانوا يعطون الرعايا الحرية، وكانوا يساوون في الحقوق بين الأمير وبين البدويّ الفقير. كانوا ينفّذون بدقّة متناهية أوامر سيّدنا أبو بكر الصدّيق التي تحثّ على عدم الغدر وعلى البعد عن خداع أهل البلاد المفتوحة، وعلى عدم ربط أذرع الأسير، وعلى عدم تعذيب أحد، وعلى عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعلى عدم قطع النخيل والأشجار المثمرة، وعلى عدم ذبح الحيوانات كالأغنام والماشية والجمال عبثاً، وعلى عدم التعرّض للرهبان الزاهدين في الدنيا الذين انسحبوا إلى أديرتهم.

وعندما وجد الإيرانيون والرومان كل هذا، أخذوا يفتحون أبواب مدنهم بلا حرب أحياناً، وبصدام خفيف أحياناً أُخرى، لمجاهدي الإسلام، وينضمون بذلك إلى موكب العدالة الذين يدخلونه حديثاً بعد أن ذاقوا مساوىء الحكومات السابقة.

بهذا الذي عدّدنا وبغيره، ومن قبل بفضل العون الإلهي الذي غذّى هذه الأسباب إذا بنور الإسلام ـ ولمّا لم يمضِ بعد قرن واحد منذ ظهوره ـ قد امتدّ إلى داخل فرنسا مارًّا بحدود الهند والصين في الشرق والأندلس من الغرب بعد أن أزاغ بصر حكومتي إيران وروما.

أحمد نعيم: «كتنل جزكيلريله إسلام»

* * *

قضية القومية في الإسلام:

بدأت قضية القومية، أو بمعنى آخر العصبية القومية والجنسية بين المسلمين أن تكون إحدى المسائل الحيوية في البلاد (العثمانية) ابتداء من عهد المشروطية.

وهذه القضيّة بدعة أجنبية مهلكة بالدرجة التي أرى فيها ـ أنا العبد العاجز ـ أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السلّ في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرّة استعرناها من أوروبا بدافع من الجهل. والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشدّ الانتباه، وأكثر ما يشدّ الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ عن أوروبا إلاّ أسوأ ما عندها، وأننا لا نطبّق هنا الأمور الطيبة في أوروبا إلاّ إذا فسدت.

* * *

القضية القومية مذمومة ومرفوضة شرعاً. وهي بالتعبير الشرعي (دعوى الجاهلية)، وهي أفظع ضربة لقوام الأمة الإسلامية ولبقائها ولرفاه المسلمين ولسعادتهم.

* * *

إن المعنى الذي أخذه هؤلاء الذين يمسكون في أيديهم براية العصبية القومية، معنىً منافٍ للوطنية ولحبّ الوطن. والمصيبة العظمى التي حلّت بإخواننا الألبانيين الذين جروا وهرعوا خلف السعادة القومية والسراب المغفل، ليعتبر درس عبرة فظيع علينا استيعابه.

إن نفس الأسبابَ تولد نفس النتائج، وبناء على هذه القاعدة الطبيعية والمعقولة فإننا إذا داومنا السير في هذا السبيل، فإن هذه المصيبة ستحلّ بنا إن آجلاً أو عاجلاً. وبهذا الاطراد ستصبح هذه الديار، وهي آخر ملجأ للأمة الإسلامية [يقصد المؤلف بذلك: الدولة العثمانية]، يمكن أن تنقلب ـ معاذ الله تعالى ـ إلى ديار للكفر مثل ألبانيا.

* * *

إننا نرى زعماء الفكرة القومية ينقسمون إلى مجموعتين:
الأولى: القوميين الخلّص.
الثانية: القوميين الإسلاميين.

ونحن نرى [أي المؤلف أحمد نعيم بك] أن المجموعة الأولى تريد أن تلقح في الأذهان وبوضوح، فكرة الإلحاد. أما الفرقة الثانية [أي القوميون الإسلاميون] فأصحابها لا يريدون أن يضحّوا أبداً بأي الفكرتين: الإسلامية والقومية.

هؤلاء [القوميون الإسلاميون] يتحدّثون عن ضعف العنصر التركي وأنه يحتاج إلى العون والمساعدة. لكنهم لا يريدون أن يجرحوا الشعور بالجامعة الإسلامية. إنهم يعتبرون أنّ هذه الجامعة لازمة لأمرين: أولهما عدم انفصال العناصر الأخرى الإسلامية عن الدولة، وأيضاً، يسر تربية وارتقاء الأتراك. لكنهم يخطئون في نقطة، فهم يقولون: «إن الجامعة التركية تقوّي الجامعة الإسلامية. وإن دعوى العصبية ليست مغايرة للدين الإسلامي. وإن الفكرتين لا تزاحم كلاهما الأخرى. بالعكس، فإن كلاً منهما تكمل الأخرى وكلاً منهما تسهل حصول الأخرى. واننا نستطيع عن طريق الحميّة الوطنية والقومية أن نقرّب إلى الإسلام العديد من الشباب المحروم ـ بكل أسف ـ من الإيمان ومن الإسلام». يقول القوميون الإسلاميون هذا ويقيمون بجانب الإيمان الديني «إيماناً قومياً».

ولقد التقيت ببعض أشخاص من هذه المجموعة، لا أشكّ أدنى شكّ في تمسّكهم بالإيمان والإسلام، وهؤلاء يعتقدون جداً بأن الشعور الإسلامي لا يصاب بأي ضرر كان إذا ما حدث التفاخر بالقومية، بل بالعكس، ـ والقول لهم ـ فإن الإنسان الذي يفعل هذا يصل إلى درجة من الرقيّ عظيمة إذا افتخر بشعور الاعتزاز المصاحب للكيان، حتى ولو كان هذا الشعور قائماً تجاه الأقوام الأخرى ولو كانت مسلمة.

تقول هذه الشخصيات التي أتحدّث عنها: «وما حيلتنا؟! إذا لم نقل بهذا

وأبطلنا الحديث عنه فإن العنصر التركي سيتعرّض للزوال. الألبانيون والعرب قاموا بالدعوة إلى هذه المسألة (القومية) قبل أن نفعل (نحن الأتراك) هذا الأمر. إننا الآن في موقف الدفاع عن النفس، فإذا ترتّب على دفاعنا هذا ضرر وقع على المسلمين فإن الذنب في هذه الحالة ليس ذنبنا نحن. إن الذنب إنما يتحمّله أوّل من بدأ هذه المسألة وقال بها. والبادىء أظلم».

وإذا سألنا هؤلاء الذين يدعون إلى القومية العربية: «لماذا تدعون إلى القومية، فإنهم يبحثون عن ألف وسيلة ووسيلة ليقولوا إنهم على حق وإنهم في موقف الدفاع ويكررون ـ مثلهم في مثل هذا مثل إخواننا الأتراك ـ القول بأن البادي أظلم»!.

* * *

لسنا هنا في مجال البحث عن: مَنْ ظَلَم مَنْ؟! لأننا نرى في كل من الطرفين أمراً منكراً يخالف الشريعة ولا يتّفق مع روح الإسلام. وبموجب الحديث الشريف: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فإننا نرى أنفسنا مكلّفين بمساعدة الجميع، بمعنى أننا مكلّفون بالدعوة إلى طريق الحق والصواب.

* * *

بناء على ذلك، نقول لإخواننا (الأتراك) القوميين الإسلاميين إن التركي يحتاج العون وهو مفتقر لهمّة إرشاداتكم، وهذا لا ينكره أحد. وليس من الحقّ أن ندع التركي بعد ذلك عرضة لمتاعب تؤدي إلى ضرره ولا أن ندعه عرضة لحالة لا يستطيع معها التفكير في سعادة دنياه وآخرته. والرقي بأحواله الاجتماعية وتدعيم قوته الاستحصالية وتقوية معنوياته وتنمية ملكاته الفاضلة وإزالة ملكاته الرديئة لأمر جدير حقاً بالتقدير وهذا أمر مقبول عند الله وعند الناس... ولكن عليكم ألاّ تجتازوا حدّ الجواز في أي وقت من الأوقات وتفاخرون بدعوى الجاهلية وبالأنساب وبالآباء الأقدمين... وعليكم دائماً ألاّ تغفلوا عندما تخاطبون التركي عن مخاطبته بكلمة: «يا مسلم!» بدلاً من كلمة: «يا تركي!». حدّثوه دائماً عن الإسلام ولا تحدّثوه عن القومية التركية. وعندما

تريدون أن تضربوا على أوتار همّته الحسّاسة لا تضربوا هذه الأوتار باسم العنصر التركي وإنما باسم الإسلام. لا تفصلوا تاريخ الترك عن تاريخ الإسلام.

راجعوا أنفسكم قليلاً وفكّروا بإنصاف. إنكم تجرون خلف هذه الدعوى القومية وهي دعوى فارغة. احسبوا جيداً وراجعوا جيداً الخدمات التي قمتم بها للأتراك. ماذا أضفتم لأدبهم أو لقواعدهم اللسانية أو لقاموسهم أو لعلومهم وفنونهم أو لتجارتهم وزراعتهم؟!!

ماذا أكسبتم الأتراك غير دعوى أنانية جافّة، وغير إفساد علاقتهم بإخوانهم الآخرين (من الشعوب الأخرى التي كانت تستظلّ براية الدولة العثمانية). إن عموم الناس لا يفهمون جيداً ماذا تريدون قوله. إن عموم الناس لا يعلمون أيضاً ماذا يفعلون. إنكم قلتم لهم إن أجدادهم، هم، قدماء الأتراك، فآمنوا بما قلتم لهم. حتى الذين لم يبقَ منهم أيّ ارتباط بالعنصر التركي غير اللغة بعد أن اختلطت دماء الأقوام المختلفة على مدى ألف سنة، حتى أن كثيرين منهم يظنون أنفسهم أنهم أولاد وأحفاد هؤلاء المشركين القدماء ولم يفكّروا لحظة أن القومية التركية للكثير منهم شيء عارض تماماً، ذلك لأن ارتباطهم بالقومية التركية لم يأتِ إلاّ نتيجة للغة التركية التي تعلموها فيما بعد، وهؤلاء يقسمون ــ وهذا حدّ الغاية في الجنون ــ بكل من: أرض جنكيز المقدسة» و «قانون جنكيز المقدّس».

إنه لأمر جدير بالاهتمام حقاً أن يعرف الكثير من الدعاة للقومية، أي جنس وعصبية ينتمي إليها البطن الثالث لهم، وما إذا كان هذا البطن تركيّاً أم من جنس آخر غير تركي.

إنكم أيها القوميون تعملون لإحياء الأساطير الخرافية التي مرّت عليها آلاف السنين، مع أن مثل هذا العمل سينمّي ــ ولا شك ــ في الإخوة المسلمين الآخرين إحساس الانفصال ويسبب لهم الانزعاج.

أيها الأخوة القوميون الإسلاميون! ها أنتم ترون أنّه مهما عملتم بحسن

نيّة فليس من الممكن أن تنالوا مقصودكم بالطرق التي نهى الله عنها.

إن الهدف ذو الغايتين لن يجدي شيئاً. وأتباعكم؟ هل سينتمون إلى القومية التركية أكثر من الإسلام؟ أم إلى الإسلام أكثر؟ إذا قلتم فلينتموا إلى الغايتين في درجة واحدة، فلن يكون هذا ممكناً. لذلك أستحلفكم بالله أن تصرّوا على أن يولي الأتراك وجوههم نحو الكعبة وألاّ يحوّلوها إلى طوران. لا توصوا أحداً بأن يولي وجهه شطر الاثنتين، ذلك لأن الجهتين تضادّ كل منهما الأخرى ولا يمكن رؤية كلاهما في وقت واحد. فإما أن يتجه الأتراك نحو الكعبة ـ كما هم كذلك منذ ألف عام ـ ويتركون طوران خلفهم، أو ينظرون إلى طوران فينسون بعد ذلك الكعبة. أما الذين ينظرون تارة إلى هنا وأُخرى إلى هناك فيدخلون في زمرة: «مذبذبين بين ذلك لا إلى هذا ولا إلى هؤلاء». ومعروفةٌ حدود الخير الذي يمكن أن يأتي من المذبذبين في الفكر.

في هذه الحالة دعوكم من هذا الخيال الأجوف الذي يجمع الضدّين.. ذلك لأنه من المحال التواجد تحت لواء الإسلام، وتحت لواء الجاهلية في وقت واحد.

إن معرفة قانون جنكيز والتعرّف على وطن ايلخان وذكر دولة الجيش الذهبي (من الدول التركية القديمة) لا يهمنا في شيء، فلا فخر بالشرك الذي حدث في الماضي. إن الذي يلزمنا معرفته هو: الشرع المحمدي والوطن الإسلامي ومعرفة المجاهدين المسلمين، شرف العنصر لا قيمة له أمام شرف الإسلام فماذا بعد الحق إلاّ الضلال.

هذه نصيحتنا للقوميين الإسلاميين. وهذا أيضاً عين ما نقوله لإخواننا العرب الذي بهر هوى العصبية أعينهم.

أحمد نعيم: «إسلامده دعواي قوميت»

دار الخلافة، توسيع طباعت مطبعة سي ١٣٣٢

(٤)
بديع الزمان سعيد النورسي

١ ـ حياته وأعماله:

أوّلاً ـ حياته وأعماله:

في عهد السلطان عبد الحميد ولد سعيد النورسي ـ ويلقب ببديع الزمان ـ في قرية نورس، وهي قرية تابعة لمحافظة بدليس، في شرقي الأناضول عام ١٨٧٦م/١٢٩٣هـ.

درس سعيد النورسي النحو والصرف والعلوم والفقه الإسلامي وأتم دراسته نتيجة لذكاء حاد وهو لم يتجاوز بعد سن البلوغ، كان أثناء دراسته معروفاً برجاحة العقل وقوة الذاكرة فاكتسب تقدير معلميه.

اشترك سعيد النورسي ـ على عادة عصره ـ في المناظرات التي كانت تعقد بين العلماء وبين المثقفين وكانت هذه المناظرات وسيلة لشهرته إذ أنها أبانت عن ذكائه وسعة اطلاعه. سعيد النورسي كردي الأصل كردي اللغة ولم يتعلم اللغة التركية إلاّ عندما نزح إلى مدينة (وان) وهي إحدى مدن شرق تركيا، وكان ذهابه إلى وان بدعوة من واليها حسن باشا، وكان ذلك بعد أن ذاع صيته واشتهر بين الناس بالعلم والذكاء. وهناك مكث سعيد النورسي في وان خمسة عشر سنة قضاها محبوباً من الولاة ومن الأهالي على حدّ سواء، بل قامت بينه وبين طاهر باشا، الوالي الذي خلف حسن باشا، علاقات جيدة.

وفي وان أخذ سعيد النورسي يلقي دروسه في مدرسة خورخور. وأثناء إقامته في وان أخذ سعيد النورسي ـ بهمة فائقة ـ في تنوير العشائر الكردية في الشرق الأناضولي واطلاعهم على أمور دينهم. وخلال تجواله في محافظة وان ولقائه بالمثقفين الإسلاميين وطلبة العلوم الإسلامية والأساتذة وأفراد العشائر، تيقن بأن على المسلمين من الأخذ بالعلوم الطبيعية، لذلك أخذ هو في دراسة الجغرافيا والفيزياء والفلك.

من هذا أيضاً أدرك ضرورة أهمية تدريس العلوم الطبيعية جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية والعقيدة الإسلامية، حتى يستطيع الذين لا يفهمون إلّا بلغة العلوم الطبيعية الوصول إلى فهم حقيقة الإيمان.

وعندما قامت حركة ٣١ مارت (أبريل) في عهد السلطان عبد الحميد كان حزب الاتحاد والترقي هو الحاكم المسيطر على البلاد، اتخذت الجمعية هذه الحركة التي قام بها الجاويش حمدي وباسم الدين للقضاء على الضباط الشبان المتأوربين، والذين يكنون العداء للدين بفعل دعاية الاتحاد والترقي، اتهمت الجمعية ـ بعد فشل الحركة ـ عبد الحميد بتدبير الحادث وهو منها براء. وكانت وسيلة مباشرة لخلعه من على العرش.

زجت جمعية الاتحاد والترقي الكثير من علماء الدين إلى قاعات المحاكم، وكان من ضمن من زج بهم إلى المحاكم: الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي. لكن سعيد النورسي دافع عن نفسه بمهارة وصدر الحكم بتبرئته من الحادث.

* * *

بعد ذلك ترك سعيد النورسي حياة المدينة في إستانبول، وعاد إلى وان حيث الحياة الخشنة، ومن ثم أخذ يهتم بتثقيف القبائل ثقافة إسلامية.

* * *

ثم كانت له زيارة إلى سوريا، وفي دمشق وقف بديع الزمان سعيد النورسي مخاطباً العرب من الجامع الأموي بدمشق، ليلقي خطبته المشهورة

بالخطبة الشامية (الشام في المصطلح العثماني تعني دمشق) في هذه الخطبة أوضح سعيد النورسي أسباب تأخر العالم الإسلامي كما شخَّصها.

* * *

يتحرز بديع الزمان سعيد النورسي في خطبته هذه من السياسة فيقول موجهاً خطابه إلى العرب بقوله: «إخوتي! لا تظنوا أنني أجاذبكم أطراف الحديث لأجركم إلى أمور سياسية، كل السياسات يجب أن تخدم الإسلام وليس لأحد أن يتجرأ لجعل الدين مطية السياسة».

اشترك بديع الزمان سعيد النورسي متطوعاً في الحرب العالمية الأولى على رأس ٣٠٠٠ شخص من تلامذته، وكان اشتراكهم هذا، ضد الروس الذين استطاعوا احتلال بدليس بعد قتال مرير بين الروس من ناحية وبين المسلمين من أتراك وأكراد وغيرهم من ناحية.

وقع سعيد النورسي في أسر الروس مع البقية المتبقية من تلامذته، إذ كان كثير منهم قد استشهد أثناء القتال الضاري ضد الاحتلال الروسي. وكان أثناء مدة الأسر يعتز بكونه عالماً، وكان يفقه الأسرى من المسلمين أمور دينهم.

حدث أن جاء القائد العام الروسي نيقولافيج ليتفقد الأسرى، فقام له الجميع خوفاً ما عدا سعيد النورسي، احتد القائد الروسي وسأل أسيره العنيد عن سبب امتناعه عن قيامه له فقال سعيد له: «إنني عالم من علماء المسلمين ولا أقوم لك». احتد نيقولا وأمر بقتل سعيد النورسي لكنه تمالك نفسه بعد ذلك وأوقف أمر الإعدام.

واستطاع النورسي أن يهرب من الأسر الروسي في سيبيريا ومنها إلى أوروبا ومن ثم إلى إستانبول. كان أنور باشا نائباً للقائد العام للجيوش العثمانية ووزيراً للحربية عندما طالب أنور باشا في وثيقة مؤرخة في العاشر من أغسطس عام ١٩١٨، إهداء ميدالية الحرب إلى سعيد النورسي مع إهدائه درجة علمية

مناسبةً لجهوده في حثّ القبائل على الحرب ضد الروس عند اعتداء هؤلاء على نواحي بدليس، ثم تعيين سعيد النورسي عضواً بدار الحكمة الإسلامية بإستانبول وكانت تضم علماء من مختلف البلدان الإسلامية.

وعندما احتل الحلفاء إستانبول، وقامت حرب الاستقلال التركية في الأناضول، وبعد نجاح هذه الحركة وتأسيس مجلس الأمة في أنقرة، استدعت الحكومة الكمالية بديع الزمان سعيد النورسي إلى أنقرة بعد أن أصبحت هذه المدينة العاصمة التركية بدلاً من إستانبول.

جاء سعيد إلى أنقرة وقوبل بحفاوة وترحاب. لكنه لم يستطع أن يتواءم مع الحكومة الكمالية فقرر أن يترك أنقرة بعد أن أصدر بياناً أوضح فيه رأيه من أن أعضاء مجلس الأمة الذي يمثل الشعب التركي المسلم يتصرفون تصرفاً قد يبعدهم عن الإسلام بعد ذلك.

إنزوى بديع الزمان وأخذ في التعبد والتفكر ونشر أفكاره الإسلامية عن طريق تلامذته، فأخذت الحكومة الجمهورية في تعقبه ومن ثم قضى حياته مشرداً ما بين سجن ومنفى.

وفي عام ١٩٣٥م وجهت إليه الحكومة التركية اتهاماً بأنه يشكل جمعية سرية ضد النظام، واقتيد إلى محكمة اسكيشهر ومنها نفي إلى قسطموني، وفي عام ١٩٤٣م قدم للمحاكمة في مدينة دينزلي بتهمة: تشكيل جمعية سرية تُحرّض الشعب على القيام بتمرد ضدّ الحكومة، وهدم ما قامت به الثورة التركية من انقلابات، ووصف مصطفى كمال باشا بأنه دجال وهادم للدين».

استمرت محاكمة سعيد تسعة أشهر ظلّ خلالها معتقلاً، وانتهت المحاكمة ببراءته. لكنه أجبر على الإقامة في أميرداغ وهي منطقة تابعة لمحافظة أفيون.

وفي عام ١٩٥٢م وصل بديع الزمان سعيد النورسي إلى إستانبول، ومنها عاد إلى أميرداغ وكان في تلك المرحلة يملي علي طلبته رسائل فيدونوها بالأحرف العربية وينشرونها بين الناس فكثر طلّابه والمؤمنون بفكره.

تعرض أتباع سعيد النورسي ـ ويسمون طلّاب رسائل النور ـ لمشقات من الحكومة كثيرة، لكن أعدادهم كانت في ازدياد خاصة من بعد عام ١٩٥٠م في عهد عصمت أينونو.

وأصبحت مؤلفات سعيد النورسي بمثابة المرشد للأتراك المسلمين يقرؤونها ويفيدون منها، وتشكلت حولها الحلقات. من هذه الكتب سوزلر (الكلمات)، واللمعات، والمكتوبات، والشعاعات، وعصا موسى، وترجمة حياة، والخطبة الشامية، والمثنوي النوري، وإشارات الإعجاز.

أمّا رسائل النور، فهي كما يصفها أشرف أديب: تفسير حقيقي للقرآن الكريم وإن لم يكن بترتيب الآيات القرآنية كل على حدة، اتبع فيها (سعيد النورسي) منهج الاحتياج».

رسائل النور التي ألّفها سعيد النورسي تبلغ ١٣٠ رسالة أصبح لها من الطلاب أعداداً كثيرة منتشرين في جميع أنحاء تركيا، ويشكلون قوة لها تأثيرها في تيّار الحركة الإسلامية في تركيا بل وفي مجريات السياسة التركية أيضاً، يعكف طلاب النور على قراءة رسائل النور في حلقات داخل ما يسمى بـ «درس خانه» حيث يتدارسون الرسائل ويتفهمون ما بها ويثيرونها بشكل منتظم رتيب.

أما كنه رسائل النور فهو: «رد تشكيكات شياطين الجن والأنس، وتقوية عقائد المسلمين في طريق الحق والصواب».

وفي عام ١٩٦٠م أراد سعيد النورسي أن ينتقل من أسبرطة إلى أورفه وفي هذه الأخيرة مات في ٢٣ مارس ١٩٦٠م ودفن في تكية خليل الرحمن في أورفة.

وعندما قامت ثورة ١١ يوليو عام ١٩٦٠م في تركيا (وهي الثورة التي قام بها الجيش بقيادة جمال كورسيل ضدّ حكم عدنان مندريس والتي أدّت إلى إعدام مندريس) أمر الثوار الجدد بفتح قبر سعيد النورسي وإخراج جثته وإعادة دفنها في أسبرطة.

وفي مكـان مجهول لا يـدري أحد حتى الآن، دُفنت جثـة الرائـد والمفكّـر والحركي بديـع الزمان سعيد النورسي.

ثانياً ـ مؤلفـاتـه:

يمكن ذكر مؤلّفات النورسي على النحو الآتي:

(أ) رسائل النور: وهي ١٣٠ رسالة تنقسم إلى الآتي:

ـ سوزلر (الكلمات) ٣٣ رسالة.

ـ مكتوبات: وهي في ٥٠ رسالة.

ـ لمعات: وهي في ١٥ رسالة.

ـ لواحق المكتوبات: وهذه في ثلاثة أجزاء:

الأول: لاحقة قسطموني.

الثاني: لاحقة أميرداغ.

الثالث: لاحقة بارلا.

(ب) المؤلفات الأخرى:

إشارات الإعجاز في مظان الإيجار (وهو تفسير للقرآن الكريم) ـ المثنـوي العـربـي (وهـو في العلوم المختلفـة) ـ الصيقـل الإسـلامي (وهـو في حـلّ شتى المشكلات الإسلامية) ـ وصفة للعوام.

٢ ـ مواقفه الفكرية:

لبديـع الزمان سعيد النـورسي صفات تجعله يـأخذ مكـانه بـين أكثر رواد العالم الإسلامي همّة. من صفاتـه أنه كـان صاحب: وقـوف على العلوم الـدينية ومعـرفة بـالعلوم العصريـة. كان صـاحب ذكاء وبصيـرة كـما كـان عـالي الهمـة شجاع. عزيز الإسلام. كان سعيد يـرفض فكرة أن يتـزوج لأنه أراد أن يـوقف

حياته على الجهاد في سبيل نصر قضيته وكان جهاده من سجن ومنفى يجعله في عدم استقرار في حياته الزوجية إن تزوّج.

لم يكن سعيد النورسي عالماً منطوياً منزوياً كبعض العلماء في عهود الانحطاط بذل سعيد الجهد الكبير والحركة الفعالة لإيقاف التيارات الملحدة.

كان يدرك صورة العالم الذي يعيش فيه ويحيط بمشكلات لمسلمين ويعرف خطط أعدائهم، كما كان ممتلئاً بروح الجهاد والنضال أمام اتجاهات الإلحاد التي سادت عصره.

وقد انكب على دراسة المشكلات التي تعترض تقدّم المسلمين كما انكب أيضاً على إدراك وضع المسلمين في العالم المعاصر ومحاولة استخلاص خطة تفتح الطريق أمام نهضتهم من انحطاطهم، ويمكن إجمال أفكاره في علاج العالم الإسلامي من أسباب الانحطاط فيما يلي:

١ ـ **الأمل**: (إن المستقبل لن يكون إلاّ للإسلام، وأن الحكم لن يكون إلاّ لحقائق القرآن. فاطمئنوا ولا تيأسوا، وتأملوا بنصر الله وعونه)، (إن المستقبل سيكون للإسلام وحده).

٢ ـ **الصدق**: (فما لم يكن حبل الصدق متصلاً بين الأفراد في حياتهم الاجتماعية فإن من المحال أن يتداولوا بينهم أخلاق الإسلام ومبادئه).

٣ ـ **المحبة**: (فلنجعل من أسلحة جهادنا في سبيل الله الحب والتآلف ومقابلة الأعداء بقلوب بيضاء نقية تحقق حب الإنسانية والخير للجميع).

٤ ـ **الغيرة على المصلحة العامة والشعور بمسؤولياتها**: (أفما كانت الخلافة الإسلامية التي أسستموها [وكان بديع الزمان في هذا، يوجّه كلامه إلى العرب من الجامع الأموي بدمشق] أنتم ثم أتمها العثمانيون من بعدكم، رابطة أحالت ملايين من المسلمين إلى أسرة واحدة متضامنة متآخية وربطتهم بسلسلة نورانية واحدة حيرت العقول والألباب).

٥ ـ **قيام الروابط النورانية التي تربط بين المؤمن والمؤمن**: (الهيئة الإسلامية عامة أشبه ما تكون بجهاز معمل كبير فيه عجلات وأشرطة وآلات كثيرة متداخلة لكل منها وظيفة وعمل، فإن تخلف واحد منها عن العمل لحظة أو تجاوز حدّه، انتشر الفساد والعطب في بقية الأجزاء الأخرى لا محالة. ونحن بسبيل أن نشكّل جهاز معملنا الإسلامي مرة أخرى، وإن هذا يدعوكم جميعاً أن لا تنشغلوا بالخصومات والمنازعات الشخصية، وسوف لن ينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة كل من يستدبر العمل في الجهاز الإسلامي ليولي وجهة شطر الآمال والمطامع الشخصية).

٦ ـ **إقامة الشورى الشرعية**: (إن سبيل الاستفادة من الحياة الاجتماعية وما فيها من ملكات وثروات واستعدادات محصورة في إقامة الشورى الإسلامية في المجتمع، وإني لأعتقد أن المشورة الحقيقية عبر الأزمنة والأعصار هي التي تجعل الأجيال تلاحق الخبرات والتجارب) و(لقد نجح الأجانب أخيراً في ضرب أغلال الاستبداد على أقدام أربعمائة مليون من المسلمين منتشرين في قارتي آسيا وأفريقيا [كان هذا فى وقت سعيد النورسي] وليس من سبيل إلى كسر هذه الأغلال إلاّ بالالتجاء إلى الحرية الشرعية النابعة من الإسلام تتخذ أساسها من أنه لا يذل المسلم ولا يتذلل «و» من كان عبد الله فهو لا يكون عبداً للعباد).

النورسي ورفض المدنية الغربية:

في العهد الذي ظهر فيه سعيد النورسي، كانت المدينة الغربية تعيش فترتها الذهبية، كانت تتحدى في غطرسة وغرور مشاعر الشرقيين عامة وحضارة الإسلام خاصةً. واستطاعت هذه المدنية الغربية أن تشدّ إليها ليس المسلمين فقط وإنما أيضاً بعض علماء المسلمين الذين حاولوا إفساح بعض المجال للعقل الذي كان محور الحضارة الغربية وأساسها الوحيد. في هذه الأثناء قام سعيد النورسي ليرفض المدنية الغربية داعياً إلى العودة إلى أسس الإيمان.

أوروبا والإسلام:

وفي تشخيص الموقف الحضاري في الشرق والغرب يقول بديع الزمان سعيد النورسي: (أن أميركا وأوروبا حاملتان بالإسلام، فكما أن الإمبراطورية العثمانية كانت حاملة بأوروبا فولدتها، فلا بدّ أن يولد من أوروبا دولة الإسلام).

ضد الإنكليز في الخطوات الستة:

بعد الحرب العالمية الأولى وأثناء احتلال الإنكليز لإستانبول، قام سعيد النورسي بتأليف رسالة بعنوان الخطوات الستّة طبعها خلسة ووزعها خِفية، وفي هذه الرسالة كشف صريح لخفايا السياسة الإنكليزية ومحاولة الإنكليز في إفساد الحياة المعنوية لدى المسلمين.

ذات يوم قرأ سعيد النورسي خبراً مؤداه: «ن وزير المستعمرات البريطاني ألقى كلمة في البرلمان الإنكليزي قال فيها ـ وهو يحمل في يده نسخة من القرآن الكريم ـ: «طالما أن هذا القرآن في يد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم بالمعنى التام للكلمة، على ذلك، فإن واجبنا ينحصر في أحد أمرين: إما حرمان المسلمين من القرآن، وإمّا شلّ حماسهم تجاهه».

وقد كان لهذا الخبر تأثيره العميق في كيان سعيد النورسي فقد أدرك مدى عظم مسؤوليته كعالِمٍ في الدين، كما اقتنع بضرورة تفسير عظمة القرآن بعد أن رأى ضخامة حجم الخطط التي تستهدف الإسلام ومن ثم أدرك أن العمل الإسلامي لا بدّ وأن يتركز في إستانبول باعتبارها مقرّ الخلافة الإسلامية ومركز العالِم الإسلامي حيث تتركز فيها كلّ الألاعيب والمؤامرات الأجنبية.

بديع الزمان واصطلاح التعليم:

أحس بديع الزمان سعيد النورسي بأن «الكتب الإسلامية القديمة لم تعد كافية للدعوة الإسلامية» وفهم أنه لا يكفي للعمل على إزالة الشبهات التي راجت ضدّ الإسلام في العصر الحديث، لا يكفي في ذلك تحصيل العلم على

المنهج القديم والكتب القديمة، لذلك اهتم سعيد النورسي بتعلّم العلوم الأخرى مثل الرياضيات والطبيعة والكيمياء والفلك والجيولوجيا.

كما بذل النشاط لإصلاح نظام التحصيل الديني في المدارس الدينية القديمة التي يطلق عليها في المصطلح العثماني اسم (المدرسة)، ويعكس كتاب سعيد النورسي (محاكمات) فكرة الحاجة إلى تجديد جاد في أصول التدريس في العلوم الإسلامية.

مطالب النورسي في اصطلاح التعليم:

يقول بديع الزمان النورسي: (إن طلّاب العلوم الدينية يدينون المدرسين الجدد بضعف الإيمان بسبب مسائل خاصة بالمظهر الخارجي. أمّا المدرسون الجدد فيسمّون طلّاب العلوم الدينية بالجهل نظراً لأنهم غافلون عن الفنون والعلوم الحديثة. وأن هذا الاختلاف في الفكر والمنهج قد هزّ الأخلاقيات في المجتمع الإسلامي وخلف هؤلاء عن التقدّم المدني).

(إن الوسيلة الوحيدة لإصلاح هذا، إنما يكمن في وضع العلوم الدينية في المدارس المدنية وتدريس العلوم العلمية بدلاً من الفلسفة اليونانية القديمة في المدارس الدينية، ووضع علماء متبحرين في التكايا من أجل تثقيف وتنوير طبقة الدراويش المتصوّفة).

(يقول سعيد شامل في حديث له مدرج في كتاب «المثقفون يتحدثون عن سعيد النورسي» «..لو جاء بديع الزمان قبل قرن لتغيّر مستقبل العثمانيين» و«أن المرحوم [سعيد النورسي] جدّلي باعتبار الشخصية، يعني إنه مناظر قدير، لا يكتفي بالانزواء وتسطير أفكاره على الورق. إنه مربٍ كبير يعرف كيف يربي تلامذته عن طريق المباحثة والمناقشة مثله في هذا مثل الإمام الأعظم تماماً).

(د)

الرِّحْلاتُ وَالجُغْرافيا وَالعُلُومُ

(١) الشيخ آق شمس الدين
ودوره في التربية والعلوم.

(٢) مصر في التراث الجغرافي العثماني.

(٣) الرحالة العثماني أوليا جلبي:
رحلة ٤٤ عاماً في ٢٣ دولة.

(١)

الشيـخ آق شمس الدين ودوره في التربية والعلوم

● الشيخ آق شمس الـدين علم من أعلام الحضـارة الإسـلاميـة في عهـدهـا العثماني وهو عالِم في العلوم الإسلامية وفي الطب والعلوم والصيدلة.

اسمه محمد شمس الدين بن حمزة، وهومعـلم الفاتح ومربيه. وكان ذلك عندما طلب السلطان مراد الثاني من الشيـخ حاجي بايرام ولي أن يوصيه بمؤدب لابنـه محمد الـذي عرفنـاه في التاريـخ بعـد ذلك بـالفاتـح. فكان هـذا المؤدب هو الشيـخ آق شمس الدين.

يتصل نسب الشيخ آق شمس الـدين بالخليفـة الأول أبـي بكر الصـديق رضي الله عنـه، وكان مـولـده في دمشق عـام ٧٩٢هـ (١٣٨٩م). حفظ القـرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيـا ثم في حلب ثم في أنقره. وتوفي عام ١٤٥٩م ●.

دور المربـي في توجيه الأمة

اشتـرك الشيـخ آق شمس الدين في التـدريس للأمـير محمد (الفـاتح) في مجال العلوم الأساسية في ذلك الزمان وهي القرآن الكريم والسنّة النبويـة والفقه والعلوم الإسلامية واللغات الإسلامية (العربية والفارسية والتركية)، وكذلـك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريـخ والحرب.

وعندما أوكـل السلطان مراد الثـاني إدارة مغنيسيا إلى ابنـه الأمير الصغـير

محمد للتدرب في سن مبكرة على أصـول الحكم، أرسله إلى هناك تحت إشـراف مجموعة من العلماء على رأسهم الشيـخ آق شمس الدين.

وقد أثرت مجموعة العلماء هذه على اتجاهات الأمير محمد ثقافياً وعسكرياً، وأصبح الأمير الصغير هذا من أكثر الأمراء العثمانيين سعة أفق وإدراك وعبقرية. وكان الشيخ آق شمس الدين يبث في الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: «لتفتحنَ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي، فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب عنيفة ٥٤ يوماً.

وفي لحظة إرهاق انتابت العثمانيين اكتشف الشيخ آق شمس الدين ـ وكان مصاحباً للسلطان في الحرب ـ قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري خارج أسوار المدينة المحاصرة، فأحدث بها انتعاشه استعاد بها العثمانيون حيويتهم.

إنتصار مؤقت للعدو يقلق العسكريين

استطاعت أربع سفن أرسلها البابا لنقل الإمدادات إلى المحاصرين في القسطنطينية وللاشتراك في الدفاع عنها ضد العثمانيين، أن تخترق الحصار العثماني وتدخل من الخليج، فابتهج البيزنطيون وارتفعت روحهم المعنوية. يقول لنا أمير حسين أنيسي في رسالته «مناقب آق شمس» أن: [اجتمع العلماء والأمراء العثمانيون وقابلوا السلطان (= محمد الفاتح) وقالوا له: إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ ـ يقصدون آق شمس ـ فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن جاء عون من بلاد الإفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح..].

أمام هذا الموقف العصيب أرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته ليسأله الحل فأجاب الشيخ: «لا بدّ من أن يمنّ الله بالفتح».

خطاب الشيخ للجنود بالثبات

لكن السلطان الشاب لم يقنع بهذا الجواب العام فأرسل وزيره مرّة أخرى ليطلب من الشيخ توضيحاً عن الفتح فكتب هذا رسالة لتلميذه السلطان يقول فيها: [. . هو المعزّ الناصر. . إن حادث أهل تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة. وأحدث في الكفار الفرح والشماته. إن القضية الثابته هي: [إن العبد يدبر والله يقدّر والحكم لله. . ولقد لجأنا إلى الله وتلونا القرآن الكريم وما هي إلاّ سنة من النوم بعده إلاّ وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل].

* * *

أحدث هذا الخطاب الموجّه أساساً للجيش، الراحة والطمأنينة في الأمراء والجنود. وعلى الفور قرّر مجلس الحرب العثماني في ٢٦/٢٧ مايو ١٤٥٣م الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية.

ثم توجه السلطان محمد (الفاتح) إلى خيمة شيخه فقبّل يده، وقال:
ـ علمني يا سيدي دعاءً، أدعو الله به ليوفقني.

فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام.

الشيخ الواثق من نصر الله

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألاّ يدخل عليه أحد الخيمة وبالتالي منع الحرّاس، حرّاس الخيمة، رسول السلطان من الدخول. غضب السلطان وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه. فمنع الحرس، السلطان أيضاً من دخول الخيمة

بناء على أمر الشيخ. فأخذ الفاتح خنجره وشقّ جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا بشيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور. ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته ودموعه تنزل متلاحقة من مآقيه (فقد كان يناجي ربه قاضي الحاجات).

عاد السلطان محمد (الفاتح) عقِب ذلك إلى مقرّ قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية. وبهذا التدفق بدأ العصر الحديث وأصبح قائد الجيش يلقّب بالفاتح أي أصبح الأمير الذي بشره الرسول صلّى الله عليه وسلم بفتح القسطنطينية (إستانبول). والكتب التركية تلقب الشيخ آق شمس الدين باسم الفاتح المعنوي لإستانبول.

وبينما تتدفق الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدّم الشيخ إلى السلطان الفاتح المنتصر ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية، وعندما أمر محمد الفاتح بإقامة الصلاة في أياصوفيا أعطى الشيخ آق شمس الدين حق إلقاء أوّل خطبة فيها. وبعد صلاة أوّل جمعة في أياصوفيا بعد الفتح (كان الفتح يوم الثلاثاء) قام العثمانيون بعرض عسكري ثم بدأت عملية توزيع الغنائم فقام الشيخ آق شمس الدين خطيباً ليشير إلى الجنود بضرورة تعمير المدينة بعد الحرب وحماية ما بها من مؤسسات.

الشيخ يخشى على السلطان من الغرور

بلغ الشيخ آق شمس الدين مكانة كبيرة في نفس تلميذه السلطان أبي الفتح محمد الثاني، قال السلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ : «إنكم ترونني فرحاً. فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة. إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين. . .

وعبّر الفاتح عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا. قال

السلطان الفاتح: «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري. إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة».

* * *

وعندما دخل السلطان الفاتح ـ بعد الاستئذان ـ على شيخه آق شمس الدين، عقب الفتح المبين أي فتح القسطنطينية كما ورد اصطلاحاً في المراجع التركية، لم يقم الشيخ تحية للسلطان، بل ظلّ مضطجعاً. ولما انتهت المقابلة.واستأذن السلطان في الإنصراف سمح له الشيخ، لكن الشيخ لم يقم من اضطجاعته. ولقد تأثر السلطان لذلك الموقف كثيراً وسأل ابن ولي الدين في سبب عدم اهتمام الشيخ به وعدم قيامه له. فقال هذا السلطان: (يا مولاي! إن الشيخ مربٍّ. وقد خشي عليكم من الغرور بسبب هذا الفتح الكبير).

آق شمس الدين: عالم النبات والطب والصيدلة

كان الشيخ آق شمس الدين عالماً مشهوراً في عصره، ليس فقط في العلوم الدينية وإنما له بحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته في ذلك أن صار مثلاً بين الناس، والمثل يقول: (إن النبات ليحدث آق شمس الدين).

كان الشيخ يعنى أيضاً بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض الروحية أو ما نطلق عليها اليوم اسم الأمراض النفسية. واشتهر الشيخ في ذلك بلقب «طبيب الأرواح» أي طبيب الأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمراض في عصره تتسبب في موت الآلاف وألّف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان مادة الحياة، قال فيه:

(من الخطأ تصوّر أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائياً، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى

درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجرّدة. لكن هذا يحدث بواسطه بذور حيّة).

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي. وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد ظهر بعد. ثم وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه.

وفي الطبّ ألّف الشيخ كتابين هما: (مادة الحياة)، و (كتاب الطب)، وهما باللغة التركية العثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب، هي: حل المشكلات ــ الرسالة النورية ــ مقالات الأولياء ــ رسالة في ذكر الله ــ تلخيص المتائن ــ دفع المتائن ــ رسالة في شرح حاجي بايرام ولي.

عاد الشيخ إلى بلدته كونيوك بعد أن أحسّ بالحاجة إلى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في إستانبول. عاد إلى قريته وبها مات عام ١٤٥٩م.

(٢)

مصر في التراث الجغرافي العثماني

● نحن في هذا المقام بصدد مخطوط يشكّل قيمة كبيرة في تراث المسلمين، وهو علامة واضحة في الأدب الجغرافي العثماني، استخدمه الغرب كثيراً وشهدوا بفضله، لأنه احتوى على معلومات هامة عن بلاد البحر الأبيض المتوسط.. ومنها إلى مصر، بخرائط دقيقة ومعلومات مدهشة، كما أنني ـ في هذا المقام ـ بصدد معرفة مؤلفة.. والمؤلف وإن كان تركياً، فواجب على العرب والمصريين معرفته، لأنه جزء من تاريخهم.. وإن جهلوه، وكتب عن بلادهم.. فأوفى، ورسم خرائط ديارهم، فأجاد وأتقن..

هذا المؤلف، هو: الريّس بيري، القائد البحري العثماني، والعالم الجغرافي الفذ.. وهو معروف في الأدب العثماني باسم بيري رئيس، وكذلك يعرفه الغربيون بهذا الاسم. وقد شغل الريّس بيري منصب قائد الأسطول المصري في العهد العثماني، وكان مقرّ قيادته ميناء السويس، وبيري رئيس، أو، الريّس بيري، إن كان قد ولد في غاليبولي في تركيا (١٤٦٥م؟) فقد مات في القاهرة عام (١٥٥٤م؟) أو بمعنى أصح قد دق عنقه في القاهرة ●

كان مولد الريّس بيري ـ كما قلنا ـ في مدينة غاليبولي، وكانت المركز الإداري للبحرية العثمانية.. اشترك مع عمّه الريّس كمال (وتقول بعض المصادر أنه خاله) وكان هذا قائداً بحرياً عثمانياً شهيراً، اشترك في الحرب البحرية الطويلة بين العثمانيين والبنادقة من عام ١٤٩٨م حتى ١٥٠٢م. واستفاد مؤلفنا من هذا، خبرة حربية بحرية كبيرة.. وفي هذه الحرب وبالذات

في عام ١٥٠٠م حصل بيري، على لقب (ريِّس) وقاد سفينة عسكرية أثناء حصار العثمانيين لقلعة بندقية هامة هي مودون. .

لكن بدايات خدمة الريِّس بيري للدولة العثمانية، ترجع إلى قبل هذا التاريخ، عندما كان يعمل (قرصاناً). وأحبّ أن أنبه هنا أن مفهوم القرصان في اللغة العثمانية لم يكن يعني المفهوم السائد الآن من السلب والنهب، وإنما كان نوعاً مما يمكن تسميته الميليشيات البحرية أو المتطوعين البحريين، بمعنى قوات بحرية، يقودها، ويعمل فيها، وعلى سفن خاصة، أشخاص لا ينتمون رسمياً إلى القوات الحكومية التي تسيطر عليها الدولة العثمانية. . ومهمة القراصنة، كانت، مهاجمة القوات البحرية الصليبية المعادية. .

والجدير بالقول هنا، أن القرصنة العثمانية أدّت دوراً رائعاً في إنقاذ حياة المسلمين في الأندلس، والمحافظة على أرواحهم وممتلكاتهم عندما غادروا إسبانيا، مطرودين أو فارّين، قصد التوجه إلى ملجأ ما. . وكان دور القرصنة العثمانية حماية سفن ومراكب هؤلاء المهجّرين الفارّين بأرواحهم وممتلكاتهم ودينهم من غدر السفن الأوروبيّة التي كانت تقف لهم بالمرصاد، وكانت المهمة الثانية للقرصنة العثمانية إيجاد مأوى لهؤلاء المسلمين الأندلسيين. . ولعله يمكن الإشارة هنا إلى أن تركيز القراصنة العثمانيين على المأوى، كان على الساحل الجزائري في مكان ما، وعندما تكاثر المهجرون فيه، أطلقوا على هذا المأوى، اسم البليدة، وهي مدينة البليدة الجزائرية المشهورة الآن. .

من المعلوم أن أهل غرناطة طلبوا العون والمساعدة ضدّ الظلم الواقع عليهم، طلبوا هذا من كل من تونس، ومصر، ثم من الدولة العثمانية وكان ذلك عام ١٤٨٦م. . اشترك الريّس كمال في حركة نصرة مسلمي الأندلس، وقاد سفناً عثمانية متطوعة لذلك، توجه بها إلى غرب المتوسط عام ١٤٨٧م. واشترك الريس بيري ــ موضوع مقالنا هذا ــ بجانب عمه كمال، في عملياته البحرية هذه وفي الاستيلاء على بعض الموانىء والإغارة على سواحل جنوب فرنسا، وسردينيا، وكورسيكا.

ولما مات الريّس كمال، خلفه في القيادة خير الدين، الذي اشتهر في أوروبا باسم بارباروس، وبالتالي أصبح كبير القراصنة.. وعندما نجح القرصان العثماني خير الدين بارباروس في الاستيلاء على مركب فرنسي كبير، وأراد إرساله هدية إلى إستانبول، مع بعض الهدايا، تقرباً إلى السلطان العثماني، وليعلمه بنشاطه في البحر المتوسط، لم يجد خير الدين، غير (الريّس) بيري، رسولاً منه إلى إستانبول. وأعجب السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح الشام ومصر) ببيري، وأحسن عليه، بسفينتين..

علاقة الريّس بيري بمصر

انضم الريّس بيري إلى قوات البحرية النظامية العثمانية، واشترك في العمليات العسكرية للدولة أثناء الحرب العثمانية المملوكية التي قادها السلطان سليم الأول عامي ١٥١٦ ـ ١٥١٧م. وفي الفتح العثماني لمصر رسم الريّس بيري خريطة لمصب نهر النيل..

وعندما توجه الصدر الأعظم العثماني إبراهيم باشا إلى مصر، لكي يحل الخلاف الذي قام بين والي مصر ودفتردارها (عام ٩٣٠هـ ـ ١٥٢٤م).. تحرّك من العاصمة العثمانية بأسطول قوامه عشر سفن حربية، واصطحب معه الريّس بيري مرشداً له.. وكان مكان إبراهيم باشا، في سفينة القيادة.. ولم يتمكن هذا الأسطول من الوصول إلى مصر، بسبب العواصف الشديدة، فاتخذ الصدر الأعظم الطريق البري إلى مصر، ورافقه فيه الريّس بيري، وبالتالي وجد الفرصة في أن يعرض على الصدر الأعظم ـ مباشرة ـ أعماله العلمية، وكتابه المشهور (كتاب البحرية) ويشرح له قيمته العلمية، ويسرت له هذه الفرصة فيما بعد مقابلة السلطان سليمان القانوني، إذ توسط له في ذلك إبراهيم باشا عندما أنجز بيري كتابه عام ١٥٢٦/١٥٢٧م.

عقب زيارة الصدر الأعظم إبراهيم باشا لمصر، أعطى الريّس سلمان ـ وكان قبطاناً تركياً يعمل في خدمة مماليك مصر ـ تقريراً هاماً يقول فيه إن البرتغاليين قد استولوا على تجارة منطقة الخليج العربي وحرموا الأهالي هناك

من العمل بها، بل إنهم اخذوا المواد التجارية هناك وأرسلوها إلى بلادهم، وأن هؤلاء البرتغاليين يتحكمون في تجارة البهارات، وأنهم استولوا أيضاً على تجارة الخليج العربي (وكان العثمانيون يسمونه خليج البصرة) مع الهند والبلاد الأخرى وأن البرتغاليين قد بعثوا بأسطول قوي إلى مياه الهند، وقال الريّس سلمان في هذا التقرير أن من الممكن بسهولة إنهاء النفوذ البرتغالي هناك. .

بعد ذلك بمدة، صدر مرسوم بتعيين فرهاد بك قائد الأسطول البحري المصري، والياً على اليمن، ومرسوم آخر بتعيين الريّس بيري، محله، قائداً للقوات البحرية المصرية العثمانية. وكان هذا التعيين عام ١٥٤٧م.

أبحر الريّس البحري بيري من ميناء السويس عام ١٥٥١م بوصفه الجديد هذا، وفتح ميناء عدن، واستولى على قلعتها بعد هجوم بحري عنيف، وترك فيها حامية برية وعاد إلى السويس، وبلغ إعجاب كل من داود باشا والي مصر، وكذلك السلطان العثماني في إستابنول، بهذا العمل الكبير، حداً عظيماً.

دفع هذا النجاح، الريّس بيري، أن يقوم في نفس العام، بقيادة ثلاثين سفينة في مختلف الأحجام. من أسطول مصر البحري، وتوجه إلى جدة، ثم إلى عدن، ثم تمكن من فتح قلعة مسقط، ثم حاصر هرمز وضربها ضرباً شديداً بالمدافع، لكن المقاومة البرتغالية، كانت أشدّ، وبالتالي استعصت هرمز على الفتح بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى منه. تذكر بعض المصادر العثمانية أن الريّس مال إلى التفاهم مع البرتغاليين مقابل دفعهم الخراج، وتقديمهم هدايا. .

قام الريّس بيري بأسطوله هذا من مياه هرمز إلى البصرة ومكث هناك مدة. . وإذا به يعلم فجأة أن الأسطول البرتغالي في طريقه إلى البصرة، ولم يكن يتوقع هذا، ولم يكن في القوة البحرية الكافية لمواجهته فأسرع بالانسحاب من مياه البصرة بثلاث سفن كانت هي القريبة من أوامره، ولم يتمكن من استدعاء بقية سفنه التي كانت تتجوّل في مياه الخليج. . وكان غرضه الانسحاب بسفنه الثلاث سريعاً قبل أن يلحق البرتغاليون بأسطولهم ذي القوة العددية الضخمة.

وأمام البحرين تحطمت واحدة من سفنه الثلاثة وغرقت. . وعاد إلى قاعدته في مصر بسفينتين فقط عليهما ما استطاع نقله من غنائم معاركه في الخليج قبل انسحابه. .

أرسل قوباذ باشا والي البصرة، رسالة إلى والي مصر، يخبره بالواقعة، وبأن الريّس قد ترك السفن الباقية من أسطوله في مياه الخليج تواجه مصيرها. وقام والي مصر، بدوره، بإبلاغ النبأ إلى العاصمة إستانبول وشرح كل أسباب النكسة وقال أيضاً في بلاغه أنه قد قبض على الريّس، بعد عودته إلى السويس. .

وجاء رد إستانبول سريعاً وحاسماً: بأمر السلطان سليمان القانوني. . يدق عنق قائد البحرية المصرية الريّس، وتصادر كل ثروته لصالح بيت المال، وعلى ذلك أُعدم في ديوان مصر عام ٩٦٠هـ.

الريّس بيري: عالِماً جغرافياً

الريس بيري، رائد من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني. . وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لإسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكتين. . وهذه، قدّمها إلى السلطان سليم الأوّل في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (٦٠ × ٨٥ سم). وعليها توقيع الريّس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨ × ٦٩سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإستانبول أيضاً.

والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الريّس بيري لأميركا (الأولى المار ذكرها) هي أقدم خريطة لها. .

في ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية ندوة إذاعية عن خرائط الريّس بيري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريّس بيري لأميركا: «اكتشاف خارق للعادة».

وقد كان الريّس بيري على معرفة بوجود أميركا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحرية: (إن بحر المغرب ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ بحر عظيم، يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغار سبته. وفي طرف هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا)..

وتعبيره (قارة أنتيليا) هي الدنيا الجديدة أو أميركا.. وقد كتب الريّس أن هذه القارة اكتشفت عام ٨٧٠هـ (١٤٦٥م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأميركا بحوالي ٢٧ سنة..

ولا بدّ أن نلفت النظر هنا إلى أن رود ريكو ـ خادم الريّس كمال عم بيري والذي أعيرت خدماته لكريستوفر كولومبس وهو صاحبه في رحلته المشهورة. وقف يتوسط بين كولومبوس وبين بحارته الذين أرادوا الاعتداء عليه بعد اليأس الذي أصابهم من البحث عن أميركا، قال رودجر هذا ـ وقتها: لا بد أن تكون في هذه المياه أرض، لأني تعلمت هذا في إستانبول ومن الكتب البحرية العثمانية. وأثق أننا لا بدّ أن نصل هنا إلى الأرض التي نبحث عنها، ذلك لأن البحارة العثمانيين لا يقدمون معلومات خاطئة، وهم لا يكذبون، وبعد ثلاثة أيام من هذا الحديث عثروا على الأرض وكانت أميركا..

كتاب البحرية: تصنيف الريّس بيري

كتب الريّس بيري، كتاب البحرية عام ١٥٢١م، ثم وسعه وأضاف إليه حتى عام ١٥٢٥م فقدمه للسلطان سليمان القانوني. وهو كتاب (كما وصفه كراتشكوفسكي) (يمثل في أساسه أطلساً ملاحياً، إلاّ أنه كان يستهدف أن يكون دليلاً للملاحة الشراعية في بحر إيجه، والبحر الأبيض المتوسط، وأن يخدم في نفس الوقت كمرشد في معرفة المواضع المبينة على الخارطات. ولهذا السبب، فإن الريس بيري يقدم وصفاً مفصلاً بما فيه الكفاية لجميع السواحل مع بيان التيارات والشِّعب والمراسي والخلجان والمرافىء ومنابع المياه العذبة والمواضع المحصنة والقلاع والمباني والخرائب. كما يتعرض خلال ذلك للحديث عن الجغرافيا السياسية والوضع الإداري للأماكن المختلفة وإن البحوث الأثرية قد

أثبتت أن بيـري رئيس، محل للثقـة، فمن بين جميـع التفـاصيل التي يـوردهـا، لا توجد واحدة منها قط، لم تدعمها البحوث المعاصرة).

لقـد أحـدث كتـاب البحـريـة للريّس بيـري، صيتـاً واسعـاً في الأدب الجغرافي، وهذا الكتـاب يحمل تجـربة ثـلاثين عـاماً تقـريباً من المـران العملي في الشؤون البحرية، والاطلاع الواسع على الآداب الجغرافية العـربية والغـربية.. وخـرج أصيلاً بحيث تـردد صدى ذلـك فيما تميـز بـه الـريّس بيـري من نضـج واكتمال..

لقـد أثار كتـاب البحريـة هذا بصفحـاته الـ (٧٤٣) والـذي وضـع اسم الريّس بيري بين أسماء أعظم الجغرافيين في التاريـخ، أثار بما فيـه من معلومات وخـرائط دقيقة، دهشـة المعـاصـرين من علماء الجغـرافيـا في أميـركـا وأوروبـا، معلومات وخرائط أثبت العلم المعاصر صحتها..

في مـدح الريّس بيـري عالِماً جغرافيـاً وبحريـاً قديـراً اشترك كـل من الخرائطي الأميركي أرلنجتون هـ. ماللري، وكذلك والترز المتخصص في الخرائط في أسطول الولايات المتحدة الأميركية، والراهب الجزويتي لاين هام مدير مركـز الأرصاد في ويستون. هذا الأخير، أنقـل من أقوالـه هنا هـذه العبارة: (خـرائط الريّس بيري صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضـوح أماكن لم تكن قـد اكتشفت حتى أيامـه في القرن السـادس عشر الميـلادي.. إن الجـانب المذهل في مكانة بيـري، هو رسمـه لجبال أنتـاركتيكا بتفـاصيلها فيـما رسمه من خـرائط، مع أن هـذه الجبال، لم يكن أحـد قد تمكن من اكتشـافهـا إلاّ في عـام ١٩٥٢م أي في أوّل النصف الثاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخـدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أمّا قبل القائد العثماني الريّس بيـري، يعني حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكـا موجـودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريـخ).

والمعـروف أن أنتاركتيكـا هي القارة السـادسة والـواقعـة في نصف الكـرة الأرضية الجنوبـي..

لم يقتصر الذهول على الراهب لين هام فقط، بل تعدّاه إلى كثير من العلماء والكتاب.

وها هو إريك فون دانكين، مؤلّف عربات الآلهة ينقل عن العلماء ويقول..

أنه بمقارنة صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين طبعاً) بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني الريّس بيري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر، اتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري).

مصر في كتاب البحرية

يحتل وصف مصر وسواحلها معلومات وخرائط من صفحة ٦٩٢ وإلى صفحة ٧٢٢ من مخطوط مكتبة أياصوفيا رقم ٢٦١٢، بالطبع في كتاب البحرية للريّس بيري. والجدير بالإشارة هنا أن قام ضابطان بحريان تركيان هما حيدر الباقوط، وفوزي أوغلو، بتصوير هذه النسخة المخطوطة من أياصوفيا وعمل مقدمة وفهارس وبذلا في ذلك جهداً رائعاً وقدما ذلك إلى المجمع التاريخي التركي عام ١٩٣٥م، وقام المجمع بنشر المخطوط بهذا الشكل. وصفحات مخطوط كتاب البحرية في أياصوفيا يبلغ ٨٥٨ صفحة (وليس ورقة) بما في ذلك خرائطه. ونسخة أياصوفيا هذه قد أهداها السلطان محمود الأوّل وأوقفها على مكتبة جامع أياصوفيا، الحديثة الإنشاء في عهده، وهي أكمل النسخ المخطوطة من كتاب البحرية، وهي نسخ تبلغ ٢٩ نسخة، وقام الضابط البحري التركي ياووز سنلم أوغلو بترجمة الكتاب إلى اللغة التركية وظهرت على جزءين ١٨، ١٩ من سلسلة الألف كتاب وكتاب التي تصدرها دار ترجمان للنشر في تركيا.

يبدأ الريّس بوصف السواحل المصرية بدقة بالغة من شواطىء السلوم،

وينتهي من وصفه لها عند غزة. . وبالتالي يتحدّث في أقسام خاصة عن كل مكان على حدة: رأس السلوم ـ ميناء مطروح جزيرة درك (جزيرة الصرّى) ـ مدينة الإسكندرية ـ ميناء أبي قير ـ شواطىء نهر النيل ـ سواحل رشيد ـ البرلس ـ شواطىء دمياط ـ سواحل تينة. .

وعن السلوم يقول كتاب البحرية ـ فيما يقوله ـ إنها رأس مرتفع يمتد نحو البحر ـ يجتازه الحجاج المغاربة عندما يتجهون برّاً إلى مصر والإسكندرية. وهو طريق مشهور ذو مرتفعات ومنخفضات، لذلك أطلقوا عليه اسم السلوم، والسلوم تعني السلّم أو السلالم. . ثم يتحدّث الريّس عن الرياح التي تهبّ على السلوم، ويتحدّث عن الموانىء التي تحيط بها، والأراضي الزيتونية المجاورة لها، وعن مكان فيها للسفن الصغيرة تحتمي فيه. .

وعن مطروح يقول ـ فيما يقول ـ أنها ميناء واسع، ضد رياح الشمال وهي الريح التي تهب بين مطلع الشمس والشمال أي الجهة المقابلة للجنوب. . يسميها الأجانب بورتو دلبارتون. .

ويقول إنه يمكن التوجه إلى الميناء، بالاتجاه نحو القبلة، ذلك لأن جانب النجوم، ضحل وهناك في الجهة الجنوبية الشرقية من الميناء بمسافة ثلاثين ميلاً: رأس الكنايس. وفي الجهة الجنوبية الشرقيةمن رأس الكنايس على بعد ٧٠ ميلاً يوجد بورتو دلقارسه، ويطلق العرب عليها: مقطع الروح. . ويقطعون من هنا، حجارة الطواحين، وتحملها مراكب تأتي من الإسكندرية.

أما عن الإسكندرية، فيبدأ المصنّف حديثه عنها بإشارة إلى تاريخها القديم، وإلى أن «الإسكندر ذا القرنين» عندما وصل إلى هذه المدينة، لم تكن إلّا مكاناً مهجوراً خرباً. . ثم يقول الريّس إن بعض الصحابة جاءوا إلى هذه المدينة، وأقاموا فيها، وماتوا فيها. لذلك أطلق الناس على مدينة الإسكندرية لقب ملجأ الأولياء. . يمتد سورها وبرجها إلى مسافة ثمانية أميال وهما (في وقته) مهجوران. . ثم يصف المصنّف أماكن رسو السفن، والموانىء، والأماكن المحيط

بالميناء، والرياح التي تهبّ عليها. . ويحدد المسافات بينها وبين ما يجاورها من أماكن، ويصف الطريق الساحلي بينها وبين أبي قير. .

ويبدأ حديثه عن أبي قير بقوله: «ميناء جميل للغاية، واسع وطبيعي. . وهناك أبراج أمام الميناء، وعلى بعد أربعة أميال منه جزيرة وهناك بوغازان بين الجزيرة والبرج. . ويسرد المعلومات الجغرافية والبحرية بدقة كما هي عادته في كل فصل. .

وعن نهر النيل يقول الريّس بيري مادحاً: (كل مكان في نهر النيل ميناء). . و (يفيض نهر النيل في أغسطس من كل عام، وسبب ذلك أن النيل يبدأ عند خط الاستواء، وعندما يكون هناك شتاء يكون هنا الصيف. . لذلك يفيض النيل صيفاً وفي أغسطس. .) و (كما أني فصلت القول تفصيلاً عن كل مكان رأيته في البحر الأبيض المتوسط، فلا بدّ أن أسجل هنا كل ما رأيته. . من نهر النيل. . لقد سجلت بالبوصلة، كل مكان من مصبي نهر النيل يوصل إلى القاهرة. وهي بمقدار ٥٠٠ ميل من سواحل البحر حتى القاهرة). .

وفي الفصل الخاص برشيد (ويكتبها رشيت) تشبه، من البحر، شراع مركب النقل لذا يبدو مربعاً، وعندما تأتي سفن النقل الكبيرة بقصد التجارة، تسرع المراكب الصغيرة من الداخل إلى الذهاب إليها وتتولّى حمولتها، ثم تدخل مركب النقل بعد ذلك إلى الداخل. . وتقع مدينة رشيد بعد برجها بثلاثة أميال. .

وعن ميناء دمياط، يفصل الريس بيري الحديث عن موقعه وعن خيرات دمياط. . وعن رياحها، والمسجدين اللذين يظهران في أوّل النيل، وعلى بعد ستة أميال من بوغاز دمياط إلى الجنوب الشرقي يقع رأس الطير وهو رأس بحري ومكان جيّد للرسو البحري، وعلى بعد منه حوالي ستة أميال نجد مصب تينه، وميناء تينه، وفيه يصطاد العرب السمك بالعصي، وبين تينه وغزة، تقع قرية العريش. .

(٣)

الرحالة العثماني أوليا جلبي

رحلة ٤٤ عاماً في ٢٣ دولة

● عندما كان في صوفيا ١٠٠ مسجد وفي بلغراد ٢١٧ وجزيرة أثينا وقفاً على الحرمين. هذه رحلة فريدة في نوعها، قام بها رحالة تركي مسلم هو أوليا جلبي، وقضى فيها حوالي نصف قرن.

لقد قام أوليا جلبي برحلته في القرن السابع عشر واستمرت ٤٤ سنة بدأها من إستانبول، وشملت ٢٣ دولة من الدول المعروفة اليوم هي: تركيا وروسيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وبولندا وإيران والعراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والسعودية ومصر والسودان والحبشة والصومال وجيبوتي.

وقد ترجمت هذه الرحلة من اللغة التركية العثمانية إلى: الألمانية والروسية والإنجليزية والفرنسية والمجرية والبلغارية والصربية واليونانية والأرمنية. كما ترجمت مقتطفات منها إلى بعض اللغات الأوروبية الأخرى، وظهرت ترجمة عربية لبضع صفحات منها خاصة بالشام في مجلة المجمع العلمي بدمشق ●

وأهمية هذه السياحة أو الرحلة التي طبعت بلغتها التركية في أوائل القرن في عشر مجلدات ضخمة. إنها تحتوي على تسجيل دقيق لما شاهده هذا الرحالة اليقظ الذهن، تسجيل يهم المؤرخين عامة، فهي تسدّ نقصاً كبيراً في المعلومات عن هذه البلاد، فضلاً عن أن جانباً مما سجله الرحالة التركي يهم جداً كافة

المهتمين بتاريخ الطب، لأنه سجل بدقة الأمراض التي رآها والأدوية التي كانت تستخدم لشفائها. أيضاً فإن دارسي التراث الشعبي في الشرق وفي الغرب لا بدّ وأن يدركوا القيمة الكبيرة التي تحتويها الرحلة، والذين يدرسون الآثار عموماً، والآثار الإسلامية خصوصاً، يشعرون بمدى أهميتها. إذ أن أوليا سجل ما رآه من آثار تسجيلاً دقيقاً بالإضافة إلى أنه نقل شواهد أثرية كثيرة كانت مكتوبة على الآثار إلى رحلته. زالت بعض هذه الآثار، وبقيت رحلة أوليا تحدّثنا عنها الحديث المفصل الدقيق.

ولم يكن أوليا مجرّد رحالة ناقل مدون فقط، وإنما كان عالِماً يقرأ تاريخ البلدان التي يزورها ثم يسجل ما يراه أيضاً، فأوليا جلبي هذا الرحالة التركي قد قرأ القزويني والمقريزي والطبري والذهبي وغيره في اللغة العربيّة، بالإضافة إلى مراجع في لغات أخرى، قبل أن تطأ قدماه البلاد التي زارها.

اهتم أوليا جلبي بتدوين الأرقام اهتماماً بالغاً، بل أنه نقل فقرات كثيرة من السجلات الرسمية والإحصاءات والتعدادات العامة للبلاد التي كتب عنها، فقد دوّن نتائج تعداد إستانبول عام ١٦٣٨م وتعداد دمشق في عهد الدفتردار زاده محمد باشا (ولايته من ١٦٥٢ ـ ١٦٥٥م)، وتعداد القاهرة في عهد السلطان سليم الأوّل، وتعداد القاهرة الثاني في عهد السلطان مراد الرابع.

أصل أوليا وصفاته

ولد أوليا جلبي في ٢٥ مارس سنة ١٦١١م في إستانبول، منحدراً من أسرة سكنت أواسط آسيا، جاء أجداده من ماهان مع أرطغرل (والد عثمان مؤسس الدولة العثمانية) عندما وفد إلى الأناضول، لكن أسرة أوليا لم تنزح إلى إستانبول إلّا بعد الفتح العثماني لها على يد محمد الفاتح.

ومن صفات هذا الرحالة الكبير أنه كان كبير الرأس طويل القامة، لم يكن قوي البدن وإن كان سريع الحركة. كان حلو الكلام، لطيف التشبيه، حلو الصحبة، لبق الحديث واسع الخيال، سريع البديهة ذكياً، فكهاً، يحفظ القرآن

ويجيد تلاوته، خطاطاً، نقّاشاً للمعادن والذهب، وشاعراً وأديباً ويقول أنّ له كتاباً ـ غير رحلته ـ يسمى «شقانامة» أي كتاب التفكه، إلاّ أنّ هذا الكتاب مفقود.

والدته أباظية، من القوقاز، وهي قريبة الصدر الأعظم ملك أحمد باشا، وكان هذا متزوجاً بابنة السلطان مراد الرابع العثماني وبواسطة أحمد ملك باشا تألّق نجم أوليا جلبي.

أمّا والده وهو درويش محمد ظلي، فقد كان نديماً للسلطان سليمان القانوني، ورئيساً لمؤذني جامع السليمية الذي بناه المعمار سنان بناه على أمر سليم الثاني في مدينة أدرنة بتركيا، متصوفاً على الطريقة النقشبندية، مريداً للشيخ عزيز محمود هدائي.

والد أوليا جلبي هو الذي صنع الصندوق المحفوظ فيه أثر قدم النبي في مصر، وهو أيضاً الذي صنع المزراب الذهبي للماء فوق الكعبة، إذ كان والده نقاشاً للمعادن والذهب.

تعرف أوليا جلبي شخصياً بثلاثة سلاطين عثمانيين هم مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م) وأخيه السلطان إبراهيم خان (١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) وابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م).

من مهارات أوليا جلبي أنه كان يجيد الرمي بالسهم، ويجيد ركوب الخيل، ولعبة الجريدة والجوكان (لعبة الكرة بالخيل وهي أشبه بلعبة البولو اليوم)، كما كان يجيد السباحة والصيد، لم يكن متزوجاً لمرض ألـمّ به استمر ٢٧ عاماً عَقِم بسببه، ويحكى أنه شفي من مرضه هذا فيما بعد، وأخذ جسمه يسمن بعد أن كان نحيلاً. وتم شفاؤه بواسطة دواء يسمى الترياق الفاروقي يستخرج من الثعابين في مستشفى قلاوون بالقاهرة، ولم يكن هذا الدواء يحضر إلاّ في مصر، ولمرة واحدة في العام ويصدر إلى إستانبول. لكن شفاء أوليا من هذا المرض يقابل وصوله إلى سنّ الشيخوخة فلم يعد يتحدّث ـ في رحلته ـ عن الزواج،

وإن كان الحنين إلى الأولاد يدفعه إلى تأمل الأطفال في الاحتفالات العامة ويصفهم بما يشعر القارىء باشتياقه للأبوّة.

في ليلة عاشوراء (من عام ١٦٣٠م) رأي أوليا جلبي رؤيا أثرت في حياته تأثيراً كبيراً. رأى فيما يرى النائم، نفسه وسط جماعة كبيرة في جامع أخي جلبي في إستانبول، وإذا به يرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأراد أن يطلب منه الشفاعة. لكن لسان أوليا تعثر فقال السياحة يا رسول لله، وكان يريد أن يقول الشفاعة يا رسول الله. وكانت هذه الرؤيا هي الدافع لرحلته!

أنفق أوليا جلبي على رحلته من إستانبول إلى بروصة ـ أولى مراحل رحلته ـ من مال كان معه. أمّا بعد فمن كدّه وعمل يده، ذلك لأنه اشتغل في عدّة أعمال خلال رحلته الطويلة: عمل مؤذنا وإماماً في المساجد ومصاحباً للأمراء، وكاتباً للضرائب، وصيدلياً يحضّر الأدوية لبعض أمراض صادفها وعرفها.

وصف إستانبول

تقدم رحلة أوليا جلبي وصفاً دقيقاً ومفصّلاً لإستانبول، وهي مسقط رأسه، وحاضرة الدولة العثمانية، ومما قاله عنها أن بها مؤسسة كبرى، باسم مستشفى الفاتح للأمراض العقلية بها (٧٠) حجرة و(٨٠) قبة (٢٠٠) خادم، وكبير الأطباء فيها بدرجة مدرس عام، وهذه الدرجة تعادل في جامعات اليوم درجة أستاذ كرسي. في هذا المستشفى يأكل المرضى أكلاً خاصاً مثل لحم البلابل والحمام والعصافير. وللمرضى غير المسلمين مبنىً مستقل. وفي إستانبول حمام عام باسم الفاتح أيضاً يتسع لخمسة الآف شخص.

ويصف أوليا جلبي حي أبي الأنصاري بإستانبول فيقول عنه إنه مدينة على بعد ساعتين من العاصمة، بها (أي بالحي) مقابر كثيرة، وكذلك بها العديد من مقابر المشهورين. وعد من مقابر هؤلاء قبرِ الغازي بارلاق مصطفى باشا ووصفه بأنه بحّار عظيم جاب البلاد العربية: مصر وبلاد العرب (الجزيرة العربية)

وخليج البصرة (الخليج العربي) وشط العرب، ووصل إلى بغداد حيث التقى بالسلطان سليمان القانوني عند وصول هذا الأخير بجيوشه إلى العاصمة العراقية.

يذكر أوليا جلبي أنّ في حي غالاطه (وهو حي الأجانب بالعاصمة العثمانية) ٢٠٠,٠٠٠ مسيحي و١٠٠٠٠ يهودي مقابل ٦٠,٠٠٠ مسلم، ويلاحظ أن اليهود يخافون من المسيحيين ولا يخافون من المسلمين، ويقول إنّ السبب في ذلك أن المسلمين يعاملون اليهود معاملة طيبة في حين أنّ المسيحيين يظلمون اليهود. وملاحظة أخرى يدوّنها أوليا جلبي عن المهاجرين من مسلمي الأندلس فيقول إن في حي قراكوي بإستانبول عرباً مسلمين فرّوا من الأندلس (على عهد السلطان أحمد الأوّل (١٥٩٠ ـ ١٦١٧م) ويختم أوليا ملاحظته هذه بقوله أنّه من المستحيل أن يدخل مسيحي أحياء المسلمين العرب في قراكوي بإستانبول.

شوارع إستانبول كما رآها أوليا ـ في القرن السابع عشر الميلادي ـ شوارع نظيفة مرصوفة (يلاحظ القارىء أن الأرصفة كانت مجهولة في أوروبا في ذلك الوقت). ويسجل لنا هذا الرحالة نتائج تعداد عام ١٦٣٨م الذي استمرّ ثلاثة أشهر في إستانبول وأخبرنا من خلاله: فيما أخبر ـ أنّ إستانبول تنقسم إلى أربعة أقضية كبيرة (اسماها أربعة مولويات جمع مولوية) تشمل ٦٧٠ ناحية تحتوي على ٩٩٩٠ شارعاً تركياً مسلماً و٣٠٤ شوارع رومية (يوناني) و٦٧٥ شارعاً يهودياً و٢٧ شارعاً أرمنياً و١٧ شارعاً إفرنكياً (يسكنه الاوروبيون).

ألعاب علمية

يحدّثنا أوليا عن شخص اسمه أحمد جلبي هزار فن، وقف على مكان مرتفع في ميدان أوق بإستانبول مرتدياً جناحي نسر وطار في اتجاه الريح في تجربة للطيران، وقام بهذا العمل ثماني مرات ثمّ صعد فوق برج غالاطه في العاصمة العثمانية وطار من قمته مع اتجاه الرياح ونزل في ميدان دوغانجيلر،

وكـان السلطان مـراد الـرابـع يتفـرّج عليـه، وسرّ بـذلـك فكـافـأه بكيس مملوء بـالذهب. في هـذا المجال أيضـاً يحدّثنـا أوليا عن شخص يـدعي حسن جلبـي ركب جهازاً يمكننا وصفـه بأنّـه! إرهاصـات الصاروخ. ركبـه فأشعـل تلامـذته الفيشنـك فشق الجهاز طـريقه إلى الجـو وعليه أستـاذهم، وعندمـا نفـذ البـارود الملحق بأذرع الجهاز، ارتدى حسن جلبـي جناحي نسر وقفز من الجهاز ينزل في البحـر حيث كـان السلطان بـانتـظاره. خصّص لـه السلطان مـرتبـاً قـدره سبعون أقجه.

صوفيا ـ بلغراد ـ فيينا

زار أوليا جلبـي صوفيا العاصمة البلغاريـة الحاليـة، زارها مـرتين عـامي ١٦٥٣و١٦٦١م، وقال أنّ فيها أكثر من مائة جامع أكبرها جامع قوجه محمود باشا (٢٠٠ × ٢٠٠ ذراع)، ولصوفيا واحد وعشرون منتزهاً عاماً. ووصف أوليا لنـا مـدينة (كييف) بـأنها أكبر مـدن أوكرانيـا وأنها مدينـة مقدّسـة لدى الارثـوذكس ويتنـازع ملكيتها كـل من ملك بولنـدا والسلطان العثمـاني، لكن كييف كـانت ـ في عهد أوليا ـ تابعة لقيصر روسيا، ولم يفته أن يسجل في رحلته أن (أوديسا) ميناء أهمله أصحابه.

وصف أوليـا مـدينـة بلغـراد وكـان قـد زارهـا مـرتـين عـامي ١٦٦٠م و١٦٦٣م. وأدلى بمعلومات هامة عن هذه المـدينة التي فتحهـا السلطان سليمان القانوني في حملته عليها عام ١٥٢١م. عن معنى بلغراد قـال صاحب الـرحلة أن بلغراد كلمة صـربية معنـاها (المعمـورة) أو (المزينـة) أو (المتينة). ووصف قلعـة بلغراد قائلاً ـ فيما قاله فيها ـ أن بها ١١٦ برجاً، وبداخل القلعة خمسة جـوامع و ٤٠٠ منزل، وقال أن مدينة بلغـراد بقلعتها تمتـد على مسـاحة ٢٠,٠٠٠ ذراع وعدد سكانها ١٥,٠٠٠ نسمة، وفي بلغراد ٢١٧ جامعاً و٦ بيوت قوافـل، وقال أن بيت قوافل صقوللو يحتوي على ١٦٦٠ حجرة. كما قال أيضاً أن في بلغراد ٨ كنائس أرثوذكسية ومعبداً يهـودياً واحـداً و ١١,٠٠٠ بئر. وعن زغـرب ذكر لنـا أوليا ـ إنها أرض المانية يتنازعها العثمانيون والألمان.

بوخارست ـ أثينا ـ تبريز

«كانت رحلة أوليا جلبي إلى فيينا (عاصمة النمسا الآن) عام ١٦٦٥، ومن ضمن كتابته عنها أن بها سوقاً فيه ٦٥٠٠ دكان، وفي بوخارست (عاصمة رومانيا الآن) ٢١ جسراً خشبياً وأربعة أديرة، وكنائس كثيرة. وقال أن كنيسة ميخائيل الكبير في بوخارست تحتوي على مائة حجرة وعن نساء بوخارست قال أن الكثرة منهن سوداوات الشعر أكثرهنّ فاحشات واليهود في بوخارست قليلون وغير محبوبين.

كانت أثينا (العاصمة اليونانية الآن) عندما شاهدها أوليا، عبارة عن قضاء كبير، أوقفت الحكومة العثمانية، الجزية التي تحصل من قضاء أثينا، على الحرمين الشريفين، وكان بأثينا وقتها ٣ جوامع و ٧ مساجد ومدرسة إسلامية كبيرة وثلاث مدارس إسلامية صغيرة و ٣٠٠ كنيسة بها ٣٠٠٠ راهب. كما كان بأثينا في ذلك الوقت ٤٠٠ بئر ماء.

لاحظ أوليا جلبي أن تبريز (إحدى المدن الكبيرة في إيران) التي وصل إليها في أكتوبر من عام ١٦٥٥م، إنها وإن لم تعد العاصمة، إلاّ أنها أكثر مدن إيران ازدحاماً. وعن أهل تبريز قال إنهم أتراك يتكلمون اللغة التركية بلهجتها الأذرية، وفي قلعتها ٣٠٠٠ برج وهي قلعة ضخمة بها ستة أبواب وسكانها حسب الإحصاء الذي أجراه أمير الأمراء العثماني جعفر باشا ٨٠٠,٠٠٠ نسمة وأكثر سكانها شيعة وفيها ١٧٨ شاعراً صاحب ديوان وبالمدينة ـ كما جاء في الرحلة ـ أقلية أرمنية لها ٤٢ كنيسة.

وقال عن مدينة باكو، التي بلغها في شهر فبراير ١٦٤٧م، إن أهلها أتراك مسلمون أكثرهم من أهل السنة، وعن البترول في باكو في القرن السابع عشر الميلادي قال رحالتنا هذا أن النفط يستخرج من سبعة أماكن خارج المدينة.

بغـــداد

قال أوليا جلبي وهو في بغداد عام ١٦٥٦م أنه: ليس على وجه الأرض مدينة بشهرة بغداد إلاّ ما ندر كما قال أن حرب استعادة بغداد من الإيرانيين

ـ التي شنها السلطان العثماني مراد الرابع ـ هي أعظم حرب وقعت في عصره فقد استمرت أربعين يوماً وأربعين ليلة متواصلة بلغت خسائر الإيرانيين فيها ٧٨,٠٠٠ قتيل ووصف بغداد بأنها محاطة بسور يبلغ ٢,٥ فرسخاً إلاّ مائتي ذراع أي ٢٨,٨٠٠ ذراعاً. وأن ببغداد ٦٦٥ جامعاً والمدارس الأولية ومدارس التعليم الثانوي والعالي (مدرسة المصطلح التركي) كثيرة جداً وببغداد ست دور للقراء (قرّاء القرآن الكريم) غير ٦٠ داراً للحديث وفي بغداد عين ماء و ١٠٠ سبيل يأتي ماؤها من دجلة. كما أن بها ٥٠٠ حمّام عام وفيها ٨ كنائس و٣ معابد لليهود، كما يوجد بها أيضاً الأكراد والأعاجم واليهود والأرمن. وبغداد إدارياً عبارة عن ٧٥ قضاءً.

كانت بغداد ـ كما قال أوليا جلبي ـ في القرن السادس عشر، مركزاً صناعياً كبيراً، ومن الصناعات التي كانت متقدمة آنذاك: نقش المجوهرات، والجلود، والحديد، وقال أنّ سيوف بغداد ذات شهرة عالمية. ومهنة الخياطة في بغداد مهنة متطورة.

بيروت ـ القدس ـ دمشق

وعن بيروت قال أوليا جلبي أنّ لها ثلاث مسميات أخرى هي: الموز ـ مدينة الموز ـ قلعة الموز وهي مركز لسنجق تابع لإيالة صيدا وبالسنجق ٦٠٠ قرية تحميها قلعتان، وأهل بيروت خليط من السنيين ومن الشيعة والدروز، غير أنّ الموظفين والعسكر أتراك.

وفي القدس التي وصلها هذا الرحالة العثماني في يناير ١٦٧٢م قال أنّ العرب ينطقون اسمها: القدس، والأتراك يسمّونها: القدس الشريفة، أما النصارى واليهود فيسمونها يروسالم، وهي مركز لسنجق تابع لإيالة الشام. قال أولياً جلبي أن احتفال النصارى بأكبر أعيادهم، يقيمونه في القدس في كنيسة القيامة ويحضره النصارى من كل أنحاء العالم. ويبلغ عدد الزوار المسيحيين هناك ما بين ٥٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ مسيحي يعودون بعد هذا

الاحتفال إلى أوروبا، وقد أتموا شعائر حجّهم، وعن الأمن العثماني في القدس أثناء هذا الإحتفال، قال أن قاضي مدينة القدس الشريفة وهو مسلم عثماني أو أمير القدس الشريفة وهو عثماني مسلم أيضاً، هو الذي يفتتح ذلك الإحتفال الضخم، ويقوم الحرس العثماني بمرافقة المسيحيين إلى المدن المقدّسة عندهم مثل الخليل والناصرة وبيت لحم.

ويصف أوليا جلبي دمشق ـ بأنها تشمل ٢٠،٠٠٠ مسكن ما بين دار وقصر وسراي. وبدمشق ـ القرن السابع عشر ـ ٧٥ شارعاً كبيراً و ٣٨٠٠ شارعاً عادياً يتولى الحراسة فيها ٢٠٠ جندي حراسة، ويبلغ عدد سكان دمشق حسب تعداد الدفتردار زاده محمد باشا ٦٠٠،٠٠٠ نسمة. ودار الشفاء بدمشق كبيرة ينفق عليها سنوياً ١٠,٠٠٠ قرش عثماني وفيها يقدم الأطباء. (الحكماء) لمرضى الروح (المرضى النفسانيين بمفهوم العصر الآن) معاجين معينة من شأنها تقوية الروح. وللتسرية عن المرضى تصدّح الموسيقى والأغاني ثلاث مرات في اليوم، وكبير الحكماء بدار الشفا بدمشق يسمى يعقوب هدايا، له كتاب في الطّب الروحي (أي النفسي) بعنوان دواء الروح.

مصر

اهتم أوليا جلبي اهتماماً ملحوظاً بمصر، فقد خصص لها أغلب الجزء العاشر من رحلته(وصل إلى مصر أول مرّة ١٦٧٢م وعاد إليها من سياحته في إفريقيا، عام ١٦٧٦م أمّا تاريخ مغادرته القاهرة آخر مرّة فغير معروف) . وقد أمدّنا هذا الرحالة العثماني بمعلومات طريفة عن مصر، منها،أنه حدثنا عن وجود معدن الزمرد في أسيوط ولفت نظره أنّ الدجاج يباع في مصر «بالكيلة» (آنية مفرغة تُملأ بالحبوب عادة)، ويقول إنه هذا شيء لم يجده إلاّ في مصر، إذ أنّ الدجاج يباع بالواحدة في كل مكان زاره من قبل مصر، وعن الجراد يقول أوليا: أن ليس في مصر جراد، وهو يأتيها من البلدان الأخرى، لكن الجراد يموت سريعاً في مصر.

وعن القاهرُة يقدّم لنا أوليا جلبي إحصاءات طريفة، وهي في نفس

الـوقت هامّـة للمؤرخين، كـل حسب اختصاصـه، من هـذه الإحصـاءات عن القـاهـرة أنّ بهـا: ٣٠٠٠ معمـاري و ٧٠٠ مبتهـل مـطرب، و ٦٠ جـراحـاً، و ٤٠ طبيبـاً، و ٢٩٠ صيـدليـاً. هـذا غـير الـذين يعملون في الحكـومـة من الجرّاحين والأطبـاء ةالصيادلـة ــ و ٣٠٠ نسّـاج متخصّص في ستـائـر الكعبـة، و ٣٠٠٠ تـرزي في ٧٠٠ دكـان، و ٣٨٠٠ تـاجـر كبـير يعملون في الاستيـراد والتصـدير، و ٣٠٦٠ طحّـاناً، و ٦٠٠ فـرّان يعملون في ٧٠ مخبزاً ــ غـير أفران البيـوت ــ و ٦٤٣ مقهـى، و ٣٠ جـزّاراً يهـوديـاً يعـملون في ٢٠ دكـانـاً، و ١٥٠ مجلّداً للكتب، و ٦٨ بـائـع ورق، و ٨٠٠ حـدّاد، و ٣٠٠ حفّـار آبـار، و ٣٥٠ بنّاء حمّامات، أما عدد الخيامية بأنواعهم ٣٢٥٦ شخصاً، وعدد دكاكـين العـطارة ١٢٠٠ يعمل بهـا ١٨٠٠ شخص، وعـدد الآبـار ٢٧٤٠٠٠، والمنـازل ٢٦ ألفـاً. وفي القاهـرة يوجـد الجـامـع الأزهـر ويـدرس فيـه ١٢٠٠٠ طـالب، وهو عدد كبير لا تصل إليه أيّ مؤسسة تعليمية في دنيا الإسلام.

يصف أوليا، جامع ابن طولون بالقاهرة بـأنه جـامع فخم جـداً، ويدلّنـا على اسم الخطاط الذي كتب لوحة البسملة الكائنة في الجانب الأيسـر من حـائط حرم الجامع، فيقول: إنه الخطّاط الشهـير أحمد القـرا حصاري، أشهـر خطّاطِي السلطان سليمان القانوني، كتبها عندما مرّ على القاهرة في طريقه للكعبة، ويبلغ طـول لوحـة البسملة هذه ٤٠ خـطوة، ويبلـغ طول حـرف الألف فيها ثمـانيـة أذرع، ويقول أوليا إن لكـلّ من لوحـة البسملة هذه وجـامع ابن طـولون نفسـه شهرة عظيمة.

وفي مصر ــ القرن السابـع عشر ــ ٦١٧٦ مـدرسة أوّليـة (كتاب)، ثلث هذا العدد في القاهرة وحدها، ومساحة خان الخليلي ــ كـما يحدّثنـا أوليا ــ تبلـغ ١٠٠ × ١٠٠ ذراع، به ٢٠٠ دكان ومبناه مكوّن من أربعة أدوار وبالخان جامـع صغير، وفي بولاق خـان يحمل نفس الاسم أيضـاً: خان الخليـلي. والقاهـرة في رحلة أوليا جلبـي، مركز عظيم لصناعة الأدويـة، ويصدر منهـا إلى بقية البلدان العثمانية وإلى أوروبا.

وجد أوليا جلبي أنّ دمياط هي ثانية المدن المصرية بعد القاهرة أهمية ونشاطاً وازدحاماً بالسكّان، وأنّ عدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، وبها ٢٦٠ شارعاً. ولفت انتباه الرحّالة التركي ـ والأتراك شعب نظيف ـ أنّ جميع شوارع دمياط نظيفة، كما حدّثنا عن أرزها قائلاً إن أرز دمياط مشهور في كل العالم وبها سبعون مضرباً للأرز. وقال إنّ المدينة الثالثة في مصر من حيث الأهمية وعدد السكان رشيد.

وفي أسوان مغارتان، واحدة باسم مغارة الحكيم لقمان، والأخرى مغارة إدريس، وهما متجاورتان.

قصّة أثر النبي

وعن أثر قدم النبي، حدّثنا أوليا جلبي قائلاً: إن السلطان أحمد الأول عندما كان يبني جامعه المشهور في إستانبول، زيّنوا له بأن يحضر أثر قدم النبي من جامع قايتباي بالقاهرة ليضعه في جامعه تبرّكاً وصيتاً، فأمر بإحضار الأثر وأرسله إلى جامع أبي أيوب الأنصاري في مراسم عسكرية وشعبية ضخمة، ثم أمر بنقلها إلى جامعه.

لكنه رأى فيما يرى النائم أنه في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقايتباي يشكوه للرسول، ثم أمر النبي السلطان أحمد الأول أن يعيد الأثر إلى ضريح قايتباي، في مصر مرة أخرى، ولـمّا قصّ السلطان هذه الرؤيا على بعض أشخاص منهم والد أوليا جلبي، أوصى الجميع بإعادة الأثر، فأمر السلطان، والد أوليا جلبي بصنع صندوق هو تحفة فنية ووشاه بالمينا من فضة وذهب ليوضع فيه الأثر، وقد كان. وعاد الأثر بالصندوق إلى مكانه.

يقول أوليا جلبي إنه في أثناه سياحته بمصر زار أثر قدم النبي ورأى التحفة التي صنعها والده في أربعين يوماً وعليه أبيات ثمانية من الشعر العربي في آخرها: بحرمة صاحب القدم المعلاّ له الدرجات العلا في الآفاق سلم.

في السودان وعفار ومقديشيو

وعن السودان يقول أوليا جلبي إن ملك الفونج يسكن مدينة دنقلة العجوز، وأنّ هذه المدينة هي أكثر مدن السودان ازدحاماً، بها قلعة تحتوي على ٦٥٠ بيتاً من اللبن و ٧ جوامع و ٩ مساجد و ٦ كتاتيب ومجموع مساكن دنقلة العجوز ٣٠٠٠ منزل وأهلها على المذهب المالكي، والخطبة تُقرأ فيها باسم السلطان العثماني وملك الفونج.

دهش أوليا جلبي في السودان حينما استقبله ملك الفونج ورحّب به متحدثاً باللغة التركية العثمانية مما أسعد أوليا، إذ أنه ـ كما يقول ـ لم يسمع اللغة التركية منذ مدة. وزالت دهشته عندما علم أن ملك الفونج ينتمي إلى إحدى القبائل الأسوانية. وفي أسوان تعلّم ملك الفُونج اللغة التركية، قال لنا أوليا إنّ ملك الفونج تابع لوالي مصر العثماني. والناس في بلاد الفونج لا يعرفون الأمراض الشائعة، كالجزام والفلج وغيره.

وفي عفار يصف أوليا جلبي «جامع سيدنا سليمان» بأنّ قبلته متجهة نحو القدس، ويسميه الأهالي هناك باسم جامع الكنيسة، وهو ـ كما يقول أوليا ـ من أكبر جوامع الدنيا ـ وليس بهذا الجامع مئذنة ولا منبر.

وعن شعب مقديشو يقول أوليا جلبي بأنه شعب مسلم مالكي المذهب، وملكه تابع للدولة العثمانية، والخطبة هناك تُقرأ باسم السلطان العثماني.

مات أوليا جلبي في إستانبول عام ١٦٨٤م في أواخر عهد السلطان مراد الرابع، وقد بلغ من العمر ٧٣ عاماً. بدأ رحلته من إستانبول في ٢٧ أبريل عام ١٦٤٠م وعمره ٢٩ عاماً، وآخر تاريخ ورد في رحلته هو ١٦٨٣م ورد أثناء حديثه عن هزيمة العثمانيين أمام أسوار فييناّ.

ورحلته ـ وهي بالتركية العثمانية ـ نشرت مقتطفات منها: بالقاهرة عام ١٨٤٧م، وبإستانبول أعوام ١٨٤٠م و١٨٤٥م، و١٨٦٢م، كما نشرت مقتطفات منها في اللغة التركية بأحرفها الجديدة مرّات عديدة مختلفة، ونشرها دانشمان مختصرة في

خمسة عشر جزءاً، إلاّ أنّ الرحلة نشرت كاملة في عشرة أجزاء ضخمة في إستانبول بين عامي ١٨٩٦م و ١٩٣٨م.

ولمّا كان نشر الرحلة بلغتها الأصلية سواء في المقتطفات أو المختصرات أو كاملة، غير دقيق وبه كثير من الأخطاء نتيجة عدم التحقيق من كل المخطوطات مما أوقع الناشرين في حرج شديد ذلك الحرج يزيده عدم العثور على المخطوط الذي خطّه أوليا جلبي بنفسه، بعد. لذلك فإن جهوداً علمية تجري الآن في تركيا لنشر الرحلة بصورة أدقّ وأوفى.

ثالثاً :

كَلِمَةُ حَقٍّ وَاجِبٌ قَوْلُهَا

(١) العثمانيون المفترى عليهم :
ردّ على الدكتور نور الدين حاطوم .

(٢) اللغة العربية في الدولة العثمانية .

(٣) اللغة التركية في مصر .

(١)

العُثمانيُّون المُفـتَرى عَلَيْهِمْ

● إن الطريق إلى تقويم الحكم العثماني يبدأ بخطوة هامّة وطبيعية، هي: محاولة فهم العثمانيين.

ولكي تنجح هذه المحاولة وتحقق أهدافها، فينبغي أن تتوفر للباحث ثلاثة عناصر، هي: ●

* أولاً: نشر وثائق الدولة العثمانية: وهذه مكتوبة بلغات عديدة أهمها التركية والعربية واللاتينية. هذه الوثائق محفوظة في دور حكومية خاصة ممتدة في أوروبا وأفريقيا. في أوروبا: في بلغراد وبوسنة سرايـي وبودابست وفيينّا وصوفيا وإستانبول. وفي آسيا: البصرة وبغداد ودمشق. وفي أفريقيا: القاهرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر. وقد عدّدت هنا دور المحفوظات الرئيسية فقط. وربما يكون هناك دور محفوظات أو وثائق عثمانية في منطقة القرن الأفريقي، حيث كانت تحكم الدولة العثمانية، وقد يكون هناك أيضاً مثل ذلك في صنعاء أو عدن أو الحجاز مما لا نعرفه. أذكر بهذه المناسبة أنّ دور المحفوظات في إستانبول وحدها تضم (١٥٠) مائة وخمسين مليون وثيقة، لم يُدرس، بل لم يُصنف منها إلاّ عدد لا يفصح عن نفسه خجلاً. وقس على ذلك كل هذه الدور المذكورة. لا ننسى في هذا الخصوص الأقسام الخاصة بالوثائق العثمانية في دور المحفوظات في مختلف أنحاء العالم: موسكو ولندن وباريس وغيرها.

* ثانياً ــ نشر المخطوطات: وهذه منها ما هو عام يفيد في الكشف عن

.تاريخ منطقة كبيرة الساحة تحوي وحدات إدارية عثمانية في داخلها، أذكر على سبيل المثال: رحلة الطبيب العثماني قول أغاسي «عبد الحكيم»، وهي رحلة رسمية استهدفت تقديم تقرير عن الحالة الطبية والصحية في منطقة الخليج والجزيرة العربية بما في ذلك اليمن وأيضاً في طرابلس الغرب وبنغازي. وكانت في أواخر العهد العثماني في البلاد العربية. ومنها أيضاً «سليم نامه لر» المكملة والمتممة بل والمصححة لابن إياس، وهي تقدّم فهماً هاماً لتاريخ حملة سليم الأول على الشام ومصر والحجاز، ثم «غزوات نامه لر» التي تساعد مساعدة فعّالة في الكشف عن تاريخ منطقة الخليج والجزيرة العربية.

يدخل في نطاق هذه الفقرة رحلات الضباط العثمانيين في السودان واليمن والحجاز وليبيا. وتقارير هيئة أركان حرب الجيش العثماني عن الوضع السكاني والقدرات العسكرية لدى الشعوب بل والقبائل العربية في مختلف أرجاء الولايات العربية. وتقارير المخابرات العثمانية عن بعض المسائل الهامّة في البلاد العربية، مثل التقرير السرّي الذي كتبه الضابط العثماني يوزباشي أركان حرب «علي» عن حركة أحمد عرابي باشا، وكان علي قد دخل مصر سراً أثناء بدايات الغزو الإنكليزي. والتقارير العسكرية الإدارية مثل تقرير محمد أمين سامي باشا عن مشكلة تقسيم اليمن إلى قسمين، ثم تقارير وزارة الخارجية العثمانية عن المشكلات بينها وبين وزارات خارجية الدول الأوروبية حول المناطق العربية مثل تقرير الخارجية العثمانية عن البحرين، وغير ذلك الكثير.

ومن هذه المخطوطات ما يختصّ بأحداث معيّنة لمنطقة عربية محدودة: مثل تاريخ عبد الكريم بن عبد الرحمن عن مصر العثمانية وتاريخ سفر البصرة وتاريخ سفر نهر ذياب، وتاريخ عزت، وذلك التاريخ المكمّل لتاريخ الجبرتي والمصحّح لمعلوماته.

* **ثالثاً ـ نشر القوانين العثمانية للبلاد العربية،** مثل: قانون نامه مصر، قانون نامه بغداد، قانون نامه طرابلس الغرب، أقول أيضاً في هذا الصدد إن الحديث عن «إثقال العثمانيين» للعرب «بالضرائب» لا ينبغي أن

يكون قبل نشر هذه القوانين ومتابعة تطبيقاتها من خلال الوثائق. ففي نشر هذه القوانين إلقاء الضوء الساطع الذي يكشف التاريخ الاقتصادي العربي في العهد العثماني، كما من شأنه أن يحقق النتيجة ذاتها بالنسبة لدقة العثمانيين في اهتمامهم بالنظم العدلية وبالتقنين.

أقول: ما دامت هذه الأمور ما زالت مجهولة، فإن إثارة دعوة تقييم «الحكم العثماني» لا بدّ وأن تكون صعبة إلى درجة يفطن إليها كل ذي إدراك تاريخي، بل وحتى المثقّف العادي.

وما دمت أرى هذا، فإني أرى أيضاً أنّ نتّجه بالتالي ــ كخطوة أولى على درب دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى من فتح ملفّ الدولة العثمانية ــ إلى فهم العثمانيين تشكيلاً ونظماً وحضارة وإلى فهم طبيعة العثمانيين، مراعين المدة الزمنية التي تحدّث عنها الدكتور نور الدين حاطوم في هذه القضية.

فلنرَ ماذا يقول الدكتور نور الدين حاطوم عن الحضارة العثمانية.

طبيعة الدولة العثمانية

يقول الدكتور حاطوم: «ولكن ما هي الحضارة التي كان عليها العثمانيون أيام الفتح؟ لا شيء، وفاقد الشيء لا يعطيه. لم يكن للترك دين خاص ولا حضارة خاصة. وكل ما عندهم لغتهم التركية وقد أخذوا عن العرب، الدين الإسلامي والكتابة العربية وتركوا العرب وشأنهم بعد أن أثقلوهم بالضرائب من كل نوع وحكموهم حكماً عسكرياً» (العربي، العدد ٢٢٥، ص ١/٥٧).

لن أناقش مسألة خصوصية الدين لقوم، ولا أخذ الترك الحروف العربية عن العرب، ولا عن الضرائب، فالضرائب في العهد العثماني مقسّمة شرعياً وعرفياً، منها ما هو ثابت ومنها ما هو مؤقت ينتهي بزوال سببه (انظر فقرة القوانين العثمانية من هذا المقال)، (قارن بين النظام الضريبي في الدولة المملوكية وتطبيقاته في مصر وشدّته، في ابن إياس وغيره، وبين النظام الضريبي

العثماني وتطبيقاته في مصر في «قانون نامه لر»، والعدالة العثمانية في: البكري والإسحاقي على سبيل المثال).

لنترك الحديث عن هذا، فتلك مسائل طويلة ليس هنا مجالها ولنقتصر على الحضارة العثمانية حتى أيام الفتح (يقصد الدكتور حاطوم الفتح العثماني للبلاد العربية).

لنتخذ لذلك حداً تاريخياً هو مقتل الغوري في مرج دابق ثم دفن العثمانيين لرأسه التي عثروا عليها عقب المعركة ـ أمام حلب ـ بناء على أمر سليم.

وطبيعة الدولة العثمانية ـ كما يعرفها المؤرّخون ـ «عسكرية ـ جهادية»، فقد بدأت إمارة ثغر، ثم تحوّلت إلى سلطنة، ثم إلى خلافة وسلطنة. لقد بدأ التاريخ العثماني في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. كانت تسود العالم كله وقتئذ رهبة وذعر من الإمبراطورية المغولية التي أقامها جنكيز خان، وكان هذا قد استولى على شمال الصين ثم بدأ زحفه نحو تركستان. كلنا نعرف أنه لم تكن هناك قوة بشرية آنذاك تستطيع الوقوف أمام جحافل جنكيز خان.

كان هؤلاء المغول على دين الشامانية. وكان سكّان تركستان أتراكاً مسلمين في ذلك الوقت. كان يسكن في منطقة جنوب صحراء قره قورم في آسيا الوسطى ما يقرب من ٧٠,٠٠٠، خيمة بدوية يسكنها حوالي نصف مليون مسلم تركي. ضم هذا الجمع البشري عشيرة تسمى «قايي» هربت كل هذه الكتل البشرية من مواطنها خوفاً من الزحف المغولي. وكذلك فعلت عشيرة «قايي» التي اتجهت نحو الأناضول. كانت عدّتها ٤٠٠ خيمة يسكنها حوالي ٤,٠٠٠ شخص. وفي الأناضول ساعدت هذه العشيرة السلطان السلجوقي علاء الدين حاكم قونية في إحدى معاركه مع خوارزم شاه جلال الدين. فأقطع علاء الدين العشيرة قطعة صغيرة من الأرض على حدوده مع بيزنطة (ثغر في الاصطلاح التاريخي الإسلامي). وكان الرئيس الثالث لهذه العشيرة وهي في

مكانها الجديد بآسيا الصغرى هو الأمير فخر الدين عثمان، الذي سمّيت الدولة العثمانية باسمه.

يقدّر المؤرخون مساحة الثغر الذي أهداه السلطان السلجوقي لعشيرة قايي، بنحوٍ يتراوح بين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠كم تقع في ملتقى ولايات اسكيشهر مع بيله جك وكوتاهيه، في تركيا اليوم.

وكانت إمارة الثغر هذه بحكم الموقف التاريخي والموقع الجغرافي عسكرية ــ جهادية كما قلنا، وعليه فقد استطاع الأمير عثمان أن يوسّع ثغره على حساب القوى البيزنطية إلى مساحة تقدّر بـ ١٦,٠٠٠كم، ولم يكن عثمان مستقلاً، فثغره تابع لقونية، وقونية كانت تابعة لتبريز، وتبريز كانت تابعة لبكين حيث كان يحكم قوبيلاي خان حفيد جنكيز خان.

ثم تولى أورخان بن عثمان الذي أرسى دعائم حضارة عثمانية استمدّت عناصرها من التراث السلجوقي وحضارة السلاجقة، والسلاجقة كما نعرف: أتراك مسلمون. فتح أورخان ازنيق (كانت هذه المدينة قبل ذلك مركزاً علمياً مسيحياً يلي إستانبول ــ وكانت بيزنطية وقتها ــ مباشرة في المكانة الدينية والعلمية المسيحية)، فأنشأ بها جامعة إسلامية كبيرة، وفي عهده تمّ تكوين جيش نظامي لا عمل له إلّا الحرب، وبدأ الطراز المعماري العثماني في الظهور وتمّ ترتيب الديوان الذي يساعد الحاكم في تصريف أمور الرعية (انظر: لاروس ــ مادة أورخان غازي، الطبعة التركية ــ ومحمد فريد: تاريخ الدولة العليّة العثمانية).

بعد أورخان تولّى مراد الأول فاتح صوفيا (عاصمة بلغاريا اليوم)، فأعلنته الكنيسة «عدواً لعيسى»، وعليه فقد اتحدت ضده كل الجيوش الأوروبية، ومات مراد هذا في الحرب. وترك لابنه بايزيد إمارة مساحتها ٥٠٠,٠٠٠كم^2 (انظر الموسوعة التركية، مادة الإمبراطورية العثمانية).

بايزيد الصاعقة

قلت إن طبيعة إمارة الثغر العثمانية عسكرية ـ جهاديّة، طوّرت مساحتها خلال ١٠٨ سنوات وفي عهد ٣ من أُمرائها من ١٠٠٠كم² إلى ٥٠٠,٠٠٠كم². وأقصد بذلك، الدلالة على سرعة الانتشار مع الصمود في وجه أوروبا المتحدة فيما سمّي في الاصطلاح العثماني (خاجلي سفرلر)، أي الحروب الصليبية.

إلى أن جاء بايزيد الصاعقة الذي نعرفه نحن العرب باسم بايزيد الأول ـ وهو بايزيد الذي أسهب فيها بعد في وصف اهتمامه بالنظم العدلية وتطبيقاتها، المؤرخ البكري ـ واستطاع بايزيد، عن طريق السلطان برقوق المملوكي، أن يحصل من الخليفة العباسي في القاهرة على لقب سلطان، فأصبحت الإمارة العثمانية سلطنة، رسمياً، وكان هذا كما يقول المؤرخ التركي شهاب الدين تكين داغ «تتويجاً شرعياً لواقع العثمانيين».

ثم جاء تيمورلنك وحارب بايزيد في واقعة أنقره (٢٨ يوليو ١٤٠٢م) وهُزم بايزيد، بل وأُسر ثم مات في الأسر، وأسر من أُسر من أولاده وهرب من هرب، ثم ادّعى كل من أولاده السلطنة لنفسه وحارب كل منهم الآخر إلى أن انتصر محمد جلبي (الأول) وبدأ يجمع شمل دولة انفرط عقدها واستقلّت كل إدارة فيها عنها.

حارب محمد الأول الجميع وانتصر، وبدأت عملية توحيد أجزاء السلطنة، وما إن استقرّت هذه العملية قليلاً حتى قامت ثورة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونة المشهورة، وهي ثورة باطنية قامت بتأييد أمير جنوب رومانيا المعادي للعثمانيين. وكان للشيخ بدر الدين مساعدان قويان أحدهما مسلم وهو بيرقليجه مصطفى، والآخر يهودي وهو طورلاق كمال. وكانت الثورة قوية حتى خيف على الدولة منها، لكن محمداً انتصر، وعادت الدولة العثمانية على مساحة تقدر بـ ٨٦٠,٠٠٠كم² بعد أن لم تكن.

محمد الأول هذا يعرفه التاريخ العربي بأنه أول سلطان عثماني يرسل

الصرّة إلى الحجاز، والصرّة هدية نقدية سنوية اعتاد سلاطين آل عثمان إرسالها إلى الحجاز لتوزَّع على أهالي مكّة والمدينة.

ثم تولّى مراد الثاني الذي حاصر بلغراد ستة أشهر كاملة (فتحها العثمانيون بعد ذلك عام ١٥٢١م)، وبعده تولّى محمد الثاني الذي نعرفه باسم الفاتح والذي بدأ به ــ في العرف التاريخي الدولي ــ العصر الحديث. ثم بايزيد الثاني ــ الذي كان معاصراً لمحنة المسلمين في الأندلس ــ ثم سليم الأول الفاتح العثماني للبلاد العربية، وبذلك أصبحت الدولة العثمانية خلافة وسلطنة.

وعندما مات سليم الأول بعد حكم قصير دام حوالي تسع سنوات كانت مساحة دولة الخلافة العثمانية قد بلغت ٦,٥٥٧,٠٠٠كم٢ موزّعة كالآتي: في أوروبا ١,٧٠٢,٠٠٠كم٢، وفي آسيا ١,٩٠٥,٠٠٠كم٢، وفي أفريقيا ٢,٩٥٠,٠٠٠كم٢ (انظر تاريخ تركيا، الجزء الخامس).

وخطب لسليم الأول في جوامع دمشق والقاهرة باعتباره خليفة وضربت النقود باسمه باعتباره سلطاناً. (انظر سليمنامه لر، ومقالة شهاب الدين تكين داغ التي تحمل نفس الاسم).

وتولّى سليمان بن سليم المعروف بسليمان القانوني (لاحظ ما في اللقب من دلالة حضارية). وتعاقب من بعده السلاطين والخلفاء إلى أن انتهت الدولة العثمانية وقامت على أنقاضها دول عديدة منها: تركيا والبلاد العربية ودول البلقان والقرن الأفريقي.

لقد قامت إمارة الثغر العثمانية (المستقلة) عام ١٢٩٩م وانتهت «السلطنة» عام ١٩٢٢م، وبدأت الخلافة العثمانية عام ١٥١٧م وانتهت عام ١٩٢٤م.

وهذا يعني أن العثمانيين استطاعوا أن يحافظوا على وجودهم طوال ستة قرون وربع قرن. فهل يعقل أن تحافظ دولة على كيانها كل هذه المدّة إذا لم تكن ذات حضارة؟.

قصور العثمانيين والأوروبيين

يقول المؤرخ الفرنسي جروسيه، وهو واحد من أكبر مؤرخي آسيا، في كتابه «وجه آسيا»، الذي صدر في باريس عام ١٩٥٥م: «إن عملية تصفية الإمبراطورية الإسبانية بدأت بموت فيليب الثاني عام ١٥٩٨م، وانتهت بمعاهدة أوترخ عام ١٧١٣م، أي خلال قرن من الزمان. أما تصفيَة الإمبراطورية العثمانية فقد بدأت بمعاهدة كارلو فجه عام ١٦٩٩م وانتهت عام ١٩٢٠م، أي خلال ٢٢٠ سنة»، أي بعد قرنين وربع تقريباً. ونشر لورد كينروس في مجلة «الكتب والكتبين» عام ١٩٧٣م ما ترجمته: «إن الإمبراطورية العثمانية كانت في ضخامة الإمبراطورية الرومانية حيث كانت تساويها تقريباً من حيث المساحة، لكن الإمبراطورية العثمانية حافظت على جودها في ضعف المدة التي احتاجتها الإمبراطورية الرومانية في هذا الشأن».

نأخذ قصر طوب قابو كمثال على قضية بذخ السلاطين العثمانيين، فهذا القصر هو رمز الحكم العثماني ومركز حكم الإمبراطورية العثمانية. والزائر له يدهش من بساطته، فهو مقام على مساحة ٦٩٩,٠٠٠م٢ (٠,٧كم٢)، وقد أُسِّس ليسع ٤٠,٠٠٠ شخص بما في ذلك مدارس القصر السلطاني التي تعدّ العلماء والضباط والخبراء العسكريين وبعض فرق الجيش والحرم (والحرم يعني المحرم وهنّ ما لا ينبغي لأجنبي أن يراه أي زوجة السلطان وبناته حيث تقوم الخادمات بخدمتهن، أما الحريم كما تُصوّره المصادر الأوروبية جيدة الخيال فلم يعرفه سلاطين هذه الدولة). طوب قابي أو طوب قابو (ويكتب بالشكلين) ليس بمبنى فخم من قطعة واحدة كما هي القصور الملكية في أوروبا، لأنه عبارة عن أجنحة وأروقة بسيطة أحفل ما فيها مكتبة القصر المشهورة الآن دولياً بمخطوطاتها العربية والفارسية والعثمانية النادرة القيّمة. وليس في قصور العثمانيين ما يضارع قصر ملك أوروبي في حينه، وتواضع قصر يلديز أمام قصر أي أمير أوروبي معاصر له، له دلالته أيضاً في هذا الأمر.

جامعة لكبار الموظفين .

ينقل الدكتور حاطوم عن مولتكه ما نصّه (والنص للدكتور حاطوم): «إن التركي الذي يعرف القراءة والكتابة يعتبر عالماً. . . حتى أن كبار الموظفين كانوا يطلبون إلى آخرين قراءة الرسائل الموجهة إليهم. . .» (العربي، عدد ٢٣٥، ص ٢/٥٧).

هذا يدفعنا إلى معرفة طريقة إعداد كبار موظفي الدولة العثمانية. قبل الفتح، وليسمح لي الدكتور حاطوم أن أضرب أمثلة فيها بعد الفتح أيضاً لأن مولتكه (كونت فون مولتكه ١٨٠٠ ــ ١٨٩١م) كان مستشاراً عسكرياً في إستانبول من ١٨٣٥م إلى ١٨٣٩م:

كان القصر الهمايوني (السلطاني) ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ الحرم: يعني عائلة السلطان وخادماتها، وهو جزء مستقل.

٢ ــ بيرون همايون.

٣ ــ أندرون همايون.

وأندرون همايون، عبارة عن جامعة خاصة داخل القصر، ظلّت أربعة قرون كمدرسة فنية تمدّ الدولة العثمانية بكبار الموظفين من العسكريين والمدنيين، بل حتى ما يسمى اليوم بالفنانين، إذ كان بالقصر في وقت عملية تغريب الدولة مدرسة موسيقية كبيرة تضارع دور الكونسرفتوار في البلاد الأوروبية اليوم نظاماً ودراسة.

وفي هذه المدرسة (مدرسة في الاصطلاح العثماني تعني الجامعة، بتعبير هذا الزمان) كان يؤتى بشبّان أكثرهم من المدارس السلطانية حيث يعدّون إعداداً عسكرياً تربوياً مع منحهم رتبة الضباط وبمرتب مجز. كانوا يدرّبون في القصر على إدارة الدولة من ناحية، ويتلقون دراسات خاصة في العلوم العسكرية والمواد العلمية والدينية ويتدرّبون على السباحة والرماية والفروسية. وكانت اللغة العربية في هذه المدرسة لغة إجبارية إذا رسب الطالب الضابط فيها يرسب تماماً. أما أعلى مراحل هذه «المدرسة» تسمى (خاص أوده) يعني الغرفة

الخاصة ولم يكن يقبل بها أكثر من (٤٠) طالباً فقط هم الصفوة حيث يعدّون للمناصب الأكبر في الدولة. مديرها ضابط برتبة وزير (مارشال). وكان كل طالب من الغرفة الخاصة يتمّ تقديمه للسلطان شخصياً. وظلّت هذه «المدرسة» معمولاً بها حتى عهد السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٣م عندما تم تبنّي الطريقة الأوروبية في إعداد الوزراء، ومع ذلك فقد كان كل الضباط الكبار والموظفين الكبار في الدولة، وحتى انهيار الدولة، على درجة عالية من المعرفة والثقافة وكان فيهم كثرة ملحوظة من العلماء.

أحمد جودت باشا (١٨٢٢م ـ ١٨٩٥م) وزير العدل وصاحب تاريخ جودت والتي اقترنت باسمه «مجلة الأحكام العدلية» وهي معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي. الغازي أحمد مختار باشا (١٨٣٩م ـ ١٩١٩م) الذي عمل صدراً أعظم ومندوباً فوق العادة في مصر عام ١٨٩٢م صاحب كتاب رياض المختار، مرآت الميقات والأدوار الذي طبع في مصر عام ١٨٨٦م وكتاب إصلاحات تقويم، وطبع أيضاً في مصر عام ١٨٩٠م وسرائر القرآن، وخير الدين باشا التونسي (١٨٢١م) ذلك العبد الرقيق الذي أصبح الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٧٨م، وصاحب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وإسماعيل باشا (وفاته عام ١٩٢٠م) صاحب الذيل على كشف الظنون والذي سمّاه «إيضاح المكنون في ذيل كشف الظنون».

فوق ١٢ ألف جمل

وبما أن الدولة العثمانية دولة «عسكرية ـ جهادية» فلا بدّ أن يبدأ حديثنا في هذه النقطة بالجانب العسكري.

حتى عام ١٧٠٠م، كانت المدفعية العثمانية أقوى مدفعية في العالم. فقد كان إعداد المدفعيين يتم بإعداد متين الجذور. في عهد الفاتح (١٤٣٢م ـ ١٤٨١م) كانت الطوبخانة المتحركة (يعني مصنع المدافع المتحرك) تنقل على ١٢,٠٠٠ جمل وتتحرك من إستانبول حتى ألبانيا، ثم تقف أمام مدينة مثل

اشقودرة لكي تصبّ مدافع الحصار الثقيلة. ومدافع فتح القسطنطينية لا تحتاج إلى الحديث عنها كتكنولوجيا متقدمة في ذلك الوقت. وكان هذا في القرن الخامس عشر.

أما مدافع الهاون فقد استخدمت لأول مرة في التاريخ في عهد الفاتح أيضاً.

وكان السلطان سليم الأول، هو أول من استخدم المدافع غير ثابتة الاتجاه والتي يمكن تحريكها بيسر. وكان ذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي مظهراً لدقة الاختراع العلمي والقدرة على استخدام التكنولوجيا الحديثة ـ بالنسبة لزمنه ـ وكانت القوات العثمانية قد انتصرت على القوات المملوكية في معركة الريدانية، وهزمت المدفعية المملوكية الثقيلة الثابتة الاتجاه والوضع. كان لدى القوات المملوكية المدافع الضخمة التي كان يستخدمها بجانب المماليك، خبراء جاءوا خصيصاً لذلك من أوروبا. وهذا ثابت في سليمنامه لر.

أما عن الأسطول العثماني، فقد كان حتى عام ١٨٦٨م هو الأسطول الثالث في العالم قوة بعد الأسطولين الإنكليزي ثم الفرنسي. وتشهد ترسانة السويس على دقة التنظيم العثماني في تنظيم إعداد الأسطول وسرعة تحركه من السويس إلى مختلف الأماكن، خاصة ما تُحدثنا به وثيقة هي فرمان لوالي مصر بسرعة إرسال الأسطول لإنقاذ «الأهالي المسلمين» في «البحرين» الواقعة في بصره كورفزي (خليج البصرة ـ الخليج العربي) عام ٩٨١هـ ١٥ جمادى الأخرة من «الكفار»، أي البرتغاليين الذين عاثوا فساداً هناك (انظر: دار محفوظات رئاسة الوزراء، ديوان همايون مهمة دفتري رقم ٢٣، ص ٦٤، حكم ١٢٤ وجنكيز اورخونلو حبش إيالتي).

بمناسبة التنظيم الحضاري العثماني يقول الجنرال النمسوي كونت فارسكلي، وهو القائد الذي أمضى حياته كلها في محاربة العثمانيين. يقول عن التنظيم العثماني ما يلي: «وصل التنظيم الاقتصادي العثماني إلى درجة عالية بحيث لم يكن يعادلها نظير في الحكومات المسيحية. من الممكن إيجاد موانع شتى في

القوانين العثمانية والنظم الاقتصادية التركية تمنع الاستغلال وتشجب كافة المساوىء».

وعن دقّة تنظيم الطرق البرية العثمانية ووفرة الخدمات بها يثني هذا القائد على العثمانيين، كما يمضي قائلاً: «من أسباب القدرة على الحركة العسكرية الموفقة للجيش العثماني هو جودة الأطعمة والعناية بالحيوانات، وهذه كلها أكثر دقّة مما هي عليها عندنا، وأكثر جودة في التنظيم. . .».

وأذكر هنا الاستحكامات العسكرية وبراعة العثمانيين فيها، وقد بلغت متانتها أن الثوار ما زالوا يستخدمون الاستحكامات والقلاع العثمانية الموجودة في أوجادين في حربهم ضد أثيوبيا. وهذه متبقية من العهد العثماني بالصومال.

وفي الجغرافيا العثمانية: أذكر بيري رئيس القائد البحري العثماني، الذي ظهر في أوائل القرن السادس عشر كمثال للجغرافية في الحضارة العثمانية. وقد كتب بيري رئيس عن كروية الأرض قبل رحلة ماجلان. ورسم خرائط لأمريكا مع سواحل غرب أفريقيا. رسم خرائط لشمال أفريقية وسواحل البحر المتوسط الأخرى، وأتمّ ذلك بدقة قال عنها لاروش الفرنسي في كتاب له صدر عام ١٩٦٣م: إن هذا أمر يعلو ويفوق كثيراً على علم الجغرافيا في ذلك القرن وعلى علم الجغرافيا لدى الغربيين».

في كتاب «عربات الآلهة» لمؤلفه أريك فون دانكين حديث شيّق عن خرائط القائد البحري العثماني بيري رئيس: «سلمت خرائط بيري رئيس في السنة الجيوفيزيقية ١٩٥٧م إلى الراهب الجزويتي لينهام المشرف على دار الأرصاد في ويستون ورسام الخرائط في أسطول الولايات المتحدة الأميركية. وقام لينهام بدراسات دقيقة لهذه الخرائط ثم أعلن أنه وجدها صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى تلك الأيام. أمّا الجانب المذهل في هذا الموضوع هو ظهور جبال أنتاركتيكا التي تظهر بكل تفصيل في هذه الخرائط، ذلك لأن هذه الجبال لم يمكن اكتشافها إلاّ بالأجهزة العاكسة للصوت عام ١٩٥٢م. قبل ذلك لم يكن أحد يعرف أنها موجودة وكانت

أنتاركتيكا مغطاة بالثلوج طوال عصور التاريخ». ملحوظة: أنتاركتيكا هي القارة السادسة التي تقع في نصف الكرة الأرضية الجنوبي ومساحتها ١٤,١٠٧,٦٣٧ كم٢).

نفس الكتاب يستطرد في الحديث عن الموضوع ذاته فيقول: «قدمت لنا الدراسات الأخيرة عن خرائط بيري رئيس التي قام بها البروفيسور تشارلز هـ. هابكود وعالم الرياضيات و. استراشان، معلومات رائعة تحبس الأنفاس: بمقارنة صور الأرض التي تمّ التقاطها من مركبات الفضاء، وبالخرائط التي رسمها بيري رئيس في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر، اتضح أن بين الأثنين تشابهاً مذهلاً. لقد توصل رجال العلم إلى نفس نتائج صور أصول هذه الخرائط التي التقطت من ذلك الارتفاع الشاهق».

وعلاج الأمراض بالموسيقى

أمّا في ساحة العلوم: فتشهد كتب شرف الدين الصابونجي الأماسي وهو جراح عثماني عاش في عهد الفاتح بعلو مركزه في دراسة الأدوات الجراحية. ولدينا داود الأنطاكي بدراساته في المخ، وأخي جلبي وأبحاثه في المسالك البولية، وعياشلي شعبان أفندي (أفندي كانت تطلق على العلميين) بدراساته في أمراض النساء والولادة والأطفال. وإنشاء المجمع الطبي العثماني في القرن الخامس عشر الميلادي دليل على اهتمام الحضارة العثمانية بالعلوم. وفي هذا القرن أيضاً يخصص العالِم العثماني مؤمن السينوبي في كتابه في الطب ٢٥ باباً للأمراض العقلية والنفسية والعصبية، بل خصص العثمانيون مستشفيات خاصة لهذه الأمراض، في الوقت الذي كانت أوروبا تحرق المريض عقلياً أو نفسياً أو عصبياً، ذلك الإحراق الذي استمر حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك بحجة إخراج الشيطان من جسم المريض.

في ذلك الوقت أيضاً استخدم الطبيب العثماني الموسيقي لمعالجة الأمراض. أن علاج المريض عقلياً أو نفسياً أو عصبياً بالموسيقى لم يبدأ حتى في الولايات المتحدة الأميركية إلاّ عام ١٩٥٦م.

يقول الدكتور «كرافت ـ أبينج» في كتابه عن علم الأمراض العقلية. «باريس ١٨٩٧»: «أن أوروبا قد تعلمت من العثمانيين معالجة المصابين بالأمراض العقلية».

إن أول كلية للطب عند العثمانيين قامت في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، قبل عهد النهضة العثمانية في عهد الفاتح بكثير، وسموها بل أطلقوا عليها لفظة «دار الطب».

وعن الخدمات الاجتماعية كمظهر حضاري في الدولة العثمانية نقول أن الدولة لم تكن متكفلة بالخدمات الاجتماعية، بل كانت هذه تدخل في اختصاص الوقف، وكان ركناً أساسياً في اقتصاد الدولة العثمانية. وعن طريقه نشطت الحركة العلمية في جوامع إستانبول (الجامع في النظام العثماني معمارياً وإدارياً وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعة ـ والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى..). كان صقوللي محمد باشا ـ على سبيل المثال ـ ينفق على الحركة العلمية في إستانبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندي قاضي عسكر الروملي (يعني البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن إلى سن الزواج. وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة. مثال آخر كانت هناك أوقاف خاصة بصرف مرتبات للعائلات المعوزة ـ غير الأكل ـ لأن الأكل المجاني أوقاف عامة أخرى تسمى (عمارت وقفي) أي وقف المطاعم الخيرية. وكانت الـ (عمارت) تقدم أكلاً مجانياً لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يومياً مجاناً، وكان مثل هذا في كل الولايات.

(عمارت) السليمانية أي المطعم الخيري الملحق بجامع السليمانية. بلغت ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أميركي إلّا قليلاً. إن وقفية السليمانية دليل على عظمة حضارة العثمانيين.

وبالطبع كان رصف الطرق و (كروان سرايي) أي الفنادق المقامة على

الطرق البرية في كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك المأكل والمشرب والمبيت كان مجاناً يصرف عليه من الأوقاف.

تلك لمحة عن الحضارة العثمانية حتى أيام الفتح العثماني للشام ومصر يعني من عام ١٢٩٩م إلى عام ١٥١٧م. مع أمثلة طفيفة عامة. وحيث أن الدكتور نور الدين حاطوم قد أراد الوقوف عند هذا الحد عندما ذكر. . أيام الفتح «فسأقف عند هذا الحد ولا أتجاوزه. وإن كان لي تعليق طفيف عام».

عن نقل الفنيين المصريين

بعد ذلك ـ أي بعد الفتح ـ سيطر الفكر العربي على مسار الدولة العثمانية. أصبحت إستانبول هي مركز الثقل في الدولة بشكلها الجديد فانتقلت ـ بعد الفتح ـ مجموعات من العلماء والمتخصصين في الميادين المختلفة إلى إستانبول.

لا بدّ أن يخطر ببال القارىء أن سليماً الأوّل نقل المعماريين المصريين والبنائين المصريين أصحاب الخبرة إلى إستانبول للإفادة منهم. وكتب التراجم العثمانية ـ بعد الفتح ـ لا تخلو من ألقاب: الفاسي، المصري، اليمني، الأزهري، المكي، الحلبي، المدني إلى آخره.

نرجع لفكرة العاصمة. إننا نلاحظ أن الذين يجدون في أنفسهم قدرة تميزهم عن الآخرين يتجهون إلى العاصمة لإبراز مواهبهم. من رابغ إلى مكة ومن الإسكندرية إلى القاهرة ومن وهران إلى الجزائر العاصمة، بل إننا نجد اليوم من يهاجر من بيروت أو دمشق أو حلب إلى القاهرة لإبراز موهبة قد يتصورها أو هي بالفعل موجودة فيه. نفس هذا حدث عند انتقال مركز الثقل من دمشق ومن القاهرة إلى إستانبول منذ عهد سليم الأوّل.

ورغم ذلك، فإن أسماء عربية كثيرة سيطرت على مقدرات الدولة العثمانية وليس فقط في أمورها العادية. أقرب مثال لذلك محمود شوكت باشا العراقي البغدادي الذي تحرّك على رأس جيش الحركة من سالونيك قائداً لجيش

ضمّ مصطفى كمال (أتاتورك) ليخلع ويعزل السلطان الخليفة التركي العثماني عبد الحميد الثاني من العرش وبذلك أفسح الطريق لرجال الاتحاد والترقي لحكم الدولة العثمانية.

سيطرة العربية على الثقافة

كان للعثمانيين من الثقافة الراقية والأدب الأخاذ ما جعل الترجمة منها إلى اللغات الأوروبية ملحوظة. (انظر تاريخ الأدب التركي للدكتور حسين مجيب المصري، القاهرة ١٩٥٦م) وكانت اللغة العربية سواء قبل الفتح العثماني للبلاد العربية أو بعده هي لغة الثقافة والأدب والعلوم عند العثمانيين. كتبوا بها كل شيء من كتب الفقه أو الفتاوى أو الدين، اصطلاحات العلوم العثمانية كانت كلها عربية. كما كتبوا بها التراجم مثل الشقائق النعمانية لطاشكبري زاده، وكتبوا بها التاريخ مثل جامع الدول لمنجم باشي أحمد دده وتاريخ (العيلم الزاخر في علوم الأوائل والأواخر) للعالِم التركي جنابي، وكتبوا بها المقامات مثل مقامات عيدي.

وقد قرر العثمانيون اللغة العربية لغة أولى في جميع المعاهد التعليمية من أوّلها إلى آخرها ودرسوا بها كافة العلوم. أهمل الأتراك العثمانيون لغتهم التركية، وألّفوا الكتب المدرسية وغير المدرسية بما في ذلك صرف ونحو اللغة العربية ــ بالعربية وكتبوا بها الرسائل. (انظر فهارس مخطوطات السليمانية). واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة في حين أننا الآن نشتقّ هذه المصطلحات من أوروبا.

الغريب في الأمر، أن حركة تنقية اللغة التركية من الكلمات والمصطلحات العربية، تنشط هذه الأيام. إن حديث المعاصرين الأتراك عن (العمل على التخلّص من سيطرة اللغة العربية على اللغة التركية) لا يخلو منه حديث في الإذاعة ولا كتب اللغة التركية في المدارس. الأتراك المحدّثون يتهمون العثمانيين ويتهمون الدولة العثمانية بأنها أهملت (لغتنا التركية الجميلة على

حساب اللغة العربية) وبأن العثمانيين أسهموا في إثراء الثقافة العربية وكان (الأولى أن يهتمّوا بتطوير ثقافتنا التركية) وبين الأتراك الآن تدور مناقشات وتصدر كتب ما بين مدافع عن تأثير اللغة العربية والثقافة العربية في اللغة التركية وآدابها وبين مهاجم ينادي بأن ينتبه الأتراك إلى لغتهم الذاتية. ويعملون على كسب اشتقاقات جديدة لها من أصول قديمة ونبذ ما في التركية من لفظ ومصطلح عربي، وفارسي. (لاحظ جهود المجمع اللغوي التركي الذي أقيم خصيصاً لهذا الغرض).

العرب والمسلمون والعثمانيون

حتى في وقت انهيار الدولة العثمانية كان العالم العربي والعالم الإسلامي متعاطفاً مع العثمانيين. أطلقوا اسماء أبطالهم على أطفالهم. عبد الحميد نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني، عثمان نسبة إلى الغازي عثمان باشا بطل بَلَوْنَه، أنور نسبة إلى أنور باشا أحد أعمدة الاتحاد والترقي وكذلك طلعت وزير داخلية الاتحاد والترقي والصدر الأعظم.

وفي حرب الاستقلال التركية:

١ ــ قام عثمان خوجة رئيس جمهورية بخارى في تركستان الغربية عام ١٩١٨م بجمع إعانة للشعب التركي من شعب تركستان الغربية بلغت خمسة ملايين جنيه ذهباً (= مائة مليون روبل) صادر منها لينين عشرة ملايين وتمّ إرسال التسعين مليوناً الباقية إلى أنقرة.

٢ ــ وأرسلت الهند إلى أنقرة إعانة مالية قدرها نصف مليون جنيه ذهباً.

٣ ــ وأرسلت مصر إلى أنقرة ــ في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني ٩٠٠,٠٠٠ جنيه ذهباً.

وكان ذلك تعاطفاً مع دولة عريقة ذات حضارة راقية خدمت التراث الإنساني والإسلامي وصانت البلاد العربية من أخطار فادحة.

أودّ أن أضيف إلى دعوة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى إلى إعادة «تقييم» الحكم العثماني في البلاد العربية الدعوة إلى فهم طبيعة العثمانيين كدولة إلى معرفة حضارة العثمانيين وتشريعاتهم في البلاد العربية، والقيام ـ إن أمكن عالمياً ـ بنشر الوثائق العثمانية والمخطوطات العثمانية عن العهد العثماني في البلاد العربية، وبعدها ستكون دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى أمراً علمياً بالغ الخطورة، ضرورياً حتى لفهم أنفسنا وجذور مشاكلنا المعاصرة.

(٢)

اللُّغَةُ ٱلعَرَبِيَّةِ فِى ٱلدَّوْلَةِ ٱلعُثمَانِيَّةِ

● إذا كان عثمان مؤسس الدولة العثمانية قد تولى عام ١٢٨١ وحكم ٣٧ سنة وأحاط نفسه بعلماء ومشايخ قبيلته الذين كانوا يعنون بحفظ القرآن الكريم وتحفيظه نعلم متى بدأ العثمانيون الاهتمام باللغة العربية.

ومع تولي أورخان بن عثمان، خرج التعليم من المسجد إذ فتح العثمانيون في السنة الثالثة من حكم أورخان يعني في عام ١٣٢٧م مدينة إزميد وفتحوا فيها أول مدرسة في تاريخ الدولة العثمانية (ولم تكن قد أصبحت دولة بعد لأنها لم تكن وقتها أكثر من إمارة) وهذه المدرسة هي «مدرسة إزميد» وكان أوّل مدرّس بها هو داود القيصري. وكانت الكتب المقررة فيها ـ وبالتالي في المدارس العثمانية المتعاقبة ـ في مادة التفسير: كتاب الكشاف عن حقائق التنزيل ويعرف اختصاراً باسم «تفسير الكشاف» ومؤلفه هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمار الزمخشري العالم المعروف في نحو اللغة العربية والتفسير والحديث والفقه. وكتاب «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» والمعروف باسم «تفسير القاضي البيضاوي» ومؤلفه ناصر الدين سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي. وفي مادة الحديث النبويّ: الكتب الست الصحاح وهي الجامع الصحيح للبخاري ثم الجامع الصحيح لمسلم والجامع الصحيح للترمذي وسنن ابن ماجة وسنن أبي داود والسنن الكبرى للنسائي، ومصابيح السنّة لحسين بن مسعود الفرّاء البغوي●

في مادة الفقه كانت المدارس العثمانية تدرّس كتاب الهداية لشيخ

الإسلام برهان الدين علي بن أبي بكر المرغناني، وكتاب الوقاية لبرهان الشريعة، والعناية في شرح الوقاية لعلاء الدين علي بن عمر الأسود، ومختصر القدوري لأحمد بن محمد القدوري البغدادي وكتاب الفرائض لسراج الدين محمد السجاوند ويعرف الكتاب باسم «فرائض السراجية». وفي أصول الفقه كانت الكتب المقررة هي التلويح للتفتازاني ومنار الأنوار للنسفي والمغني لجلال الدين عمر، ومختصر ابن حاجب. وفي العقائد كتاب القاضي الإيجي وكتاب النسفي والطحاوي. وفي علم الكلام تجريد الكلام للطوسي وطوالع الأنوار للبيضاوي والمواقف للإيجي وفي علم البلاغة كتاب مفتاح العلوم للسكاكي وتلخيص المفتاح في المعاني والبيان للقزويني، وفي المنطق كتاب الإيساغوجي والشمسية والغزة في المنطق للشريف نور الدين محمد بن السيد الشريف الجرجاني، وكتاب مطالع الأنوار للقاضي سراج الدين الأرموي، وفي الفلك كتاب الملخص لمحمود بن محمد الجغميني.

أمّا في اللغة العربية ـ كمادة مستقلة ـ فكانت على قسمين: الصرف يدرس فيه كتاب أساس التصريف لشمس الدين الفناري والتافية لابن حاجب والعزى للشيخ عزّ الدين أبو الفضائل الزنجاني وكتاب المقصود وينسب إلى أبي حنيفة النعمان، وكتاب مرح الأرواح لأحمد بن علي بن مسعود. أمّا في النحو: فقد كانت الكتب المقررة هي: ألفية ابن مالك والعوامل للشيخ عبد القادر الجرجاني والكافية في النحو لابن حاجب وشذور الذهب لابن هشام وقطر الندى لابن هشام. ومغني اللبيب وكتاب الإعراب عن عقائد الأعراب، والمصباح للترمذي.

وفي وثيقة عثمانية مؤرّخة عام ١٥٦٥م (٩٧٣هـ) برقم ٢٨٠٣ ـ E في أرشيف طوبقبو في إستانبول قائمة بالكتب الموزعة على المدرسين في المدارس العثمانية وبيانها كالتالي: في التفسير: الكشاف ـ قطب الدين ـ سعد الدين ـ القاضي البيضاوي ـ القرطبي ـ الكاشاني ـ الأصفهاني. وفي الفقه واللغة: الهداية ـ النهاية ـ غاية البيان ـ قاضي خان ـ البزدوي ـ النووي (شرح مسلم).

وفي مجال الثقافة الإسلامية المكتوبة باللغة العربية، تحتل الاسماء العثمانية مكانة كبيرة مشهود لها سواء على مستوى التأليف أو مستوى كثرة الإنتاج وغزارته، وعلى مدار كل القرون والنطاق هنا لا يمكن أن يتسع لذلك لا بدّ من مثال أو إثنين ممن عمّت شهرته الآفاق من العثمانيين ذاكر في البداية صاحب كشف الظنون، كاتب جلبي، الذي غلب عليه لقبه حاجي خليفة، وهو كتاب ببليوجرافي هام له مكانته في الدراسات العربية الإسلامية، واجتمع فيه من اسماء الكتب ١٤٥٠٠ كتاباً ومن المؤلفين ٩٥٠٠ مؤلف وتناول فيه نحواً من ٣٠٠ فن أو علم. حوى كشف الظنون عيون المصادر في الفكر الإسلامي مما صنّفه أصحابه باللغة العربية وبغيرها من لغات المسلمين مثل الفارسية والتركية وهذه ميزة انفرد بها. . كما ذكر الدكتور عمر الداقوقي في كتابه القيم مصادر التراث العربي. ولكاتب جلبي (أو حاجي خليفة) موسوعته الكبيرة في ميدانها وهو كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول.

من هذه الأسماء أيضاً طاشكوبري زاده واسمه عصام الدين أبي الخير أحمد بن مصطفى صاحب كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية وهو كتاب شائع في العالم العربي صدرت منه طبعات مختلفة تناول فيه مؤلفه أكثر من خمسمائة عالِم وشيخ من الذين عاشوا في الدولة العثمانية منذ عثمان إلى سليمان القانوني وهو العهد الذي عاش فيه طاشكوبري زاده.

والشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية تُرجم من لغته العربية إلى اللغة التركية في عهد مؤلفه التركي. طبع الكتاب باللغة العربية عدة طبعات، وأصدر معهد الشرقيات بجامعة إستانبول والذي يديره عالِم الدراسات العربية ورائد من رواد اللغة العربية في تركيا الأستاذ الجليل نهاد جتين، أقول أصدر هذا المعهد طبعة محققة للشقائق النعمانية عام ١٩٨٥م، وهذا يُعد حدث هام في تاريخ الثقافة العربية.

الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، هذا الذي نتحدّث عنه، من تحقيق الدكتور صبحي فرات. يلفت المحقق في مقدمته، أنظارنا إلى الآتي: «إن

القسم الأكبر من تلك الشخصيات التي احتواها هذا الكتاب، كان قد خلّف مؤلفات كثيرة في مجال العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والأدب، وهذا ما يظهر لنا قوة نمو وتطوّر العلوم الإسلامية باللغة العربية على الساحة العثمانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري. أي من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر الميلادي...»

أحب أن أضيف إلى قول الدكتور أحمد صبحي فرات، محقق الشقائق النعمانية، أن تطوّر العلوم الإسلامية باللغة العربية على الساحة العثمانية امتد بعد ذلك إلى نهاية القرن العشرين الميلادي.

إن آخر ما يحضرني في هذا الموضوع هو كتاب من تأليف المعلم جودت، وهو تربوي وكاتب تركي (١٨٨٣ ـ ١٩٣٥م) جمع بين الثقافة الإسلامية وثقافة الغرب. أصدر قبل وفاته بعامين وفي إستانبول كتاباً قيماً باللغة العربية بعنوان ذيل على ابن بطوطة تحدّث فيه عن الأخية الفتيان التركية في الأناضول الذين تحدّث عنهم ابن بطوطة. وقدّم لنا المعلم جودت في كتابه هذا دراسة من أعمق الدراسات في موضوع تشكيلات الفتوة في الإسلام.

وإذا عدنا مرة أخرى العهود العثمانية الأولى نذكر من عصر السلطان سليم الأوّل فاتح الشام ومصر، ابن كمال باشا وهو شمس الدين أحمد بن سليمان. عن ابن كمال باشا قال باحث عربي هو الدكتور ناصر سعد الرشيد مدير مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة الملك عبد العزيز، في دراسته له عن جهود ابن كمال في الدراسات اللغوية العربية بعنوان رسائل ابن كمال اللغوية (الجزء الأوّل ـ الرياض ١٩٨٠م) ما يلي: «اشتهر ابن كمال باشا بكثرة تآليفه ورسائله وهو بهذا يشبه السّيوطيّ وابن الجوزي وابن حزم وابن تيمية وغيرهم، ممن اشتهر في تاريخ الإسلام بكثرة التأليف. وعلى هذا فليس من اليسير إحصاء جميع تآليفه أما حين تأتي إلى ذكر رسائله فنكتفي بأن نقول بأن له رسائل كثيرة. ومن خبر فهارس المخطوطات، عرف كثرة ما ألّفه ابن كمال باشا من رسائل في فنون مختلفة» وقال اللكنوي بأن لابن كمال باشا

«رسائل كثيرة في فنون عديدة لعلها تزيد على ثلاثمائة، غير تصانيف له في لغات إسلامية أخرى كالفارسية والتركية».

وقبل عهد سليم الأوّل، كان جدّه محمد الفاتح وعهده زاخر بالتآليف العربية، ونجد في عهد الفاتح أن للعربية الحظ الأوفر في التصنيف. وأساتذة الفاتح الذين اضطلعوا بمهمة تعليمه وتثقيفه لهم باعهم في هذا الأمر: الشيخ الكوراني وتفسيره، والشيخ خسرو ورسائله الفقهية وكتابه مرآة الأصول.

وبعد عهد سليم الأوّل مباشرة، عهد ابنه القانوني سليمان، يظهر شيخ الإسلام أبو السعود أفندي صاحب التفسير المشهور (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم).

هذا غير ما ظهر في اللغة العربية من دراسات وتآليف كتبها عثمانيون في العلوم والجغرافيا والطب والتاريخ وعلم الكلام، مما لا يسعه المقام في مقالة، وإن كنت أشرت إلى بعضها في مقالات سابقة لي.

وهناك علامة بارزة على الاهتمام السامي باللغة العربية في الدولة العثمانية، وهي أن كل أمير وسلطان وخليفة عثماني، كان يجيد اللغة العربية، تعلم ودرس بها، واتخذها وسيلة لتعلم الدراسات الإسلامية المنصوص عليها في نظام تربية الأمراء في القصر العثماني.

وأحب هنا أن أنقل عبارةً كتبها مؤرخ التربية التركية المشهور عثمان أركين في كتابه تاريخ التربية التركية (في خمسة أجزاء، إستانبول ١٩٣٩ — ١٩٤٣م)، هي:

«اتخذ السلاجقة الأتراك في دولتهم السلجوقية، اللغة الفارسية لغة رسمية لهم وهم أتراك. والعثمانيون ــ مع استخدامهم للغتهم التركية في الأعمال الحكومية ــ إلا أنهم لم يدرّسوا هذه اللغة للشعب في أي مؤسسة من المؤسسات. فاللغة السائدة والمسيطرة في المدارس والجامعات عند العثمانيين كانت اللغة العربية. ولم تتنّحى اللغة العربية عن المكانة الأولى في المؤسسات التعليمية العثمانية إلا مع إلغاء النظام التربوي العثماني عندما صدر قانون عام ١٩٢٣».

يعدد عثمان أركين أسماء المدارس في عهد «اتخاذ التعليم العثماني اللغة العربية أساساً لغوياً» فيذكر مدرسة إعداد الأمراء، ومدرسة أندرون (وهي مدرسة في القصر السلطاني لإعداد موظفين من الدرجة الأولى العالية لاستخدامهم في القصر والجيش والحكومة) والمدارس العسكرية ومدارس الموسيقى العسكرية ومدارس الفنون العسكرية.

ونجد في دور الأرشيف في تركيا الآن الوقفيات العديدة مكتوبة باللغة العربية والأمثلة أكثر من أن تحصى، أشير فقط لمثال أو اثنين: وقفية السلطان مراد الثاني لإنشاء دار الحديث في أدرنه (انظر أرشيف طوب قابو وثيقة رقم ٧٠٨١) ووقفية الشيخ المولى فناري الخاصة بمدرسته في القدس (أرشيف رياسة الوزراء في إستانبول ـ قسم الوقفيات رقم ٦/١٦٢).

وحتى في آخر ست سنوات من عمر الدولة العثمانية، وأقصد بها فترة حكم حزب الاتحاد والترقي ـ وهو حزب ثار أساساً على وجود الدولة العثمانية ونجح بالفعل في تقويضها ـ أقول أنه حتى في هذه الفترة القصيرة جداً من التاريخ والتي نادى بعض قادة الاتحاد والترقي فيها بالتتريك. لم تستطع هذه السياسة أن تمسّ سلطة اللغة العربية في معاهد التعليم بأنواعها ولم يتوقف التعليم بالعربية فيها ولم ينقص احترام العثمانيين للغة العربية.

(٣)

اللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ في مِصْرَ

قَبْلَ العُثْمانِيِّين

● كان صلاح الدين الأيوبي كردياً، لكنه لم يكن يعرف التعصب لكرديته ولا للغته الكردية. ومع إكثار الأيوبيين للمماليك من الترك، فتحت الأبواب إلى انتشار اللغة التركية في الجيش الأيوبي، وفي قصور الأيوبيين. حتّى أطلق المؤرخون على دولته إسم الدولة التركية. وربما يرجع سبب من أسباب هذه التسمية إلى أنّ الحضارة السلجوقية ـ وهي حضارة تركية ـ قد دخلت مصر معهم ـ أي مع الأيوبيين ـ إبتداء من العقيدة المذهبية وأقصد بها التمسّك بمذهب أهل السنّة والجماعة في مواجهة المذهب الشيعي، أقول ابتداء من هذه العقيدة إلى الفنون الجميلة، إلى الخط، إلى التنظيمات الإدارية والنظم العسكرية، أي إلى كل فروع الحضارة ●

لم يقتصر اهتمام مصر باللغة التركية على عهد الدولة الأيوبية فقط. فقد وجدت هذه اللغة ساحة انتشار واسعة ونشاطاً أدبياً واسع النفوذ، في العهد المملوكي بشطريه: المملوكي التركي (١٢٥٠م ـ ١٣٨٢م) والمملوكي الشركسي (١٣٨٢م ـ ١٥١٧م) وهي فترة تاريخية هامة حوت بين جنباتها «الحروب الصليبية» وأخذت هذه الدولة المملوكية ـ وهي تركية بشطريها كما أسلفنا ـ صفة قوة من أعظم القوى السياسية والعسكرية في العالم ونقلت مركز الثقل في عالم العصور الوسطى، إلى مصر. وصارت مصر بهم وبقواتهم القوية وجيوشهم المنظمة، قوة عظمى تدافع عن الإسلام وعن العالم الإسلامي أمام الغرب المتمثل في الجيوش الصليبية. . كما كانت مصر، بهم وبقواتهم وبجيوشهم، القوّة العظمى التي أوقفت التقدّم المغولي المذهل.

ولم يكن أحد من سلاطين المماليك وأمرائهم ـ على الأغلب ـ يعرف اللغة العربية. مثال ذلك أن السلطان قلاوون كان يعرف اللغة العربية معرفة باهتة، ويؤيدنا في ذلك مؤرخنا المقريزي. كما نجد أن السلطان برقوق أول سلاطين الدولة المملوكية الشركسية، يطلب عند وصوله حلب، عالماً تركياً يتواجد في معينه ليقرأ له الكتب التركية.

وهذا، إن دلّ على عدم معرفة الأمراء والسلاطين المماليك باللغة العربية، إلّا أنه يدلّ من ناحية أخرى على معرفة هؤلاء باللغة التركية. ومثال ذلك أن السلطان قايتباي كان ينظم أشعاره بالتركية في لهجتها القبجاقية. وكان محمد بن قايتباي كذلك ينظم أشعاره باللغة التركية. ولا ننسى هنا أديب اللغة التركية السلطان قانصوه الغوري. والجانب الثقافي للغوري هام، فقد كانت له ثقافته الدينية الواسعة، كما كان له اهتمامه الواضح في التاريخ بالأدب، وله كتاب في التفسير بعنوان «كوكب الدري في أجوبة الغوري»، وله منظومتان ورسالة منظومة بعنوان «قصائد الربانية والموشحات السلطانية الغورية». وفي مناقب إبراهيم كلشني، إن الغوري كان يجيد ثلاث لغات. وقصائده التركية بعضها مخطوط في طوب قابو وملت في إستانبول. وبعضها ظهرت عنه دراسات حديثة. ولأستاذي الجليل الدكتور شهاب الدين تكين ضاغ، عليه رحمة الله، مقالات عن أدب الغوري المكتوب باللغة التركية.

لكن مصر اهتمت باللغة التركية منذ القرن الثالث عشر الميلادي تعليماً وتدريساً، وظهرت فيها الكتب لهذا الغرض، التعليمي. وكتاب بلغة المشتاق في لغة الترك والقبجاق، شاهد على اهتمام مصر باللغة التركية ونشرها. وهذا الكتاب عبارة عن قاموس عربي ـ تركي. ويُرجح أنّ كاتبه هو «جمال الدين أبو محمد عبد الله التركي»، كتبه في تاريخ ترجيحي أيضاً هو «قبل عام ١٤٣١م». وكان كاتب هذا الكتاب يهدف إلى تصنيف قاموس للغة التركية وإن كان يتحدث في مقدمته عن كتابه بأنه «ترجمان اللغة التركية»، إلّا أنّ الكتاب اشتهر باسم كتاب «بلغة المشتاق في لغة الترك والقبجاق». ولهذا الكتاب مخطوطة نادرة في المكتبة الوطنية في باريس ويحتوي على واحد وسبعين ورقة.

قسم المؤلف كتابه هذا إلى قسمين: أسماء وأفعال. قامت أكاديمية العلوم في وارسو (عاصمة بولندا) بنشر هذا الكتاب على مرتين: الجزء الثاني الخاص بالأفعال عام ١٩٥٤م، والجزء الأول الخاص بالأسماء عام ١٩٥٨م.

ينبغي هنا الإشارة إلى أنّ اللغة التركية كانت هامة في مصر في عهد المماليك وكتبت بها كتب كثيرة قدمت لأمراء المماليك وسلاطينهم، لكن انتشار اللغة التركية في ذلك الوقت في النظم الحضارية والتنظيمات العسكرية الإسلامية، كان يمتد من خوارزم إلى آذربيجان ومن الأناضول إلى سوريا ومصر. إلّا أنّ مركزها كان مصر. أقصد مركز الاهتمام الأول باللغة التركية، حيث القوة الأولى في المنطقة وواحدة من القوى العظمى في العالم إن لم تكن هي القوة العظمى الأولى.

أما في القرن الرابع عشر، فقد بنى الأمير صغور غتمس مدرسته في القاهرة، فاستقدم بعد بنائها، بعض علماء تركستان وغيرها من المناطق التركية، لتعليم اللغة التركية ــ بجانب العلوم العربية والإسلامية واللغة العربية ــ مثل الشيخ محمود بن قوطلو شاه، المتوفى عام ٧٧٥هـ.

ومن المؤلفات التركية في مصر في القرن الرابع عشر أيضاً، ما كتبه الشيخ صدر الدين عام ١٣٩٩م، وهو كتاب على المذهب الحنفي، والشيخ محمود بن عبد الله الكلستاني السرايي المتوفى عام ١٣٩٩م قد صنّف عدة كتب في مختلف ساحات المعرفة المعروفة وقتها في ثلاث لغات منها التركية. وهذا الشيخ هو العالِم الذي استقدمه إليه السلطان برقوق عندما كان هذا في حلب لقراءة الكتب التركية على السلطان. ومن العلماء في هذا المضمار أيضاً الشيخ إبراهيم شيخ السرابي، والشيخ أحمد بن أبي يزيد.

والكتب التركية التي كُتبت في مصر معروف بعضها لدينا، لكن بعضها الآخر ما زال غير معروف، حتى أنّ حاجي خليفة لم يوردها في كشف الظنون. ولكن، مع عمليات فهرسة مكتبات إستانبول والبحث فيها، بدأت مخطوطات قيّمة تظهر في هذا الميدان.

أما إذا استطردنا في ذكر بعض أسماء وعناوين الكتب اللغوية القيّمة التي صُنِّفت في مصر في العهد المملوكي، نذكر كتاباً باللغة التركية في الفقه الحنفي والمعاملات مسجَّل تحت رقم (١٠٤٦) في مكتبة فيض الله أفندي بإستانبول. ويحدّثنا حاجي خليفة عن كتاب منظوم لزين الدين بن عبد الرحمن العيني (متوفى عام ٧٩٣هـ) باسم «الدرّة المودعة في اللغة التركية». كما أننا على علم بمؤلفات ابن حيان الغرناطي العالِم اللغوي العربي المشهور في عصره. ولد هذا العالِم في غرناطة لكنه نشأ وتعلّم ومات في مصر. له مؤلفات في اللغات ومنها اللغة التركية. وقد كتب أبو حيان هذا في مصر عدة كتب في اللغة التركية منها: كتاب زهر الملك في نحو الترك، وكتاب الأفعال في لسان الترك، وكتاب القوانين الداخلية لضبط اللغة التركية، وكتاب الإدراك للسان الأتراك. وهذا الكتاب الأخير هام مكتوب باللغة التركية في لهجتها القبجاقية. وهو قسمان معجم، وكتاب نحو. كتبه المؤلف في القاهرة عام ١٣١٢، وهو من أقدم كتب الصرف والنحو التركي، ويُلاحظ أنه لم يكتبه في قسمه المعجم حسب الترتيب الأبجدي. وهذا القسم المعجمي جدير بالاهتمام. وللكتاب مخطوطتان واحدة في إستانبول وتقع في ١٣٢ صفحة، ناسخها مجهول، أما تاريخ نسخها فمعلوم وهو عام ١٣٣٥م، وهذه المخطوطة برقم (٢٨٩٦) في مكتبة وليّ الدين أفندي (قسم من مكتبة الدولة في بايزيد بإستانبول) والثانية في مكتبة جامعة إستانبول تحت رقم (٣٨٥٦) مخطوط عربي. استنسخها أحمد الشافعي عام ١٤٠٢هـ في اللاذقية في سوريا وهي في ١٩٦ صفحة، وقام مصطفى السلانيكي عام ١٨٩٢م بنشرها معتمداً على نسخة وليّ الدين أفندي وهي تفتقر إلى العلمية في نشرها، لكن الأستاذ أحمد جعفر نشر هذا الكتاب عام ١٩٣١م معتمداً على نسخة جامعة إستانبول مع ترجمة تركية للكتاب.

وهناك كتاب مصنّف في القاهرة في القرن الخامس عشر بعنوان القوانين الكلية لضبط اللغة التركية وهو مجهول المؤلف ــ حتى الآن ــ كتبه مصنّفه بهدف تعليم اللغة التركية، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الشهيد علي باشا في المكتبة

السليمانية في إستانبول برقم (٢٦٥٩)، وتقع هذه المخطوطة في ١٦٩ صفحة، ولا يوجد منها إلاّ القسم الخاص بالنحو. وأوسع الكتابة مساحة ملحوظة للأفعال في اللغة التركية وقد حقّق هذا الكتاب رفعت الكليسلي ونشره في إستانبول عام ١٩٢٨م، وكتب الأستاذ محمد فؤاد كوبريلي مقدمة له. وقام المستشرق المجري س. تجله دي عام ١٩٣٧م بكتابة دراسة باللغة الألمانية عن هذا الكتاب.

وهناك أيضاً مخطوطات في هذا المجال مثل كتاب ديوان اللغة وكتاب العمدة القوية في اللغة التركية، وهو كتاب باللغة التركية، مفقود ــ حتى الآن ــ ألفه محمد بن عبد الولي اليعلي (١٢٦٤ ــ ١٣٠٢م) وهناك أيضاً كتاب مجموع ترجمان تركي وعربي وفارسي ومغولي. وهذا مكتوب أيضاً باللغة التركية القبجاقية وهو من كتب النحو والمعاجم. كتبه ــ أو استنسخه ــ خليل القونوي بن محمد بن يوسف في ٢٧ شعبان ٧٤٣هـ (٢٥ يناير ١٣٤٣م) ونشره المستشرق مارتين هوتسما في ليدن بهولندا عام ١٨٩٤م وكتبت عنه دراسة في مجلة الإسلام ــ بالألمانية ــ عام ١٩٦٨م، باربار إفليمنج، ونسخة هذا الكتاب المخطوطة تقع في ٧٦ ورقة ونسخته الوحيدة المعروفة ــ حتى الآن ــ موجودة في مكتبة أكاديمية ليدن والكتاب على قسمين الأول الكلمات الخاصّة باللغتين التركية والعربية، والقسم الثاني خاص بالكلمات المغولية والفارسية وفي الكتاب ما يقرب من ١٢٦٠ كلمة تركية قبجاقية وما يقرب من سبعين كلمة تركية تركمانية. ونشر هذا الكتاب مع دراسة مستفيضة عنه عام ١٩٧٠م في ألما آتا عاصمة قازقاستان السوفييتية.

ومن المؤلفات التي كتبت في مصر باللغة التركية في القرن الرابع عشر الميلادي، ترجمة كتاب إرشاد الملوك والسلاطين، كُتب للأمير كبير الظاهر المحمودي السيفي باجمان نائب السلطنة بالإسكندرية. مؤلفه غير معروف ومترجمه مجهول. لكن ناسخه معروف وهو الفقيه بركة القبجاقي والكتاب موجود في مكتبة آياصوفيا بالسليمانية تحت رقم ١٠١٦ وزاد المستنسخ في نهايته منظومة تركية.

ظهر في مصر أيضاً الشاعر التركي سيف سرايي وهو شاعر عاش في مصر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي. وصف فؤاد كوبريلي أسلوبه فقال: (لا يمكن أن نجد نموذجاً في النثر الأدبي التركي باللهجة القبجاقية في القرن الرابع عشر أسمى وأفضل من سيف سرايي).

وهذا الشاعر ترجم كلستان سعدي من اللغة الفارسية إلى اللغة التركية وقدّم هذه الترجمة الراقية الأسلوب إلى الأمير بنجاس حاجب الحجاب.

* * *

ويدخل في هذا الموضوع، موضوع اللغة التركية في مصر، أوراد الطريقة البكتاشية وكتيباتها، وهي أوراد وكتيبات باللغة التركية.

* * *

ويجب التنبيه هنا إلى اهتمام مصر المملوكية أو فلنقل الاهتمام المملوكي في مصر باللغة التركية، لم يمنع المماليك من تشجيع الكتابة بالعربية وترقية الدراسات الإسلامية والعلوم العربية، حتى أنهم جمعوا ضريبة لهذا الغرض.

* * *

ولكن بانتهاء الدولة المملوكية ومصرع السلطان قانصوه الغوري ودخول العثمانيين القاهرة، انتهت دولة اللغة التركية في مصر وفقدت هذه اللغة أهميتها التي كانت لها في عهد المماليك، يعني مات الاهتمام بحركة التأليف باللغة التركية في مصر بموت الغوري، فلم تظهر في مصر في العهد العثماني كله مصنفات في علوم اللغة التركية ترقى إلى مستوى بعض ما كان لدى المماليك كما وكيفا.

الفهـرس

ثانياً : العثمانيون فى الحضارة

ثالثاً : كلمة حق واجبٌ قولها

العثمانيون :

ساحة مباركة في زمن المسلمين ؛

وجزء رحب في حضارة البشر ؛

اتسموا بالسمو في تاريخ العالم ،

جاهدوا واجتهدوا .

أصابوا كثيرا ، ولهم أخطاؤهم ؛

لكنهم أضافوا للإنسانية فخرًا ،

وللمسلمين عزة .

فلِمَ كل هذه المعاداة للعثمانيين

في بلاد المسلمين ؟!!

محمد حرب